طوق الياسمين

من سير العلماء والصالحين

المؤلف: الباحث إبراهيم عبد العالي

مؤسسة كنوز الحكمة للنشر و التوزيع

EURL Kounouz El-Hikma

1438هـ/2017م

طوق الياسمين

من سير العلماء و الصالحين

المؤلف: الباحث إبراهيم عبد العالي

رقم الإيداع القانوني:

السداسي الاول- 2017

978-9947-60-009-2

العنوان: حي المجاهدين رقم 22 بن عكنون – الجزائر

الجوال 0556 01 36 02

الموقع الإلكتروني: www.kounouzelhikma.net.dz

البريد الإلكتروني: kounouzelhikma@yahoo.fr

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى :

والدتي الحنونة التي كان لسان حالها الدعاء لي بالتوفيق والإتمام.

والدي العزيز الذي وجهني وعلمني و كان له أكبر الأثر في تربيتي وتأديبي.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يطيل في عمرهما على الطاعة وأن يمتعهما بالصحة والعافية ، وأن يجعل عاقبتهما جنة عرضها السموات والأرض ، وأن يكتب أجر هذا الكتاب في ميزان حسناتهما يوم العرض على رب العالمين.

أختي الغالية التي طالما كانت عونا لي ..

شكر وتقدير

إلى القلب الكبير المتواضع الأستاذ الدكتور : بوعزة بوضرساية الذي له اليد الكبرى وراء إخراج هذه المادة ، هذا الرجل الذي أكرمني الله بالجلوس معه كثيرا ، فرأيت فيه الخلق الرفيع والأدب الجم ، والجهد المميز.

إلى أستاذي الفاضل الدكتور : خالد كبير علال الذي علمني وأرشدني ، ولازلت أنهل من علمه وأدبه وسمته الجم.

إلى أستاذتي الكريمة الدكتورة : جميلة بن موسى التي أكرمني الله بعطفها واهتمامها ، وبسؤالها الدائم عن الكتاب ، وقراءته الأولى للتصحيح ، كل ذلك مع انشغالها ، فوجهتني وساعدتني فلها مني جزيل الشكر والتقدير.

إلى الدكتور إلياس نايت قاسي و الأستاذ الدكتور عبد القادر تومي ، لمساهمتهما الطيبة في دعم ورعاية هذا العمل.

ونقول لهم جميعا ، فخرنا واعتزازنا ، أنكم معنا مساهمون في الأجر ، فبارك الله في أهلكم وأولادكم ، وزادكم الله برا وتقوى وأعلى شأنكم في رفعة هذا الدين.

إلى أولئك الصفوة من الأصدقاء والأناس الأوفياء ، الذين لم يبخلوا عليا بكل ثمين لديهم من وقت ومشاعر فأمدوني بثمرة ما يملكون من عطاء.

ولكل من ساهم معي بقليل أو كثير ، ولو بدعوة صادقة في ظهر الغيب.

شكرا لكم من أعماق قلبي وجزاكم الله خير الجزاء.

تصدير

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الكريم وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين ، وبعد :

ما أحوج الأمم إلى الوقوف على علمائها ومفكريها من أجل أن تنهل الأجيال من معين هؤلاء الذي لا ينضب ، والأمة العربية الإسلامية حباها الله سبحانه وتعالى بقامات صنعت حضارة كانت بالأمس القريب عاملا أساسيا من عوامل النهضة الأوروبية.

من هذا المنطلق ، جاء هذا العمل المقدم من طرف الباحث الطموح إبراهيم عبد العالي الذي كان هدفه الأسمى تذكير الجيل الذي ينتمي إليه ، بشخصيات لمعت بعلمها ، وثقافتها ، وعطائها ، في سماء المسلمين ولفترات تاريخية طويلة ، ولعل ديمومة هذه الأمة يعود أساسا إلى هؤلاء الجهابذة في كل المجالات ، وعليه فالعمل المقدم الموسوم بـ" طوق الياسمين من سيّر العلماء والصالحين" سوف يثري المكتبة الجزائرية بصفة خاصة ، والعربية الإسلامية بل والعالمية على وجه العموم ، كيف لا وفي طياته أسماء غيرت مجرى التاريخ وصنعت مجد الأمة العربية الإسلامية ، وأصبحوا نبراسها الذي تحتذي به الأجيال القادمة لقرون متتالية ، فهم العبرة والموعظة من أجل أن تعود هذه الأمة إلى سابق عهدها الذهبي الذي تفوقت فيه على أمم أخرى كانت على النقيض منها.

الأستاذ الدكتور بوعزة بوضرساية

رئيس اللجنة العلمية لقسم التاريخ بجامعة الجزائر2

مدير مخبر الوحدة المغاربية عبر التاريخ بجامعة الجزائر2

مقدمة

الحمد لله الذي أنعم على الإسلام والمسلمين بأئمة هادين مهديين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين، معلما هاديا، ومرشدا ناصحا، فقه الناس في دين الله تعالى، وبصرهم بشريعته، وحضّ الناس على الفهم في دين الله تعالى، ومعرفة أحكامه وحكمه، وقال : " من يرد الله به خيرا يفقه في الدين. "

أما بعد :

فإن الله تعالى الذي تكفل بحفظ هذا الدين سليما نقيا، واضح المعالم كاملا، نبراسا للمهتدين في كل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قد قيض لهذا الدين علماء، وأئمة مجتهدين، فسروا كتابه وبينوا أحكامه، وجمعوا وحفظوا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين لهم بإحسان، واعملوا فهمهم وعلمهم في الكتاب والسنة وأقوال أئمة خير القرون وآرائهم، واجتهدوا فيما جدّ من القضايا التي ليس لها نصوص معينة، فجعلوا لها باجتهادهم حكما، حتى خلفوا لنا علما أجاب عن كل مسألة، وحل كل عقدة، وهدى كل حائر، وحكم في كل قضية، ووضعوا قواعد شرعية جليلة، من خلال الكتاب والسنة، وفهمهم لها، ليحكم بها على حوادث كل عصر وقضاياه، وما يظن أنه جديد في أحوال الناس ومعاملاتهم، وقد سار الفقهاء بعدهم سيرهم، وما يزالون يفعلون إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله.

وإننا لفي حاجة ماسة إلى نبراس عظيم، ونور جليل في طريق شبابنا إلى الله تعالى، على درب العلم والهدى، والفقه والورع وشدة الدين، وإعزاز العلم، والترفع به عن لعاعة الدنيا، والجهر بالحق، ولو كان في ذلك بذل الروح لله رب العالمين.

وهذا الكتاب الذي نقدمه للقراء الكرام، يسلط الضوء على هؤلاء الأعلام بأسلوب جديد وعرض متميز لنبرز أمام شبابنا القدوة الحسنة من خلال عرض مواقف من سيرهم وحياتهم وعظمة الأعمال التي قاموا بها، والجهد الذي بذلوه لحفظ هذا الدين ونشره..

لنسير على دربهم، وننهج مناهجهم، فنعيد للأمة عظمتها ونرفع لواءها عاليا وما ذلك على الله بعزيز..

وقد وضعت ترجمة موجزة لأولئك الأعلام رأيتها تناسب المقام، ولم أتخذ لنفسي منهجا ثابتا في هذا الجمع، فمن النمطية فررت ومن عدم الترتيب أردت ، أردته هكذا، لينقل القارئ من عظة مبكية إلى طرفة مضحكة على فائدة معجبة.

فأي رحيق هذا الكتاب تنسمت ، فستجني من وراءه شهدًا صافيًا فيه شفاء للناس.

وليكن على ذكر منك أني أَلْفِتُكَ إلى قول القائل :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

أسأل الله أن يتقبل هذا الجهد خالصا لوجهه الكريم، وأن يمن علينا بالتوفيق والسداد، ويجنبنا مزالق الخطأ ومهاوي الزلل، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النصير..

الباحث : إبراهيم عبد العالي

عمرو بن العاص (داهية العرب)

هو عمرو بن العاص السهمي القرشي الكناني (45 ق هـ - 43 هـ) ، أبو عبد الله ، كان عمرو من فرسان قريش وأبطالهم في الجاهلية ، أرسلته قريش قبل إسلامه إلى الحبشة ، ليطلب من النجاشي تسليمه المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة فرارا من الكفار، وإعادتهم إلى مكة لمحاسبتهم وردهم عن دينهم الجديد ، فلم يستجب له النجاشي . هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسلما في أوائل سنة ثمان مرافقا لخالد بن الوليد وحاجب الكعبة عثمان بن طلحة ففرح النبي صلى الله عليه وسلم بقدومهم وإسلامهم . وبعد إسلامه فتح مصر بعد أن قهر الروم وأصبح واليا عليها بعد أن عينه عمر بن الخطاب[1].

وأبرز ما عرف عن عمرو بن العاص أنه كان أدهى دهاة العرب في عصره ، فقد نقلت عن سعة حيلته وعبقرية تدبيره روايات تشبه الأساطير.

رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب :

لما نزل عمرو بن العاص وجنده على الروم بموقعة أجنادين لفتحها ، كان قائد الروم الأرطبون (وكان داهية من دهاة الروم لا يشق له غبار) قد وضع جندا عظيما بإيلياء والرملة ، وكتب عمرو إلى عمر بالخبر ، فقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب (يعني عمرو بن العاص) فانظروا عما تنفرج. ولما أراد عمرو أن يجمع المعلومات عن الأرطبون وجيشه حتى يضع خطته الحكيمة لمهاجمته والانتصار عليه ، لم يعتمد على الرسل، بل غامر بنفسه لمعرفة قوة عدوه ، فدخل عليه كأنه رسول ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد ، وقال الأرطبون في نفسه : والله إن هذا لعمرو ، أو أنه الذي يأخذ عمرو برأيه ، وما كنت أصيب القوم بأمر هو أعظم من قتله[2].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج3 ، تحقيق شعيب الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط3 ، بيروت ، 1885 ، ص : 54 ، 55.

[2] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : البداية والنهاية ، ج9 ، تحقيق عبد الله المحسن التركي ، هجر للطباعة والنشر، ط1، جيزة ، 1999 ، ص : 653.

فدعا حرسيا فساره فأمره بقتله ، فقال : اذهب فقم في مكان كذا وكذا ، فإذا مر بك فقتله. ففطن عمرو بن العاص فقال للأرطبون : أيها الأمير إني قد سمعت كلامك وسمعت كلامي وإني واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي ، لنشهد أموره ، وقد أحببت أن آتيك بهم ، ليسمعوا كلامك ويروا ما رأيت.

فقال الأرطبون : نعم فاذهب فأتني بهم. (وافق الأرطبون على ذلك طمعا منه في قتل العشرة) ودعا رجلا فساره فقال : اذهب إلى فلان فرده.

وقام عمرو فذهب إلى جيشه ، ثم تحقق الأرطبون أنه عمرو بن العاص. فقال : خدعني الرجل هذا والله أدهى العرب. وبلغت عمر بن الخطاب فقال : غلبه عمرو لله در عمرو[1].

لا يخرج إليه غيري :

عن خالد بن عبد الله ، عن محمد بن عمرو ، عن أبيه ، عن جده قال : قال عمرو بن العاص : خرج جيش من المسلمين أنا أميرهم حتى نزلنا الإسكندرية ، فقال عظيم منهم : أخرجوا إلي رجلا أكلمه ويكلمني. فقلت : لا يخرج إليه غيري ، فخرجت معي ترجماني ، ومعه ترجمان ، حتى وضع لنا منبران. فقال : ما أنتم ؟ قلت : نحن العرب، ومن أهل الشوك و القرظ ، ونحن أهل بيت الله ، كنا أضيق الناس أرضا وشره عيشا ، نأكل الميتة ، ويغير بعضنا على بعض ، كنا بشر عيش عاش به الناس ، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ شرفا ولا أكثرنا مالا ، قال : أنا رسول الله إليكم، يأمرنا بما لا نعرف ، وينهانا عما كنا عليه ، فشنفْنا له ، وكذبناه ، ورددنا عليه ، حتى خرج إليه قوم من غيرنا ، فقالوا : نحن نصدقك ، ونقاتل من قاتلك ، فخرج إليهم ، وخرجنا إليه ، وقاتلناه ، فظهر علينا ، وقاتل من يليه من العرب ، فظهر عليهم ، فلو تعلم ما ورائي من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم. فضحك ، ثم قال : إن رسولكم قد صدق وقد جاءتنا رسل بمثل ذلك ، وكنا عليه حتى ظهرت فينا ملوك ، فعملوا فينا بأهوائهم ، وتركوا أمر الأنبياء ، فإن

---

[1] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج12 ، ص : 654.

كنتم أخذتم أمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه ، وإذا فعلتم مثل الذي فعلنا ، فتركتم أمر نبيكم ، لم تكونوا أكثر عددا منا ولا أشد منا قوة[1].

بين عمرو بن العاص ومعاوية :

دخل عمرو بن العاص والي مصر على معاوية أيام خلافته ، وعنده الوزراء والوجهاء والأعيان. فقال معاوية لعمرو : أنا أدهى منك (أي: أنا أذكى منك لأني وصلت للخلافة و أنت لم تصل إليها). فقال عمرو : إن شئت يا أمير المؤمنين أريتك دهائي. فقال معاوية : افعل.

قال عمرو : أخرج من عندك (أي: أطلب من الناس أن يخرجوا حتى لا أحرجك أمامهم). فأمر معاوية فخرج كل من في المجلس.

فقال عمرو : أدن مني يا أمير المؤمنين أسارّرك (أي : اقترب مني حتى أهمس في أذنك)فأدنى معاوية أذنه ، فقال عمرو : "علام أسارّرك وليس في الغرفة أحد ! "[2].

هكذا كان عمرو بن العاص في الدهاء ، فقد كان رضي الله عنه داهية العرب ، رأيا ، وحزما ، وعقلا ، ولسانا ، و كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه ، قال : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد !.

بين عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة (هذه بتلك) :

لما أراد معاوية رضي الله عنه أن يستخلف على الكوفة عبد الله ين عمرو بن العاص، قال له المغيرة بن شعبة : أتوليه الكوفة وأبوه بمصر وتبقى أنت بين لحيي الأسد !؟ فثناه عن ذلك ، وولى عليها المغيرة بن شعبة ، فاجتمع عمرو بن العاص بمعاوية ، فقال : أتجعل المغيرة على الخراج ، هلا وليت الخراج رجلا آخر. فعزله عن الخراج وولاه على الصلاة ، فقال المغيرة لعمرو في ذلك ، فقال له : ألست المشير على أمير المؤمنين بما أشرت به في عبد الله ؟ قال : بلى. قال : هذه بتلك. بهذه الطريقة السليمة رد عمرو الصفعة مضاعفة لغريمه وشبيهه بالذكاء المغيرة فنجح في ذلك ،

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج3 ، ص : 70 ، 71.

[2] عباس محمود العقاد : موسوعة العقاد الإسلامية ، ج3 ، دار الكتاب العربي ، ط1، بيروت ، لبنان ،1971 ، ص : 706.

ووصل إلى هدفه بحل ينم عن سرعة البديهة وإحاطة بالأمور بالرغم من قوة حجة المغيرة[1] .

---

[1] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج11 ، ص : 149.

معاوية بن أبي سفيان (صحابي جليل وعالم كبير)

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب ، أمير المؤمنين ، ملك الإسلام ، أبو عبد الرحمن القرشي الأموي المكي ، وأمه هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، ولد قبل البعثة بخمس سنين ، وأسلم عام الفتح في عمرة القضاء ، وكان رجلا طويلا ، أبيض ، جميلا ، مهيبا [1] ، وقد تفرس فيه والده ووالدته منذ الطفولة بمستقبل كبير، فهذا أبو سفيان ينظر إليه وهو يحبو فيقول لوالدته : إن ابني هذا لعظيم الرأس وإنه لخليق أن يسود قومه ، فقالت هند : ثكلته إن لم يسد العرب قاطبة.

صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من كتابه وروى عنه أحاديث ، وقد أخرج له الجماعة[2].

وكان معاوية تحت لواء أخيه يزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام ، ولما توفي يزيد في خلافة عمر رضي الله عنهما ولى خلفا له فيما كان واليا عليه من ولاية الشام. ثم في خلافة عثمان رضي الله عنه ضم له الشام كلها ، وافتتح سنة 27 ه جزيرة قبرص ، ولما ولي علي بن أبي طالب رضي الله عنه نشب خلاف بينه وبين معاوية حول التصرف الواجب عمله بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، إلى أن اغتال ابن ملجم الخارجي عليا ، فتولى ابنه الحسن بن علي الخلافة ، ثم تنازل عنها لمعاوية ، وأجمعت الرعية على بيعته في سنة 41 ه ، فأسس معاوية الدولة الأموية واتخذ دمشق عاصمة له[3].

توفي رحمه الله بدمشق في رجب سنة 60 ه ، وكانت ولايته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرون يوما[4].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج3 ، ص : 120 ، 120.

[2] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج11 ، ص : 397 ، 398.

[3] نفسه : ص : 399 ، 400.

[4] ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج5 ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط2 ، بيروت ، لبنان ، 1995 ، ص : 333.

معاوية و عبد الله بن الزبير :

قيل : كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض وكان له فيها عبيد يعملون فيها ، وإلى جانبها أرض لمعاوية رضي الله عنه وفيها أيضا عبيد يعملون فيها ، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير، فكتب عبد الله كتابا إلى معاوية يقول له فيه : أما بعد، يا معاوية ، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي ، فانههم عن ذلك ، وإلا كان لي ولك شأن ، والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه ، دفعه إلى ولده يزيد ، فلما قرأه قال له معاوية : يا بني ما ترى ؟ قال : أرى أن تبعث إليه جيشا يكون أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه ، فقال : بل غير ذلك خير منه يا بني ، ثم أخذ ورقة ، وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير، يقول فيه : أما بعد ، فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءني ما ساءه ، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه ، نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد و الأموال والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه ، كتب إليه : قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام ، فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه ، رمى به إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه تهلل وجهه ، وأسفر، فقال له أبوه : يا بني من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال إليه القلوب ، فإذا ابتليت من شيء من هذه الأدواء ، فداوه بمثل هذا الدواء[1].

لا شك أن التغاضي عن زلات الإخوان وغض البصر عنها ، مع بذل النصيحة ، من كمال الأخلاق والدين ، ثم إنها سبب لحفظ الأخوة ، ولقد أخذ معاوية رضي الله عنه بهذا ، فكان إذا صعب عليه الرعية لان ، وفي ذلك يقول : لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إن شدوها أرخيتها ، و إن أرخوها شددتها.

---

[1] عباس محمود العقاد : المرجع السابق ، ج3 ، ص : 598 ، 599.

معاوية وفن الإقناع:

عن عروة بن الزبير: أن المسور بن مخرمة أخبره أنه قدم وافدا على معاوية بن أبي سفيان فقضى حاجته ، ثم دعاه فأخلاه فقال : يا مسور ما فعل طعنك في الأئمة ؟ فقال : المسور دعنا من هذا وأحسن فيما قدمنا له. قال معاوية : لا والله لتكلمنا بذات نفسك ، والذي تعيب علي ، قال المسور: فلم أترك شيئا أعيبه عليه إلا بينته له. قال : معاوية لا أبرأ من الذنب ، فهل تعد يا مسور مما نلي من الإصلاح في أمر العامة ، فإن الحسنة بعشر أمثالها ، أم تعد الذنوب وتترك السيئات ؟ قال المسور : لا والله ما نذكر إلا ما نرى من هذه الذنوب. قال معاوية : فإنا نعترف لله بكل ذنب أذنبناه ، فهل لك يا مسور ذنوب في خاصتك تخشى أن تهلكك إن لم يغفرها الله لك ؟ قال : المسور نعم. فقال معاوية : فما يجعلك أحق أن ترجوا المغفرة مني ؟ فوالله ما ألي من الإصلاح أكثر مما تلي ، ولكن والله لا أخير بين أمرين ، وبين الله وغيره إلا اخترت الله تعالى على ما سواه ، و إني لعلى دين يقبل الله فيه العمل ، ويجزي فيه بالحسنات ، ويجزي فيه بالذنوب إلا أن يعفو عمن شاء ، فأنا أحتسب كل حسنة عملتها بأضعافها ، وأوارى أمورا عظاما لا أحصيها ولا تحصيها من عمل لله في إقامة صلوات المسلمين ، والجهاد في سبيل الله عزوجل ، والحكم بما أنزل الله تعالى ، والأمور التي ليست تحصيها وإن عددتها لك. قال المسور : فعرفت أن معاوية قد خصمني حين ذكر لي ما ذكر. قال عروة : فلم يسمع المسور بعد ذلك يذكر معاوية إلا استغفر له[1].

وفي هذا الخبر مثال جيد في فن القناع ومحاولة امتصاص غضب المخالفين وتحويل قناعاتهم ، فقد استطاع أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه أن يقنع المسور بن مخرمة رضي الله عنه بتقبل سياسته التي يسير عليها ، وعاد مادحا داعيا له بعدما كان منتقدا مهاجما له ، وفي هذا الخبر لفتة تربوية من معاوية حيث أبان أنه من العدل في الحكم على المسلم أن ينظر الحاكم عليه إلى حسناته وصوابه وأن ينظر إلى سيئاته وخطئه ، ثم يوازن بين الجانبين ، فلعل هذا المسلم الذي برزت أخطاؤه في

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج3 ، ص : 150،151.

ذهن من تصدى لنقده تكون له حسنات كثيرة جليلة قد لا تعد أخطاؤه إلى جانبها شيئا مذكورا[1] .

أحياني أحياه الله :

صعد أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه على المنبر يوما فقال: إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه ، فلم يجبه أحد ، فلما كان في الجمعة الثانية ، قال مثل ذلك فلم يجبه أحد ، فلما كان في الجمعة الثالثة ، قال مثل مقالته فقام إليه رجل ممن حضر المسجد فقال : كلا ، إنما المال مالنا ، والفيء فيئنا ، فمن حال بيننا وبينه ، حاكمناه إلى الله بأسيافنا. فنزل معاوية رضي الله عنه ، فأرسل إلى الرجل فأدخله ، فقال القوم : هلك الرجل ، ثم دخل الناس ، فوجدوا الرجل معه على السرير، فقال معاوية للناس : إن هذا أحياني أحياه الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيكون بعدي أمراء ، يقولون ولا يرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة. و إني تكلمت في الجمعة الثانية فلم يرد علي أحد ، فقلت في نفسي : إني من القوم ، ثم تكلمت في الجمعة الثالثة فقام هذا الرجل فرد علي ، فأحياني أحياه الله[2].

أي الإخوة أنت؟! :

جاء رجل إلى حاجب معاوية ، فقال له : قل له على الباب أخوك لأبيك وأمك ، ثم قال له: ما أعرف هذا ؟ ثم قال: ائذن له ، فدخل ، فقال له: أي الإخوة أنت ؟ فقال: ابن آدم وحواء ، فقال : يا غلام أعطه درهما ، فقال : تعطي أخاك لأبيك وأمك درهما ؟ فقال: لو أعطيت كل أخ من آدم وحواء ما بلغ إليك هذا[3].

---

[1] علي محمد علي الصلابي : معاوية بن أبي سفيان ، دار الأندلس ، ط1 ، مصر، 2008 ، ص : 193 .

[2] ياسر عبد الرحمن : موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق ، ج1 ، مؤسسة اقرأ للنشر و التوزيع ، ط1 ، القاهرة ، مصر، 2007 ، ص : 240، 241.

[3] ابن الجوزي : أخبار الأذكياء ، عناية بسام عبد الوهاب الجالي ، دار ابن حزم ، ط1، بيروت ، لبنان ، 2013 ، ص : 60 .

عبد الله بن عباس (حبر الأمة وترجمان القرآن)

حبر الأمة ، وفقيه العصر، وإمام التفسير، عبد الله بن عباس ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم بن عبد المطلب شيبة بن هاشم ، بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر القرشي الهاشمي المكي الأمير رضي الله عنه. ولد بشعب بني هاشم قبل عام الهجرة بثلاث سنين ، وكان أبيض طويلا مشربا صفرة جسيما وسيما صبيح الوجه له وفرة يخضب بالحناء دعا له النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة[1] .

كان يقال عنه الحبر والبحر، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كثيرا، وعن جماعة من الصحابة ، وأخذ عنه خلق من الصحابة وأمم من التابعين ، وله مفردات ليست لغيره من الصحابة ، لاتساع علمه ، وكثرة فهمه ، وكمال عقله ، وسعة فضله ، ونبل أصله ، رضي الله عنه وأرضاه[2] . وثبت عن عمر بن الخطاب أنه كان يجلس ابن عباس مع مشايخ الصحابة ، ويقول : نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس. وكان إذا أقبل يقول : جاء فتى الكهول وذو اللسان السئول والقلب العقول.

وعن سعيد بن جبير قال : قال عمر لابن عباس : لقد علمت علما ما علمناه. وقال الاوزاعي : قال عمر لابن عباس : إنك لأصبح فتياننا وجها ، وأحسنهم عقلا ، وأفقههم في كتاب الله عزوجل[3] .

وعن طاووس قال : ما رأيت أحدا أشد تعظيما لحرمات الله من ابن عباس.

وقال الحسن البصري : كان ابن عباس من الإسلام بمنزل ، وكان من القرآن بمنزل ، كان يقوم على منبرنا هذا فيقرأ البقرة وآل عمران ، فيفسرهما آية آية[4] .

توفي حبر هذه الأمة الصحابي الجليل عبد الله بن عباس سنة 68 هـ بالطائف ، وهو ابن إحدى وسبعين سنة وصلى عليه محمد بن الحنفية ، وقال : مات اليوم حبر هذه الأمة. فلما وضعوه ليدفنوه في قبره ، جاء طائر لم ير مثل خلقته ، فدخل في أكفانه

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج3 ، ص: 331 - 333.

[2] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج12 ، ص : 78.

[3] نفسه : ص:88 ، 89.

[4] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج3 ، ص : 342-344.

والتف فيها حتى دفن معه ، وفيما كانوا يوارونه التراب ، تلا تال لا يعرف من هو قوله تعالى : يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي[1] .

الفتى الذكي :

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرب الصحابة الذين حاربوا في غزوة بدر من مجلسه ، وكان يجلس معهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، فتضايق بعض القوم من ذلك لصغر سن ابن عباس ، فأراد عمر أن يعرفهم علم ابن عباس ومنزلته ، فدعاه ذات يوم إلى مجلسه ، وأدخله على كبار القوم وقال لهم : ماذا تقولون في تفسير قوله تعالى : إذا جاء نصروا الله والفتح ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وسكت الباقون.

فقال عمر : اكذلك تقول يا ابن عباس ؟

فقال : لا.

فقال عمر : وماذا تقول ؟

قال ابن عباس : هو أجل رسول الله أعلمه الله له (أعلمه متى يموت ، أي : هي آيتك من الموت ، فسبح بحمد ربك واستغفره). قال : (إذا جاء نصر الله والفتح وذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول. فعلم القوم قدر ابن عباس[2] .

وعن مجالد عن الشعبي قال : قال ابن عباس : قال لي أبي : يا بني ! إن عمر يدنيك ، فاحفظ عني ثلاثا : لا تفشين له سرا ، ولا تغتابن عنده أحدا ، ولا يجربن عليك كذبا. قال الشعبي : فقلت لابن عباس : كل واحدة خير من ألف ، فقال ابن عباس : بل كل واحدة خير من عشرة آلاف[3] .

---

[1] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج12، ص: 109،110.

[2] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج3 ، ص: 343.

[3] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ج 1 ، دار الفكر ، (د. ط) ، بيروت ، لبنان ، 1996 ، ص : 318.

ابن عباس رضي الله عنه يفحم الخوارج :

أثناء الحرب التي دارت بين علي ومعاوية رضي الله عنه ، خرج فريق كفر عليا ومعاوية ، وجاءوا بأمور لم تكن معروفة من قبل ، وذهب ابن عباس إليهم ليوضح الحق ، ويكشف الشبهة.

قال ابن عباس : دخلت عليهم وهم قائلون في نحر الظهيرة ، فدخلت على قوم لم أرى أشد اجتهادا منهم ، فإذا وجوههم مقلبة من آثار السجود ، أيديهم كأنها ثفن الإبل ، (ثفن الإبل : ما يقع على الأرض من الإبل كالركبتين) ، عليهم قمص مرحضة ، (المرحضة : المغسولة) ، قال : فدخلت ، فقالوا : مرحبا بك يا ابن عباس ما جاء بك ؟ قال : جئت أحدثكم من عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه سلم وعليهم نزل القرآن ، وهم أعلم بتأويله. فقال بعضهم : لا تحدثوه ، وقال بعضهم : لنحدثنه . قال : فقلت : ما تنقمون على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وأول من آمن به ، وأصحاب رسول الله معه ؟ قالوا : ننقم عليه ثلاثا ، فقلت : ما هن ؟ قالوا : أولاهن أنه حكم الرجال في دين الله ، و قد قال الله تعالى ، (إن الحكم إلا الله) الأنعام [57] . قال : قلت : هذه واحدة ، وماذا أيضا ؟ قالوا : قاتل ولم يسب ولم يغنم ، فلئن كانوا كفارا لقد حلت أموالهم ، وإن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم ، قال : قلت : وماذا أيضا ؟ قالوا : ومحا نفسه من امرأة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين.

قال : قلت : أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم وحدثتكم من سنة نبيكم صلى الله عليه وسلم بما ينقص قولكم هذا ، أترجعون ؟ قالوا : نعم . قال : قلت : أما قولكم : إنه حكم الرجال في دين الله ، فإن الله قال في كتابه : (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم) المائدة [95] . [1]

وقال في المرأة وزوجها : (إن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) النساء [35] . أنشدتكم الله ، أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين ، وفي إصلاح ذات بينهم أفضل، أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم ؟ فقالوا : اللهم في حقن دمائهم وصلاح ذات بينهم. قال : أخرجتم من هذه ، قالوا : اللهم نعم ، قال : وأما

---

[1] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 318 ، 319.

قولكم : قاتل ولم يسب ولم يغنم ، أتسبون أمكم عائشة ؟! فإن قلتم : نسبها ، فنستحل منها ما نستحل من غيرها ، فقد كفرتم ، وإن قلتم ليست بأمنا فقد كفرتم، فأنتم تترددون بين ضلالتين ، أخرجتم من هذه؟ قالوا : بلى . قال : وأما قولكم محا نفسه من إمرة المؤمنين ، فإن نبي الله صلى الله عليه وسلم دعا قريشا يوم الحديبية على أن يكتب بينه وبينهم كتابا، فقال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقالوا : والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : والله إني لرسول الله وإن كذبتموني. أكتب يا علي : محمد بن عبد الله ، فرسول الله كان أفضل من علي . أخرجتم من هذه ؟ قالوا : اللهم نعم.

لقد كان ابن عباس بحرا ، كشف الشبهة ودحضها ، وأتى بالأدلة البينة من الكتاب والسنة، ولقد أثمرت جهوده ، فرجع منهم عشرون ألفا عن باطلهم وبقي أربعة آلاف فقتلوا[1].

لله در ابن عباس من إمام.. ورضي الله عن ترجمان القرآن

وحبره ، وما أحوج المسلمين اليوم إلى علماء أمثال ابن عباس ، كي يقارعوا أهل الباطل ، ويكشفوا عن شبهاتهم ، ويوضحوا الطريق الحق ، وفي الأمة بقية خير، والله غالب على أمره ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم[2].

جوابه لملك الروم :

روى هشيم وغيره ، على علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس : أن ملك الروم كتب إلى معاوية يسأله عن أحب الكلام إلى الله عزوجل ، ومن أكرم العباد على الله عزوجل ، ومن أكرم الإماء على الله عزوجل ، وعن أربعة فيهم الروح لم يركضوا في رحم ، وعن قبر سار بصاحبه ، وعن مكان من الأرض لم تطلع عليه الشمس إلا مرة واحدة ، وعن قوس قزح ما هو ؟ وعن المجرة. فبعث معاوية فسأل ابن عباس عنهن ، فكتب ابن عباس إليه : أما أحب الكلام إلى الله سبحان الله والحمد لله ، ولا اله إلا الله ، والله اكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأكرم العباد على

---

[1] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 318 ، 319.

[2] سيد بن حسين العفاني : زهر البساتين من مواقف العلماء والربانيين ، ج1 ، دار العفاني ، (د ، ط) ، القاهرة ، (د.ت) ، ص : 200.

الله آدم ، خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأكرم الإماء على الله مريم بنت عمران ، وأما الأربعة الذين لم يركضوا في رحم، فآدم وحواء ، وعصا موسى وكبش إبراهيم عليه السلام الذي فدى به إسماعيل - وفي رواية ناقة صالح - وأما القبر الذي سار بصاحبه فهو حوت يونس ، وأما المكان الذي لم تصبه الشمس إلا مرة واحدة فهو البحر الذي انفلق لموسى حتى جاز بنو إسرائيل فيه ، وأما قوس قزح فأمان لأهل الأرض من الغرق ، والمجرة باب السماء ، وفي رواية : الذي تنشق منه. فلما قرأ ملك الروم ذلك أعجبه وقال : والله ما هي من عند معاوية ولا من قوله ، وإنما هي من عند أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد ورد في هذه الأسئلة روايات كثيرة فيها ، وفي بعضها أنه سأله عن من لا قبل له، وعن من لا عشيرة له ، وعن من لا أب له ، وعن شيء ، ونصف شيء ، ولا شيء ، وأرسل قارورة ، فقال : ابعث إلي فيها من مصدر كل شيء. فكتب إليه يقول : أما الذي لا قبل له فالله عزوجل ، وأما من لا عشيرة له فآدم عليه السلام ، وأما عن شيء ، فهو العاقل يعمل بعقله ، وأما نصف شيء ، فالذي له عقل ويعمل برأي غيره ، وأما لا شيء ، فالذي لا عقل له ولا يعمل بعقل غيره. وملأ القارورة ماء وقال : هذا مصدر كل شيء. فأعجب ذلك ملك الروم جدا[1] ، وقال : لله أبوه ما أدهاه ، فقيل لابن عباس ، كيف اخترت ذلك ؟ فقال : لقول الله عزوجل : (وجعلنا من الماء كل شيء حي)[2].

---

[1] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج12، ص : 104 ، 105.

[2] مصطفى سعيد الخن : عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، دار القلم ، ط4 ، دمشق ، 1994 ، ص : 182.

سعيد بن المسيب (سيد التابعين)

هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي ، أبو محمد : الإمام العلم ، عالم أهل المدينة ، وسيد التابعين في زمانه ، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر بن الخطاب وقيل : لأربع مضين منها بالمدينة[1] .

جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع ، وكان يعيش من التجارة بالزيت ، لا يأخذ عطاءا. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه لرجل سأله عن مسألة : ايت ذلك فسله، يعني سعيدا ، ثم ارجع إلي فأخبرني ، ففعل ذلك وأخبره ، فقال : ألم أخبركم أنه أحد العلماء ؟ وقال أيضا في حقه عنهما لأصحابه : لو رأى هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسرّه. و كان قد لقي جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وسمع منهم، ودخل على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عنهن ، وأكثر روايته المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وكان زوج ابنته. وسئل الزهري ومكحول : من أفقه من أدركتما ؟ فقالا : سعيد بن المسيب. وروي عنه أنه قال : حججت أربعين حجة ، وعنه أنه قال : ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة ، وما نظرت إلى قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة ، لمحافظته على الصف الأول ، وقيل إنه صلى الصبح بوضوء العشاء خمسين سنة[2] .

وقال علي بن المدائني : لا أعلم في التابعين أحدا أوسع علما من ابن المسيب ، هو عندي أجل التابعين[3] .

توفي رحمه الله بالمدينة ، واختلف في سنة وفاته ، إلا أن الأرجح كانت سنة أربع وتسعين للهجرة ، وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء لكثرة من مات منهم فيها[4] .

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 217 ، 218.

[2] ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج2 ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، (د.ط) ، بيروت ، 1969 ، ج2 ، ص : 375 .

[3] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 222.

[4] نفسه : ص : 245.

قصة زواج ابنة سعيد بن المسيب :

لقد ربى الإسلام ابن المسيب وأمثاله من الصحابة والتابعين على الزهد في الدنيا ، والاهتمام بالباقي الخالد ، والنفور من المناصب المزخرفة ، والسلطة المزيفة الفانية. فتجده يأبى تزويج ابنته لابن خليفة ، ويسارع إلى تزويجها من طالب علم فقير على درهمين. واليك عزيزي القارئ هذه القصة العجيبة[1] :

قال ابن أبي وداعة : كنت أجالس سعيد بن المسيب ، ففقدني أياما ، فلما جئته قال : أين كنت ؟ قلت : توفيت أهلي فاشتغلت بها. فقال : ألا أخبرتنا فشهدناها. ثم قال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت : يرحمك الله ، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال : أنا. فقلت : و تفعل ؟ قال نعم. ثم حمد الله تعالى ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وزوجني على درهمين أو قال : ثلاثة. قال فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح ، فصرت إلى منزلي ، وجعلت أفكر ممن آخذ ، وممن استدين؟ فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلي ، واسترحت ، وكنت وحدي صائما ، فقدمت عشائي لأفطر ، وكان خبزا وزيتا ، وإذا بالباب يقرع ، فقلت : من هذا ؟ قال : سعيد ، قال ففكرت في كل إنسان اسمه سعيد ، إلا سعيد بن المسيب ، فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد. فقمت فخرجت ، فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له ، فقلت : يا أبا محمد ، ألا أرسلت إلي فآتيك !؟ قال : لا ، أنت أحق أن تؤتى ، قلت : فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلا عزبا فتزوجت ، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك ، وهذه امرأتك. فإذا هي قائمة من خلفه في طوله ، ثم أخذ بيدها فدفعها بالباب ، ورد الباب ، فسقطت المرأة من الحياء ، فاستوثقت من الباب ، ثم تقدمت إلى القصعة التي فيها الخبز و الزيت ، فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ، ثم صعدت إلى السطح ، فرميت الجيران ، فجاءوني فقالوا : ما شأنك ؟ قلت : ويحكم !! زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها على غفلة. فقالوا : سعيد بن المسيب زوجك ؟! قلت : نعم ! وها هي في الدار ، قال : فنزلوا هم إليها ، وبلغ أمي ، فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام[2].

---

[1] وهبة الزحيلي : سعيد بن المسيب سيد التابعين ، دار القلم ، ط5 ، دمشق ، 1992 ، ص : 72.

[2] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 167 ، 168.

قال : فأقمت ثلاثة أيام ، ثم دخلت بها ، فإذا هي من أجمل الناس ، وإذا هي أحفظ الناس لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعرفهم بحق الزوج. قال : فمكثت شهرا لا يأتيني ولا آتيه ، فلما كان قرب الشهر ، أتيت سعيدا ، وهو في حلقته ، فسلمت عليه ، فرد علي السلام ، ولم يكلمني حتى انفض المجلس ، فلم يبق غيري ، قال : ما حال ذلك الإنسان ؟ قلت : خيرا يا أبا محمد ،على ما يحب الصديق ، ويكره العدو. قال إن رابك شيء فالعصا ، فانصرفت إلى منزلي ، فوجه إلي بعشرين ألف درهم.

قال عبد الملك بن سليمان : وكانت بنت سعيد بن المسيب خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد بن عبد الملك حين ولاه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه. فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد ، حتى ضربه مائة سوط ، في يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء ، وألبسه جبة صوف[1].

أي عزيمة شديدة كهذه ، وأي رجل يفعل مثله ، ألا يتنافس الناس عادة لتزويج بناتهم لذوي المناصب العالية ، والرتب الرفيعة ، وأي منصب ؟ خليفة وابن خليفة، منّاه أن قبل ، وهدده أن أبى ، ولكنه أبى وزوجها لطالب العلم الفقير ؟

إنه الإيمان الذي لا يتزعزع ، وصلابة الدين الذي لا يقهر ، وتربية الإسلام التي لا تتجزأ ولا تنتصف فرضي الله عنه ، وأعزه في الخالدين إلى يوم الدين[2].

سعيد بن المسيب وعزة العلماء :

عن ميمون بن مهران قال : أن عبد الملك بن مروان قدم المدينة ، فاستيقظ من قائلته ، فقال لحاجبه : أنظر هل ترى في المسجد أحد من حداثي ، فلم ير فيه إلا سعيد بن المسيب ، فأشار إليه بأصبعه ، فلم يتحرك سعيد ، ثم أتاه الحاجب فقال ألم تر أني أشير إليك ، قال : وما حاجتك ؟ فقال : استيقظ أمير المؤمنين ، فقال : انظر هل ترى في المسجد أحدا من حداثي ، فقال سعيد : لست من حداثه. فخرج الحاجب ، فقال : ما وجدت في المسجد إلا شيخا أشرت إليه ، فلم يقم ، قلت له[3] :

[1] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 168 ، 169.

[2] وهبة الزحيلي : المرجع السابق ، ص : 72.

[3] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 169.

إن أمير المؤمنين استيقظ ، وقال لي : انظر هل ترى أحد من حداثي ، قال : إني لست من حداث أمير المؤمنين. قال عبد الملك بن مروان : ذلك سعيد بن المسيب ، دعه[1] .

موقف له مع الحجاج :

قال علي بن زيد بن جدعان : قيل لسعيد بن المسيب : ما شأن الحجاج لا يبعث اليك ، ولا يهجيك ، ولا يؤذيك ، قال : ما أدري ، غير أنه صلى ذات يوم مع أبيه صلاة ، فجعل لا يتم ركوعها ولا سجودها ، فأخذت كفا من حصباء ، فحصبته بها. قال الحجاج : فمازلت بعد ذلك أحسن الصلاة[2] .

[1] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 169.

[2] نفسه : ص : 165.

عامر الشعبي (علامة العصر وحكيم الأمة)

هو عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار أبو عمرو الهمداني الشعبي ، علامة العصر، والمشهور بالإمام الشعبي ، (21هـ - 100هـ) ، ولد في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] .

كان من أئمة فقهاء المسلمين في الكوفة وغيرها ، أدرك من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة صحابي ، استمع إليهم و أخذ من علمهم ، و كان للشعبي حلقة عظيمة لعلمه ، رغم أنه من التابعين و في المسجد عدد من الصحابة الكرام رضي الله عنهم ، وفي ذلك يقول ابن سرين : قدمت الكوفة و للشعبي حلقة عظيمة ، وأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير[2] .

توفي الشعبي رحمه الله سنة أربع ومائة ، قال أشعت بن سوار : لما مات الشعبي انطلقنا إلى البصرة ، فدخلت على الحسن البصري فقلت : يا أبا سعيد مات الشعبي ، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله إن كان لقديم السن ، كثير العلم ، وإن كان من الإسلام بمكان[3].

الشعبي الحكيم :

للشعبي أقوال تجري مجرى الحكمة ، منها : لا تمنعوا العلم عن أهله فتأثموا ، ولا تحدثوا به غير أهله فتأثموا.

و يقول : ما بكيت من زمان إلا بكيت عليه.

ومن أقواله اللطيفة : أنه قال لرجل : اسقني أهون موجود ، وأشد مفقود. قال : ماذا ؟ قال : اسقني الماء. (ينبه إلى نعمة الله و فضله في الماء وهي نعمة يغفل عنها أكثر الناس)[4].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج4 ، ص: 295.

[2] نفسه : ص : 301 ، 302.

[3] أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر: تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد) وذيله والمستفاد ، ج 14 ، دار الغرب الإسلامي ، ط1، بيروت ، 2001، ص : 148.

[4] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 323 ، 324.

و يقول : البس من الثياب مالا يزدريك فيه السفهاء ، ولا يعيبه عليك العلماء[1] .

وقيل له : من أين لك كل هذا العلم ؟ فقال : بنفي الاغتمام ، والسير في البلاد ، وصبر كصبر الحمام ، وبكور كبكور الغراب[2] .

وله أقوال في الفتوى هي أقرب للحكمة ، منها : من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها.

ومن أدبه : أن رجلا سبه سبا شديدا ، فقال الشعبي لهذا الرجل : إن كنت صادقا غفر الله لي ، وإن كنت كاذبا غفر الله لك[3] .

لحن الأمير :

والشعبي صاحب أدب ، قال له الحجاج يوما : كم عطائك في السنة ؟ بفتح الهمزة، والصواب أن يقول : كم عطاؤك ؟ بضمها.

فقال الشعبي : ألفين.

والصواب أن يقول : ألفان ، فقال الحجاج : ويحك ، كم عطاؤك ؟

فقال : ألفان.

قال : كيف لحنت أولا ؟ (واللحن هو الخطأ في اللغة).

قال : لحن الأمير فلحنت ، فلما أعرب أعربت ، ولا يمكن أن يلحن الأمير، فأعرب أنا.

فاستحسن الحجاج ذلك منه و وهبه مالا[4] .

وفي هذا دلالة على القدرة اللغوية وكذلك الفطنة والذكاء وحسن التصرف.

---

[1] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج4 : ص : 318.

[2] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج4 ، ص : 300.

[3] أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي : العقد الفريد ،ج2 ، تحقيق مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1983، ص : 135.

[4] نفسه : ص : 6.

الثعلب والذئب:

ومن لطائف الشعبي كذلك ، قال : مرض الأسد فزاره السباع إلا الثعلب ، فقال الذئب : أيها الملك مرضت فعادتك السباع إلا الثعلب.

فغضب الملك ، وقال : إذا حضر فأعلمني.

فوصلت الأخبار إلى الثعلب ، وماذا قال عنه الذئب ، فجاء الثعلب إلى الملك. فقال الأسد للثعلب : يا أبا الحصين ، عادني السباع كلهم ، فلما لم تعدني ؟

قال : بلغني مرض الملك ، فكنت في طلب الدواء لك.

قال : أي شيء أصبت ؟

قال : علمت علاجك خرزة في ساق الذئب ينبغي أن تخرج ، فهجم الأسد على الذئب وأخذ يمزق ساقه.

فانسل الثعلب وخرج وجلس على الطريق ، وبعد قليل خرج الذئب و الدماء تسيل من ساقه.

فنادى الثعلب وقال : يا صاحب الخف الأحمر (يشير إلى الدماء على ساقه) ، إذا قعدت بعد هذا عند السلطان ، فانظر ماذا يخرج من رأسك ، واختر كلامك و لا تتقول ، أما هذه المرة فقد خرجت من رجلك (يعني : المرة القادمة تخرج من رأسك)[1].

والشعبي في هذه القصة ينبه إلى أن الذين يكونون بطانة عند الأمراء و الحكام والسلاطين يجب أن يكونوا أهل صدق و أمانة و ورع ، وحرص على عدم أذى الناس.

ما أراد إلا الحسد:

قال الشعبي : أنفذني عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم ، فلما وصلت إليه جعل لا يسألني عن شيء إلا أجبته ، وكانت الرسل لا تطيل الإقامة عنده ، فحبسني أياما كثيرة حتى استحببت خروجي ، فلما أردت الانصراف قال لي : من أهل بيت المملكة أنت ؟

قلت : لا ، ولكني رجل من العرب ، فهمس بشيء ، فدفعت إلي رقعة ، وقيل لي : إذا أديت الرسائل عند وصولك إلى صاحبك أوصل إليه هذه الرقعة.

---

[1] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 317.

قال : فأديت الرسائل عند وصولي إلى عبد الملك ، ونسيت الرقعة ، فلما صرت في بعض الدار ، إذ بدأت بالخروج تذكرتها فرجعت فأوصلتها إليه ، فلما قرأها قال لي : أقال لك شيئا قبل أن يدفعها إليك ؟

قلت : نعم ، قال لي من أهل بيت المملكة أنت ؟ قلت : لا ، ولكني رجل من العرب في الجملة ، ثم خرجت من عنده ، فلما بلغت الباب رددت ، فلما مثلت بين يديه قال لي : أتدري ما في الرقعة ؟ قلت : لا.

قال : اقرأها ، فقرأتها فإذا فيها : عجبت من قوم فيهم مثل هذا كيف ملكوا غيره ؟ فقلت له : والله لو علمت ما فيها ما حملتها ، وإنما قال ذلك لأنه لم يرك. (أي : لو رآك ملك الروم يا أمير المؤمنين ما فضلني عليك).

قال : أفتدري لما كتبها ؟

قلت : لا ، قال : حسدني عليك ، وأراد أن يغريني بقتلك.

قال : فبلغ ذلك ملك الروم ، فقال : ما أردت إلا ما قال[1].

فهذا ملك الروم يحسد المسلمين على وجود الشعبي بينهم ، وهذا عبد الملك قد عرف قدره في العلم الشرعي وسياسة الدنيا ، ولتتذكر أخي الحبيب أن أعداء الإسلام يبذلون كل ما في وسعهم من أجل التفريق بين المؤمنين.

---

[1] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج 3 ، ص :13.

الحسن البصري (الحكيم الواعظ والزاهد العالم)

هو الحسن بن أبي الحسن يسار البصري ، ولد قبل سنتين من نهاية خلافة عمر بن الخطاب في المدينة عام واحد وعشرين للنبوة ، كانت أمه تابعة لخدمة أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، ربي في حجرها ، وأرضعته بلبانها ، فعادت عليه بركة النبوة ، فتكلم بالحكمة ، وارتقى في الصلاح والمعرفة إلى أفضل رتبة ، وكان رحمه الله أحد المتقين ومن أولياء الله الصديقين.

روي في الخبر أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها سمعت الحسن يتكلم فقالت : من هذا الذي يتكلم بكلام الصديقين ؟

وقيل لعلي بن الحسين رضي الله عنهما أن الحسن يقول : ليس العجب لمن هلك كيف هلك ؟ وإنما العجب لمن نجا كيف نجا ؟ فقال علي : سبحان الله هذا كلام صديق.

وروي عن الأعمش أنه كان يقول : مازال الحسن يعتني بالحكمة حتى نطق بها[1].

قال محمد بن سعد : كان الحسن رحمه الله جامعا ، عالما ، رفيعا ، فقيها ، ثقة ، حجة ، مأمونا ، عابدا ، ناسكا ، كثير العلم ، فصيحا ، جميلا ، وسيما. وقال هشام بن حسان : كان الحسن أشجع أهل زمانه[2].

توفي الحسن رحمه الله عشية يوم الخميس في أول رجب سنة عشر ومائة للهجرة ، وعاش ثمان وثمانين سنة ، وكانت جنازته مشهودة ، صلوا عليه عقيب صلاة الجمعة بالبصرة ، فشيعه الخلق ، وازدحموا عليه ، حتى إن صلاة العصر لم تقم في الجامع.

ويروى أنه أغمي عليه ثم أفاقة إفاقة ، فقال : لقد نهتموني من جنات وعيون ، ومقام كريم[3].

---

[1] ابن الجوزي : آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه ، تحقيق سليمان الحرش ، دار النوادر ، ط3 ، دمشق ، سوريا ، 2008 ، ص : 23 ، 24.

[2] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج4 ، ص : 572.

[3] نفسه : ص : 587.

الحسن البصري والحجاج :

لما ولي الحجاج بن يوسف الثقفي العراق ، وطغى في ولايته وتجبر... كان الحسن البصري أحد الرجال القلائل الذين تصدوا لطغيانه ، وجهروا بين الناس بسوء أفعاله ، وصدعوا بكلمة الحق في وجهه.

من ذلك أن الحجاج بنى لنفسه بناء في واسط (وهي مدينة متوسطة بين البصرة والكوفة) فلما فرغ منه ، نادى في الناس أن يخرجوا للفرجة عليه والدعاء له بالبركة.

فلم يشأ الحسن أن يفوت على نفسه فرصة اجتماع الناس هذه فخرج إليهم ليعظهم ويذكرهم ، ويزهدهم بعرض الدنيا ، ويرغبهم بما عند الله عزوجل...

ولما بلغ المكان ، ونظر إلى جموع الناس وهي تطوف بالقصر المنيف مأخوذة بروعة بنائه ، مدهوشة بسعة أرجائه مشدودة إلى براعة زخارفه... وقف فيهم خطيبا ، وكان في جملة ما قاله : لقد نظرنا إلى فيما ابتنى أخبث الأخبثين ، فوجدنا أن فرعون شيد أعظم مما شيد ، وبنى أعلى مما بنى ، ثم أهلك الله فرعون ، وأتى على ما بنى وشيد ، ليت الحجاج يعلم أن أهل السماء قد مقتوه ، وأن أهل الأرض قد غروه...

ومضى يتدفق على هذا المنوال حتى أشفق عليه أحد السامعين من نقمة الحجاج، فقال له : حسبك يا أبا سعيد ... حسبك.

فقال له الحسن : لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ليبيننه للناس ولا يكتمونه...

وفي اليوم التالي دخل الحجاج إلى مجلسه وهو يتميز من الغيظ وقال لجلاسه : تبا لكم وسحقا... يقوم عبد من من عبيد أهل البصرة ، ويقول فينا ما شاء أن يقول ، ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه !! والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء.

ثم أمر بالسيف والنطع... فأحضرا...

ودعا بالجلاد ، فمثل واقفا بين يديه.

ثم وجه إلى الحسن بعض شرطه وأمرهم أن يأتوه به...

وما هو إلا قليل حتى جاء الحسن ، فشخصت نحوه الأبصار... ووجفت عليه القلوب[1].

---

[1] عبد الرحمن أفت الباشا : صور من حياة التابعين ، دار الأدب الإسلامي ، ط15 ، القاهرة ، 1997 ، ص : 102،103.

فلما رأى الحسن السيف والنطع والجلاد - حرك شفتيه -
ثم أقبل على الحجاج وعليه جلال المؤمن ، وعزة المسلم ، ووقار الداعية إلى الله.
فلما رآه الحجاج على حاله هذه ، هابه أشد الهيبة وقال له : ها هنا يا أبا سعيد... ها هنا... ثم مازال يوسع له ويقول : ها هنا... والناس ينظرون إليه في دهشة واستغراب حتى أجلسه على فراشه.
ولما أخذ الحسن مجلسه التفت إليه الحجاج ، وجعل يسأله عن بعض أمور الدين، والحسن يجيبه عن كل مسألة بجنان ثابت ، وبيان ساحر ، وعلم واسع.
فقال له الحجاج : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد.
ثم دعا بغالية (نوع من الطيب مركب من مسك وعنبر ودهن) وطيب له بها لحيته وودعه.
ولما خرج الحسن من عنده تبعه حاجب الحجاج وقال له : يا أبا سعيد ، لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك ، وإني رأيتك عندما أقبلت ورأيت السيف والنطع ، قد حركت شفتيك ، فماذا قلت ؟
فقال الحسن : لقد قلت : يا ولي نعمتي وملاذي عند كربتي ، اجعل نقمته بردا وسلاما علي كما جعلت النار بردا وسلاما علي إبراهيم[1].
قال ميمون بن مهران : بعث الحجاج إلى الحسن وقد هم به ، فلما قام بين يديه قال : يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير، قال : فأين هم ؟ قال : ماتوا. قال : فنكس الحجاج رأسه ، وخرج الحسن.
وقال أيوب السختياني : إن الحجاج أراد قتل الحسن مرارا فعصمه الله منه ، وقد ذكر له معه مناظرات ، على أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه ، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك ، وإنما خرج معهم مكرها كما قدمنا ، وكان الحسن يقول : إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف ، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع[2].
كان الحسن رحمه الله يقول الحق ، ولو كان مرا ، ويخاطر بنفسه ، متيقنا أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له من نفع أو ضرر، ولقد كثرت مواقف الحسن البصري هذه

[1] عبد الرحمن أفت الباشا : المرجع السابق ، ص :104.
[2] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 543 ، 544.

مع الولاة والأمراء ، فكان يخرج من كل منها عظيما في أعين ذوي السلطان ، عزيزا بالله، محفوظا بحفظه...

الحسن البصري (العالم العامل) :

أحضر ابن هبيرة الحسن البصري والشعبي ، فقال لهما : أصلحكما الله ، إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إلي كتبا ، أعرف في تنفيذها الهلكة ، فأخاف إن أطعته غضب الله ، و إن عصيته ، لم آمن سطوته ، فما تريانِي لي ؟ فقال الحسن للشعبي : يا أبا عمرو ! أجب الأمير. فرفق له في القول ، وانحط في هوى ابن هبيرة.
وكان ابن هبيرة لا يستشفي دون أن يسمع قول الحسن فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال الحسن : أو ليس قد قال الشعبي ؟ فقال : ابن هبيرة ما تقول أنت ؟ فقال : أقول : والله يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله ، فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره ، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، فلا يغني عنك ابن عبد الملك شيئا ، فبكى ابن هبيرة بكاء شديدا ، وأجزل جائزة الحسن ، وقصر في جائزة الشعبي.
ثم خرج الشعبي إلى المسجد ، فلما اجتمع أهل مجلسه ، قال : أيها الناس ! من استطاع منكم أن يؤثر الله عزوجل على خلقه ، فليفعل ، إن الأمير ابن هبيرة أرسل إلي وإلى الحسن ، فوالذي نفسي بيده ! ما علم الحسن شيئا جهلته ، ولكني راعيت ابن هبيرة ، وأردت رضاه ، وقصرت في قولي ، فأقصاني الله وأبعدني ، وكان الحسن مع الله عزوجل فقربه وأدناه ، وسخر ابن هبيرة فآثره وحباه[1]. وقيل : خرج الحسن يوما من عند ابن هبيرة ، فإذا هو بالقراء على بابه ، فقال : ما جاء بكم هاهنا ؟ لا كثر الله جمعكم ، تريدون الدخول على هؤلاء الجربى ؟ فوالله ! ما مخالطتهم مخالطة الأبرار ، ولا مجالسهم مجالس الأخيار ، تفرقوا ، فرق الله بين أرواحكم وأجسادكم ، ولا كثر الله في المسلمين من أمثالكم ، حذوتم نعالكم ، وشمرتم ثيابكم ، وجززتم رؤوسكم ، وكحلتم أعينكم ، فكنتم شر عصابة ، حلقوا الشوارب للطمع ، فضحتم القراء ، لا جمع الله شملكم.

[1] ابن الجوزي : آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه ، المصدر السابق ، ص : 106 ،107.

أما والله لو زهدتم فيما عندهم ، لرغبوا فيما عندكم ، فأبعد الله من أبعد ، وما أحسبه غيركم ، ثم انصرف مغضبا[1].

[1] ابن الجوزي : آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه ، المصدر السابق ، ص : 107.

عبد الملك بن مروان (نجيب بني أمية)

هو عبد الملك بن مروان ابن الحكم بن أبي العاص ، الخليفة الفقيه ، أبو الوليد الأموي خامس الخلفاء الأمويين ، وكان من أعظم خلفاء بني أمية ، ولد سنة 26 للهجرة ، وتربى في المدينة المنورة ، فقد كان أبوه مروان بن الحكم واليا عليها في عهد معاوية بن أبي سفيان[1] ، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد ، التالين للقرآن ، وكان معدودا من فقهاء المدينة ، قال أبو الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة : سعيد بن المسيب ، وعروة ، و قبيصة بن ذؤيب ، وعبد الملك بن مروان. وقال نافع : لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميرا ، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان.

وقال الشعبي : ما ذاكرت أحدا إلا وجدت لي الفضل عليه ، إلا عبد الملك ، فإني ما ذاكرته حديثا إلا زادني فيه ، ولا شعرا إلا زادني فيه[2] .

وقد كان عبد الملك قوي العزيمة ، ثابت الجأش عند الشدائد يقود جيشه بنفسه ، توسعت الدولة الأموية في عهده وازدهرت ، وكانت دمشق عاصمة الدولة منارة للعلم ، وأعظم مدن العالم الإسلامي. وكان عبد الملك أول من ضرب الدنانير وكتب عليها القرآن.

توفي عبد الملك بن مروان سنة 86 هـ ، وقد أوصى قبل وفاته بالخلافة لابنه الوليد ، وكانت مدة خلافة عبد الملك بن مروان إحدى وعشرين سنة[3] .

تربية الأبناء :

قال عبد الملك بن مروان : كنا مع أبينا في موكبه فقال : سبحوا حتى تأتوا تلك الشجرة فنسبح حتى نأتيها ، فإذا رفعت لنا شجرة أخرى ، قال : كبروا حتى تأتوا تلك الشجرة ، فكان يصنع ذلك بنا[4] .

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 246 ،247.

[2] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج12 ، ص : 378 - 380.

[3] نفسه : ص : 396 ، 397.

[4] ياسر عبد الرحمن : المرجع السابق ، ج2 : ص : 327.

لا خير فيمن ينسى إذا وعد وعدا:

قال مالك بن عمارة اللخمي : كنت جالسا في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان ، وقبيصة بن ذؤيب ، وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرة ، وفي المذاكرة مرة ، وفي أشعار العرب وأمثال الناس مرة ، فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة ، والتصرف في فنون العلم ، وحسن استماعه إذا حدث ، فخلوت معه ليلة ، فقلت : والله إني لمسرور بك لما شاهدته من كثرة تصرفك وحسن حديثك ، وإقبالك على جليسك ، فقال : إن تعش قليلا ، سترى العيون طامحة إلي ، والأعناق نحوي متطاولة ، فإذا صار الأمر إلي ، فلعلك أن تنقل إلي ركابك ، فلأملأن يديك.

فلما أفضت إليه الخلافة ، توجهت إليه ، فوافيته يوم الجمعة ، وهو يخطب على المنبر، فلما رآني أعرض عني ، فقلت : لعله لم يعرفني ، أو عرفني وأظهر لي نكره ، فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن خرج الحاجب ، فقال : أين مالك بن عمارة ؟ فأخذ بيدي ، وأدخلني عليه ، فمد إلي يده وقال : إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت ، فأما الآن ، فمرحبا وأهلا ، كيف كنت بعدي ؟ فأخبرته ، فقال : أتذكر ما كنت قلت لك ؟ قلت : نعم ، فقال : والله ما هو بمراث وعيناه ، ولا أثر رويناه ، ولكني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى ، ما خنت ذا وعد قط ، ولا شمت بمصيبة عدو قط ، ولا أعرضت عن محدث حتى ينتهي حديثه ، ولا قصدت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذا بها ، فكنت آمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل عزوجل. ثم دعا بغلام ، فقال له يا غلام : بوئه منزلا في الدار، فأخذ الغلام بيدي ، وأفرد لي منزلا حسنا ، فكنت في ألذ حال ، وأنعم بال ، وكان يسمع كلامي وأسمع كلامه ، ثم أدخل عليه في وقت عشائه ، وغذائه ، فيرفع منزلتي ويقبل علي ويحادثني ، ويسألني مرة عن العراق ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة ، فتغذيت يوما عنده ، فلما تفرق الناس نهضت قائما ، فقال : على رسلك ، فقعدت ، فقال : أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك في المعاشرة ، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة ، فقلت : يا أمير المؤمنين فارقت أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين[1] ،

---

[1] إبراهيم شمس الدين : المرجع السابق ، ج1 ، ص : 129 ، 130.

وأعود إليهم ، فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد ، فقال : لا، بل أرى لك الرجوع إليهم والخيار لك بعد في زيارتنا ، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك ، أتراني قد ملأت يديك ؟ فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعدا ، وزرنا إذا شئت ، صحبتك السلامة[1].

ما كان هذا جزائي منك ! :

قال الأصمعي : أتي عبد الملك بن مروان برجل كان مع بعض من خرج عليه ، فقال : اضربوا عنقه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزاء منك ! قال : وما جزاؤك ؟ قال : والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك ، وذلك أني رجل مشؤوم ، ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم ، وقد بان لك صحة ما ادعيت و كنت لك خيرا من مائة ألف معك ، فضحك وخلّى سبيله[2].

---

[1] إبراهيم شمس الدين : المرجع السابق ، ج1 ، ص : 130.

[2] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج12 ، ص : 387 ، 388.

طاووس بن كيسان (طاووس العلماء والزهاد وزينتهم)

هو عبد الرحمن طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني اليماني ، من أبناء الفرس ، أحد أعلام التابعين ، سمع ابن عباس وأبا هريرة رضي الله عنهما ، وروى عنه مجاهد و عمرو بن دينار، وكان فقيها جليل القدر، نبيه الذكر، قال ابن عيينة : قلت لعبيد الله بن يزيد : مع من تدخل على ابن عباس ؟ قال : مع عطاء وأصحابه ، قلت : وطاووس ؟ قال : أيهات ، كان ذلك يدخل مع الخواص[1]. قال ابن حبان : كان من عباد اليمن ، ومن سادات التابعين ، مستجاب الدعوة ، حج أربعين حجة[2].

وقال عمرو بن دينار : ما رأيت أحدا قط مثل طاووس.

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه طاووس : إن أردت أن يكون عملك خيرا كله ، فاستعمل أهل الخير، فقال عمر : كفى بها موعظة.

توفي رحمه الله حاجا بمكة قبل يوم التروية بيوم ، وصلى عليه هشام بن عبد الملك وذلك في سنة ست ومائة رضي الله عنه وقيل سنة أربع ومائة.

قال بعض العلماء : مات طاووس بمكة ، فلم يتهيأ إخراج جنازته لكثرة الناس ، فلما حمل ، أخذ عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم بقائمة سريره فما تركه حتى بلغ القبر.

قال أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب الألقاب : أن اسمه ذكوان ، وطاووس لقبه لأنه كان طاووس القراء. وعرف رحمه الله بتقشفه في العيش ، وجرأته في وعظ الخلفاء والولاة[3].

طاووس وسليمان بن عبد الملك: (أتعلمون من أبغض الخلق إلى الله؟):

روي أن رجاء بن حيوة نظر إلى طاووس اليماني يصلي في المسجد الحرام ، فانصرف رجاء إلى سليمان بن عبد الملك ، وهو يومئذ بمكة قد حج ذلك العام ، فقال: إني رأيت طاووسا بالمسجد ، فهل لك أن ترسل إليه ؟ قال : فأرسل إليه سليمان ، فلما أتاه قال رجاء لسليمان : يا أمير المؤمنين ، لا تسأله عن شيء حتى

---

[1] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 509 .

[2] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج5 ، ص : 47.

[3] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 509 ، 510 .

يكون هو الذي يتكلم ، فلما قعد طاووس سكت طويلا ، ثم قال : ما أول شيء خلق ؟ فقلنا : لا ندري ، فقال طاووس : أول شيء خلق القلم ، ثم قال : أتدرون ما أول شيء قد كتب ؟ قلنا : لا، قال : فإن أول ما كتب بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم كتب القدر خيره وشره إلى يوم القيامة ، ثم قال : أتعلمون من أبغض الخلق إلى الله تعالى ؟

قلنا : لا. فقال : إن أبغض الخلق إلى الله تعالى ، عبد أشركه الله تعالى في سلطانه ، فعمل فيه بمعاصيه ، ثم نهض.

قال رجاء : فأظلم علي البيت فما زلت خائفا عليه حتى توارى ، فرأيت سليمان يحك رأسه بيده ، حتى خشيت أن تخرج أظافره لحم رأسه[1].

طاووس وهشام بن عبد الملك: (ما الذي حملك على ما صنعت ؟) :

حكي أن هشام بن عبد الملك قدم حاجا إلى بيت الله الحرام ، فلما دخل الحرم قال : ائتوني برجل من الصحابة ، فقيل : يا أمير المؤمنين قد تفانوا ، قال: فمن التابعين. فأتوه بطاووس اليماني فلما دخل عليه خلع نعليه بحاشية بساطه ولم يسلم بإمرة أمير المؤمنين ولكن قال : السلام عليك ولم يكنه و جلس بجانبه بغير إذنه وقال : كيف أنت يا هشام ؟ فغضب هشام غضبا شديدا ، حتى هم بقتله ، فقيل له : أنت في حرم الله ورسوله لا يمكن ذلك. فقال له : يا طاووس ما الذي حملك على ما صنعت ؟ قال : وما الذي صنعت ؟ فازداد هشام غضبا ، وقال : خلعت نعليك بحاشية بساطي ، ولم تسلم بإمرة أمير المؤمنين ولم تكنني وجلست بإزائي بغير إذن ، وقلت : كيف أنت يا هشام ؟ فقال : أما ما خلعت نعلي بحاشية بساطك ، فإني أخلعها بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات ، فلا يعاتبني ولا يغضب علي وأما قولك : لم تسلم بإمرة أمير المؤمنين ، فليس كل الناس راضين بإمرتك ، فكرهت أن أكذب ، وأما قولك : جلست بإزائي ، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول :" إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس وحوله ناس قيام" وأما قولك : لم تكنني فإن الله عزوجل سمى أولياءه ، وقال : يا داود ، يا يحي ، يا عيسى ، وكنى أعداءه ، فقال: (تبت يدا أبي لهب) المسد [1]. فقال هشام : عظني.

---

[1] سيد بن حسين العفاني : المرجع السابق ، ج1 ، ص : 222.

فقال : سمعت أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه يقول :" إن في جهنم حيات كأمثال القلال ، وعقارب كالبغال ، تلدغ كل أمير لا يعدل في رعيته". ثم قام وذهب[1] .

هكذا استطاع هذا التابعي الجليل أن يقدم لهذا الملك نصيحة فصيحة ، بموقفه أولا، ثم بمقالته ثانيا ، موقف أغضب الملك لأنه جاء مناقضا تماما لما تعود عليه من تقاليد الأبهة والتمجيد المزيفة ، والألقاب الفخرية المزورة.

وكان يخشى ما يخشاه طاووس على الولاة والخلفاء ، المدح الكاذب ، الذي يجيء على ألسنة من يعيشون حولهم ، فإن المدح يزين لهم أعمالهم ، فيجعل السيء حسنا في نظرهم ، والقبيح جميلا ، فيرضون عنها ، فلا تتسع نفوسهم لإرشاد مرشد ، ولا هداية هاد ، ولا وعظ واعظ .

هذا الشبل من ذاك الأسد :

روى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال : بعث أبو جعفر المنصور إلي و إلى عبد الله بن طاووس المذكور ، فأتيناه فدخلنا عليه وهو جالس على فرش ، وبين يديه أنطاع (جلود توضع تحت المحكوم عليهم بالقتل) قد بسطت ، وجلادون بأيديهم سيوف يضربون الأعناق ، فأومأ إلينا أن اجلسا ، فجلسنا ، فأطرق عنا طويلا ، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاووس وقال : حدثني عن أبيك ، قال : نعم سمعت أبي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه ، فأدخل عليه الجور في حكمه). فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. قال مالك : فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاووس ، ثم التفت إليه أبو جعفر فقال : عظني يا بن طاووس.

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى يقول : (ألم ترى كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبا لمرصاد)الفجر[14.5] . قال الإمام مالك : فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دمه. فامسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه ثم قال : يا بن طاووس ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه. ثم قال : ناولني هذه الدواة[2].

---

[1] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 510.

[2] أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي : المصدر السابق ،ج1 ، ص : 52،53.

فقال : ما يمنعك أن تناولنيها ؟ قال : أخشى أن تكتب بها معصية ، فأكون شريكك فيها ، فلما سمع ذلك قال : قوما عني . فقال ابن طاووس : ذلك ما كنا نبغي .

قال مالك : فما زلت أعرف لابن طاووس فضله من ذلك اليوم[1] .

---

[1] أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي : المصدر السابق ، ج1، ص : 53.

عطاء بن أبي رباح (مفتي الحرم)

هو عطاء بن أبي رباح ، وإسم أبي رباح : أسلم القرشي ، مولاهم المكي ، مفتي أهل مكة ومحدثهم ، قال عنه الذهبي : الإمام شيخ الإسلام ، مفتي الحرم ، أبو محمد القرشي ، مولاهم المكي ، يقال : ولاؤه لبني جمح.

يصفون عطاء فيقولون : كالغراب ، أعور، أفطس ، أشل ، أعرج ، عمي في آخر حياته ، لكن العلم والفضل والتقوى حجبت كل هذه العيوب الخلقية والعاهات الجسمية وجعلت فضله يحمد ويذكر ويعرف ويخلد..

من أهل اليمن في مولده ، ولكنه عاش في مكة ، تثقف فيها ، وأقام فيها ، ومات فيها ، ولد سنة 27 هـ ، وتوفي سنة 114 هـ ، كان مفتي مكة وفقيهها ، جمع بين العلم والزهد ، تلقى العلم عن عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعبد الله بن الزبير، ومعاوية ، وأسامة بن زيد ، وعقيل بن أبي طالب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبي الدرداء ، ورافع بن خديج ، وأبي سعيد الخدري ، وأبي هريرة ، كما سمع من أمهات المؤمنين : عائشة وأم سلمة. رضي الله عنهم أجمعين.

ويروي عطاء أنه التقى بمائتين من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم.

أما الذين رووا عن عطاء ، فهم صفوة الفقهاء في الإسلام ، من أمثال مجاهد ، والزهري والاوزاعي ، وأبو حنيفة ، والأعمش ، وجعفر الصادق ، وعمرو بن دينار[1] .

وعطاء بالإضافة إلى الفقه العظيم ، ورواية الحديث الجليل ، فقد كان فقيها مفتيا لمكة في عهد الأمويين ، ومع ذلك لما خرج عليهم ابن الزبير رضي الله عنه ، شارك معه في هذا الخروج الذي رآه شرعيا على ظلم بني أمية ، وقاتل معه ، وقطعت يده في ذلك اللقاء.

ويقول ابن عباس حين استفتاه أهل مكة : تجتمعون إلي يا أهل مكة وعندكم عطاء؟[2]

و قال الأوزاعي مات عطاء يوم مات ، وهو أرضى أهل الأرض عندهم[3] .

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج5 ، ص : 78 - 80 .

[2] نفسه : ص :81 ،82.

[3] نفسه : ص :84.

عطاء بن أبي رباح وحرصه على مصالح الناس :

يقول عثمان بن عطاء الخراساني : انطلقت مع أبي نريد هشام بن عبد الملك ، فعندما غدونا قريبا من دمشق إذا نحن بشيخ على حمار أسود عليه قميص خشن وجبة بالية ، فضحكت منه ، وقلت : لأبي من هذا ؟

قال : اسكت ، هذا سيد فقهاء الحجاز عطاء بن أبي رباح ، فلما قرب منا ، نزل أبي عن بغلته ، ونزل هو عن حماره ، فاعتنقا وتساءلا ، ثم عادا فركبا وانطلقا حتى وقفا على باب قصر هشام بن عبد الملك ، فما أن استقر بهما الجلوس حتى أذن لهما ، فلما خرج أبي قلت له : حدثني بما كان منكما.

فقال : لما علم هشام أن عطاء بن أبي رباح بالباب بادر فأذن له - ووالله ما دخلت إلا بسببه - فلما رآه هشام قال : مرحبا مرحبا ههنا ههنا ، ولا زال يقول له : ههنا ههنا ، حتى أجلسه معه على سريره ، ومس بركبته ركبته ، وكان في المجلس أشراف الناس ، وكانوا يتحدثون فسكتوا ، ثم أقبل عليه هشام وقال : ما حاجتك يا أبا محمد ؟

قال : يا أمير المؤمنين أهل الحرمين ، أهل الله وجيران رسوله ، تقسم عليهم أرزاقهم وأعطياتهم. فقال : نعم ، أكتب لأهل مكة والمدينة بعطاياهم وأرزاقهم لسنة ، ثم قال : هل من حاجة غيرها يا أبا محمد؟

فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الحجاز وأهل نجد أصل العرب ، وقادة الإسلام ، ترد فيهم فضول صدقاتهم.

فقال : نعم ، يا غلام اكتب بأن ترد فيهم فضول صدقاتهم ، هل من حاجة غير ذلك يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل الثغور (المرابطون) يقفون في وجوه عدوكم ، ويقتلون من قصدهم بشر ، تجري عليهم أرزاقهم تدرها عليهم فإنهم إن هلكوا ضاعت الثغور.

فقال : نعم ، يا غلام اكتب بحمل أرزاقهم إليهم ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أهل ذمتكم لا يكلفون ما لا يطيقون فإن ما تجبونه منهم معونة لكم على عدوكم[1] .

فقال : يا غلام أكتب لأهل الذمة بألا يكلفوا ما لا يطيقون ، هل من حاجة غيرها يا أبا محمد ؟ قال : نعم ، اتق الله في نفسك يا أمير المؤمنين ، واعلم أنك خلقت

---

[1] ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، المصدر السابق ، ج7 ، ص :167.

وحدك، وتموت وحدك ، وتحشر وحدك ، وتحاسب وحدك ، ولا والله ما معك ممن ترى أحد ، فأكب هشام ينكت في الأرض وهو يبكي ، فقام عطاء ، فقمت معه ، فلما صرنا عند الباب ، إذا رجل قد تبعه بكيس لا أدري ما فيه وقال له : إن أمير المؤمنين بعث لك بها ، فقال : هيهات (وما أسالكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين) الشعراء[109] . فوالله إنه دخل على الخليفة وخرج من عنده ، ولم يشرب قطرة ماء[1].

---

[1] ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، المصدر السابق ، ج7 ، ص : 168.

عطاء بن يسار (الإمام الفقيه الواعظ المذكّر)

هو عطاء بن يسار مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان قاصا واعظا ، جليل القدر ، وكان رحمه الله ثقة ، كثير الحديث[1] ، حدث عن أبي أيوب ، وزيد ، عائشة ، وأبي هريرة ، وأسامة بن زيد ، و عدة. وروى عنه زيد بن أسلم ، وصفوان بن سليم ، وعمرو بن دينار، وهلال بن علي ، وشريك بن أبي نمر.

روى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، أن أبا حازم قال : ما رأيت رجلا ألزم لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم من عطاء بن يسار[2].

توفي عطاء سنة ثلاث ومائة وهو ابن أربع وثمانين سنة ، وقيل : مات قبل المائة رحمه الله رحمة واسعة[3].

عطاء بن يسار على درب يوسف عليه السلام :

عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : خرج عطاء بن يسار وسليمان بن يسار حاجين من المدينة ، ومعهما أصحاب لهم ، حتى إذا كانوا بالأبواء نزلوا منزلا. فانطلق سليمان وأصحابه لبعض حاجتهم ، وبقي عطاء بن يسار قائما في المنزل يصلي.

قال : فدخلت عليه امرأة من الأعراب جميلة ، فلما رآها عطاء ظن أن لها حاجة ، فأوجز في صلاته ، ثم قال ألك حاجة ؟ قالت : نعم. قال : ما هي ؟ قالت : قم فأصب مني ، فإني قد ودقت ، ولا بعل لي. فقال : إليك عني ، لا تحرقيني ونفسك بالنار[4].

ونظر فإذا هي امرأة جميلة ، فجعلت تراوده عن نفسها ، ويأبى أن يجيبها إلى ما تريد ، قال : فجعل عطاء يبكي ويقول : ويحك إليك عني.

فاشتد بكاؤه فلما نظرت المرأة إليه وما داخله من البكاء والجزع بكت المرأة لبكائه. قال : فجعل يبكي والمرأة بين يديه تبكي ، فبينما هو كذلك إذ جاء سليمان من

---

[1] محمد بن سعد بن منيع الزهري : الطبقات الكبير، ج7، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي ، ط1 ، القاهرة ، 2001 ، ص : 171 ، 172.

[2] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 449.

[3] محمد بن سعد بن منيع الزهري : المصدر السابق، ج7 ، ص : 172 .

[4] ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، المصدر السابق ، ج7، ص : 85.

حاجته ، فلما نظر إلى عطاء يبكي ، والمرأة بين يديه تبكي في ناحية الدرس ، بكى لبكائهما لا يدري ما أبكاهما ، وجعل أصحابهما يأتون رجلا رجلا ، كلما أتى رجل فرآهم يبكون، جلس يبكي لبكائهم لا يسألهم عن أمرهم ، حتى كثر البكاء ، وعلا الصوت ، فلما رأت الأعرابية ذلك قامت فخرجت.

قال : فقام القوم فدخلوا. فلبث سليمان بعد ذلك وهو لا يسأل أخاه عن قصة المرأة إجلالا له وهيبة. قال : وكان أسن منه.

قال : ثم أنهما قدما مصر لبعض حاجتهما ، فلبثا بها ما شاء الله ، فبينما عطاء ذات ليلة نائم ، إذ استيقظ وهو يبكي ، فقال سليمان : ما يبكيك يا أخي ؟ قال : فاشتد بكاؤه ، قال : ما يبكيك يا أخي ؟ قال : فاشتد بكاؤه ، قال : ما يبكيك يا أخي ؟ قال : رؤيا رأيتها الليلة. قال : وما هي ؟ قال : لا تخبر بها أحدا ما دمت حيا ، رأيت يوسف النبي عليه السلام في النوم ، فجئت انظر إليه فيمن ينظر ، فلما رأيت حسنه بكيت ، فنظر إليّ فقال : ما يبكيك أيها الرجل ؟ فقلت : بأبي أنت وأمي يا نبي الله ، ذكرتك وامرأة العزيز، وما ابتليت به من أمرها ، وما لقيت من السجن وفرقة يعقوب ، فبكيت من ذلك ، وجعلت أتعجب منه ، قال : فهلا تعجبت من صاحب المرأة البدوية بالأبواء ؟ فعرفت الذي أراد ، فبكيت واستيقظت باكيا.

قال سليمان : أي أخي ما كان من حال تلك المرأة ؟ فقص عليه عطاء القصة ، فما أخبر بها سليمان أحدا حتى مات عطاء ، فحدث بها بعده امرأة من أهله ، قال : وما شاع هذا الحديث بالمدينة إلا بعد موت سليمان بن يسار ، رحمه الله[1].

---

[1] ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، المصدر السابق ، ج7، ص : 85 ، 86.

سعيد بن جبير (جهبذ العلماء)

الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد ، أبو محمد ، ويقال : عبد الله الأسدي الوالبي ، مولاهم الكوفي ، سعيد بن جبير، (46 هـ - 95 هـ) ، تابعي حبشي الأصل ، روى عن عبد الله بن عباس حبر الأمة و أخذ عنه الفقه والتفسير والحديث ، وعن عبد الله بن عمر، وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم ، سكن الكوفة ونشر العلم بها ، وكان من كبار علماء التابعين[1].

ولغزارة علمه ، كان عبد الله بن عباس يسمح له أن يفتي وهو موجود ، وكان ابن عباس إذا آتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول : أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟ يعني سعيد بن جبير[2].

و كان سعيد بن جبير وعاء من أوعية العلم ، فعن خصيف قال : كان أعلمهم بالقرآن مجاهد ، وأعلمهم بالحج عطاء ، وأعلمهم بالحلال والحرام طاووس ، وأعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيب ، وأجمعهم لهذه العلوم سعيد بن جبير[3].

قتله رحمه الله الحجاج بن يوسف الثقفي ، بسبب خروجه مع عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته على بني أمية.

دعاء الصالحين :

كان رحمه الله مستجاب الدعوة ، فمن المواقف الجميلة الطريفة أنه كان لسعيد بن جبير ديكا ، كان يقوم من الليل بصياحه ، فلم يصح ليلة من الليالي حتى أصبح ، فلم يصلي سعيد قيام الليل تلك الليلة فشق عليه ذلك ، فقال : ماله ! قطع الله صوته - يعني الديك - ؟ وكان سعيد مجاب الدعوة ، فما سمع للديك صوت بعد ذلك الدعاء ، فقالت أم سعيد : يا بني لا تدعوا على شيء بعدها[4].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج4 ، ص : 322،321.

[2] نفسه : ص :325.

[3] نفسه : ص :341.

[4] نفسه : ص :323.

قصة سعيد بن جبير والحجاج:

كان سعيد بن جبير ممن شارك مع الأشعث في الثورة على عبد الملك بن مروان لما بدأ ظلم بني أمية يظهر. فخرج العلماء في ثورة عظيمة ، تسمى ثورة الأشعث ، وتسمى ثورة العلماء أو ثورة المحدثين ، مع عبد الرحمن ابن الأشعث ، فأرسل عبد الملك بن مروان جيشا بقيادة الحجاج ، فهزم جيش الأشعث وقضى على الثورة...

وبدأ الحجاج يقتل الذين ثاروا ، لا يفرق بين عالم وجاهل ، بل كان أشد على العلماء. وقبض على سعيد بن جبير وجيء به إلى الحجاج ، ودار بينهما حوار طويل يكشف عظمة الرجل ، وحسن توكله على ربه ، وقوة إيمانه ، وصبره ، ويقينه ، رجل فريد لم تلن منه قناة ، ولم يفت في عضده تهديد أو وعيد ، فأقبل على عدوه بما يسوؤه وهو بقبضته ، والسيف مسلط على رقبته ، فلم يعبا به ، وهو يعلم أنه مقتول لا محالة.

وعن الحسن قال : لما أتي الحجاج بسعيد بن جبير، قال : أنت الشقي بن كسير، قال : بل أنا سعيد بن جبير، قال : بل أنت الشقي بن كسير ، قال : كانت أمي أعرف باسمي منك ، قال : ما تقول في محمد ؟ قال : تعني النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : نعم ! قال : سيد ولد آدم النبي المصطفى خير من بقي وخير من مضى ، قال : فما تقول في أبي بكر ؟ قال: الصديق خليفة الله مضى حميدا وعاش سعيدا ، مضى على منهاج نبيه صلى الله عليه وسلم لم يغير ولم يبدل ، قال : فما تقول في عمر ؟ قال : عمر الفاروق خيرة الله وخيرة رسوله ، مضى حميدا على منهاج صاحبيه، لم يغير ولم يبدل ، قال : ما تقول في عثمان ؟ قال : المقتول ظلما ، المجهز جيش العسرة ، الحافر بئر رومة ، المشتري بيته في الجنة ، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابنتيه ، زوجه النبي بوحي من السماء. قال : فما تقول في علي ؟ قال : ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأول من أسلم ، وزوج فاطمة ، وأبو الحسن والحسين ، قال : فما تقول في معاوية ؟ قال: شغلتني نفسي عن تصريف هذه الأمة وتمييز أعمالها. قال: فما تقول في ؟ قال : أنت أعلم ونفسك ! قال : بت بعلمك ، قال : إذا يسوؤك ولا يسرك ، قال : بت بعلمك ، قال : اعفني ، قال : لا عفا الله عني إن أعفيتك ، قال : إني لأعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى ، ترى من نفسك أمورا[1]

---

[1] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 294 ، 295.

تريد بها الهيبة ، وهي تقحمك الهلكة ، وسترد غدا فتعلم . قال : أما والله لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحدا قبلك ، ولا أقتلها أحدا بعدك ، قال : إذا تفسد علي دنياي وأفسد عليك آخرتك ، قال : يا غلام ، السيف والنطع ، قال : فلما ولى ضحك ! قال : أليس بلغني أنك لم تضحك ؟ قال : وقد كان ذلك ! قال : فما أضحكك عند القتل ؟ قال : من جرأتك على الله ، ومن حلم الله عنك ، قال : يا غلام اقتله ، فاستقبل القبلة وقال : (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين). فصرف وجهه عن القبلة ، قال : (فأينما تولوا فثم وجه الله) . قال : اضرب به الأرض ، قال : (منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) . قال : اذبح عدو الله ، فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم. وقبل أن ينزل السيف على رقبة سعيد دعا ربه قائلا : اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي. وسقط رأس سعيد بن جبير على الأرض ، الرأس التي كانت تحوي علوما كثيرة ، وتضم تفسير كلام رب العالمين ، سقطت على الأرض ، وذكر أهل التاريخ أن رأسه هللت ثلاث مرات : لا إله إلا الله ، أفصح في الأولين ، ولم يفصح في الثالثة[1]. ومات سعيد الذي قال عنه أحمد بن حنبل : قتل سعيد بن جبير ، وما أحد على الدنيا من المسلمين ، إلا وهو بحاجة إلى علمه[2]. ومات أيضا الحجاج بعده بقليل شر ميتة ، فاشتدت عليه ألام المرض ، وغصص الموت ، فكان يهب مذعورا وهو يقول : مالي ولسعيد بن جبير، ويكررها ، حتى أهلكه الله ، وخلص العباد والبلاد من شره وطغيانه ، ورؤي الحجاج في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قتلني الله بكل امرئ قتلته قتلة واحدة ، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة[3].

---

[1] أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 294 ، 295.

[2] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج 12 ، ص : 466.

[3] صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج15 ، تحقيق أحمد الأرناؤوط و تزكي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 2000 ، ص : 129.

عمر بن عبد العزيز (الخليفة الزاهد)

هو الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم القرشي الأموي ، وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، ولد سنة 61 هـ وقيل 63 هـ في المدينة المنورة [1] ، وعاش فيها يتزود بالعلم من علمائها ، فعاش في نعمة أعمامه ، وحنان أخواله ، فجمع بين خصال العلم والدين ، إلى جانب الترف والثراء ، ثم ارتحل إلى مصر، بجانب أبيه الذي كان واليا عليها ، ولما بلغ سن الشباب تاقت نفس عمه عبد الملك إلى مصاهرته فزوجه ابنته فاطمة. ولاه عبد الملك على المدينة ، فجمع فقهاءها ، وأخبرهم أنه لن ينقطع بأمر إلا بعد مشورتهم ، وطلب العون منهم ، فكانوا خير عون له. ثم عزله الوليد عن ولاية المدينة ، فانطلق إلى الشام ، واستقر في دمشق يشير على الوليد وينصحه ، ولما تولى سليمان الخلافة ، قرب إليه عمر بن عبد العزيز واستوزره ، ثم عهد إليه بالخلافة من بعده وكان ذلك في شهر صفر سنة 99 هـ ، وعد من الخلفاء الراشدين [2]. قال أنس بن مالك : ما صليت وراء إمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله من إمامكم هذا - يعني عمر بن عبد العزيز- وقال ميمون بن مهران : ما كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة. وقال عنه الذهبي : قد كان هذا الرجل حسن الخلق والخلق ، كامل العقل ، حسن السمت ، جيد السياسة ، حريصا على العدل بكل ممكن ، وافر العلم ، فقيه النفس ، ظاهر الذكاء والفهم ، أواها منيبا ، قانتا لله، حنيفا زاهدا مع الخلافة ، ناطقا بالحق مع قلة المعين ، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملوه وكرهوا محاققته لهم ، ونقصه أعطياتهم ، وأخذه كثيرا مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق ، فما زالوا به حتى سقوه السم ، فحصلت له الشهادة والسعادة ، وعد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين ، والعلماء العاملين [3].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج5 ، ص : 114 ،115.

[2] علي محمد محمد الصلابي : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج ، دار البيارق، ط1، الأردن، 1998، ص : 39.

[3] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج5 ، ص : 119 ، 120.

توفي الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة 101 هـ بدير سمعان من أرض المعرة بالشام ، بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة ونصف. رحمه الله رحمة واسعة[1].

خلافته وأسباب الإشادة بها :

رغم قصر خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، إلا أننا نلاحظ الإشادة به في المصادر القديمة والمراجع الحديثة ، ومن أصحاب النحل المختلفة. فما سبب ذلك ؟ مع أنه يمر بنا في دراسة التاريخ الإسلامي ، عدة خلفاء كان لهم ذكر وإشادة من مختلف الناس مثل عمر بن عبد العزيز. يتلخص ذلك في الأسباب التالية :

الإنقلاب الشخصي :

عاش عمر بن عبد العزيز قبل توليه الخلافة ثريا مترفا ، تلمس ذلك في ثيابه حيث تفوح منها رائحة عطرة عبر الطرقات ، ومشيته التي اشتهرت باسمه ، والتي كان الجواري يتعلمنها من حسنها وتبختره فيها ، كما عرف عنه الظرف والأناقة في الملبس والمظهر، وكانت الحلة تشترى له بألف دينار فيستخشنها ، وكان يرى العنبر في لحيته كالملح ، كان أحسن الناس لباسا وأطيبهم ريحا ، وقد بلغت غلته في السنة أربعين ألف دينار، ولكنه إثر توليه الخلافة ينقلب انقلابا مذهلا ، فبعد أن يلقي خطبته الأولى يجد مراكب الخلفاء الفخمة قد أعدت له فيشيح بوجهه عنها ويطلب بغلته ليركبها ، ويأمر بتلك المراكب والفرش فتباع ويضم ثمنها إلى بيت المال ، لقد تغيرت حاله ساعة تحمله للمسؤولية ، فكأنه لا يتصل بماضيه ، وذكرياته وآبائه وأهله بصلة ، ولا يعرف غير جده عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسوة له.

أصبح لا يملك إلا قميصا واحدا لا يتعدى ثمنه بضعة دراهم ، يغسله يوم الجمعة ويتأخر لذلك عن المسلمين المنتظرين لسماع خطبته ، ويخرج إليهم وقميصه لم يجف حرصا على أداء الصلاة في وقتها ، وهو الذي أمر المؤمنين أن يخبروه إذا حان وقتها حتى لا تشغله أمور الخلافة عنها ، وقد كان قبل توليه الخلافة يتأخر عنها

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج5 ، ص : 144 ، 145.

أحيانا لأن مرجلته لم تنته من تمشيط شعره ، وأصبح يأكل من الطعام الخشن الذي يتكون من الخبز والزيت ، ويتوق للحج ولكنه لا يجد المال الكافي لأدائه[1] ، ويتورع عن شم مسك الفيء ، ويقول عن مشيته العمرية : والله ما رأيتها كانت إلا جنونا.

باختصار شديد نقول : تجرد من الدنيا بعد أن أقبلت صاغرة إليه ، لذلك لا نعجب أبدا إذا رأينا في خلافته انقلابا كبيرا في شؤون الدولة وعودة إلى سيرة الخلفاء الراشدين ، فشخص استطاع أن يغير أحوال نفسه كل هذا التغيير سهل عليه أن يغير كل ما حواليه ليوافق المنهج الذي التزم به.

أخلاقه:

تجمعت في عمر بن عبد العزيز صفات قل أن تجتمع في شخص أوتي السلطان ، ونورد هنا بعض المواقف التي تمثل أخلاق عمر رحمه الله ، حيث أن هذه المواقف تمثل أهمية خاصة لكل من أصبح راعيا لمجموعة من الناس.

كان عمر يعجبه أن يتأدم بالعسل ، فطلب من أهله يوما عسلا ولم يكن عندهم شيء منه ، ثم جاؤوا به فأكل منه فأعجبه ، ثم سأل امرأته : من أين لك هذا ؟ فأخبرته امرأته أنها بعثت مولاها بدينارين على دواب البريد فجاء به ، فطلب إحضار إناء العسل ، فأخذه وباعه ورد على أهله رأس المال ، وألقى بقيته في بيت مال المسلمين ، وقال : نصبت دواب المسلمين في شهوة عمر[2] .

اشتهى يوما تفاحا فقام رجل من أهل بيته فأهدى له منه ، فلما جاء به الرسول قال : ما أطيب ريحه وأحسنه ، ارفعه يا غلام وأقرئ فلانا مني السلام وقل له : إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب ، فقال له أحدهم : يا أمير المؤمنين ابن عمك ورجل من أهل بيتك وقد بلغك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ؟ قال : ويحك الهدية للنبي صلى الله عليه وسلم هدية وهي لنا

[1] علي محمد محمد الصلابي : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج ، المرجع السابق ، ص : 40 ، 41.

[2] ابن الجوزي : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، ضبط وشرح تعليق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1984 ، ص :188.

اليوم رشوة[1].

قال رجاء بن حيوة : سمرت مع عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فغشي السراج ، فقال لي : ما ترى السراج قد غشي ؟ قلت : بلى. وإلى جانبه وصيف راقد ، قلت : أفلا أنبهه ؟ قال : لا ، دعه يرقد. قلت أفلا أقوم أنا ؟ قال : لا ليس من مروءة الرجل استخدام ضيفه ، وقام إلى بطة زيت معلقة فأخذها فأصلح السراج ثم ردها في موضعها ثم رجع ، وقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[2].

خرج عمر في ليلة ومعه حرسه ، فدخل المسجد فمر في الظلمة برجل نائم ، فعثر به ، فرفع الرجل رأسه إليه وقال : أمجنون أنت ؟ قال : لا ، فهم به الحرس ، فقال عمر: مه إنما سألني أمجنون أنت ؟ فقلت له : لا[3].

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله زاهدا ورعا حليما متواضعا ، وكان كثير البكاء خوفا من الله ، وكان يقوم لله ولا يمر عليه يوم إلا نظر في المصحف ، فرضي الله عنه وأرضاه.

غلام هاشمي وعمر بن عبد العزيز: (لو كان الأمر بالسن ، لكان في الأمة من هو أحق منك)

حينما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز، وفدت الوفود من كل بلد ، لبيان حاجتها وللتهنئة فوفد عليه الحجازيون ، فتقدم غلام هاشمي للكلام وكان حديث السن ، فقال عمر : ليتكلم من هو أسن منك. فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبدا لسانا ، لافظا وقلبا حافظا فقد استحق الكلام ، وعرف فضله من سمع خطابه ، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن ، لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك. فقال عمر : صدقت ، قل ما بدا لك. فقال الغلام : أصلح الله أمير المؤمنين ، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزئة وقد آتيناك لمن الله الذي من علينا بك ، ولم يقدمنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة : فقد آتيناك من بلادنا. وأما الرهبة : فقد أمنا جورك بعدلك. فقال عمر : عظني يا غلام. فقال : أصلح

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج5 ، ص : 140.

[2] ابن الجوزي : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، المصدر السابق ، ص : 203.

[3] نفسه : ص : 208 ، 209.

الله أمير المؤمنين إن ناسا من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم ، فزلت بهم الأقدام فهووا في النار. فلا يغرنك حلم الله عنك ، وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك ، فتزل قدمك فتلحق بالقوم. فلا جعلك الله منهم ، وألحقك بصالحي هذه الأمة. ثم سكت فقال عمر : كم عمر الغلام ؟ فقيل إحدى عشرة سنة. ثم سأل عنه ، فإذا هو من ولد سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنه ، فأثنى عليه خيرا ، ودعا له وتمثل قائلا :

تعلم فليس المرء يولد عـالما وليس أخو علم كمن هو جاهل

فإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافل[1]

ابدأ بأهلك:

حدث ميمون بن مهران وزير عمر بن عبد العزيز وقاضيه ومستشاره وقال : دخلت على عمر بن عبد العزيز، فوجدته يكتب رسالة إلى ابنه عبد الملك يعظه فيها وينصحه ، ويبصره ويحذره ، وينذره ويبشره ، وكان مما جاء فيها قوله : أما بعد ، فإن أحق من وعى عني وفهم قولي لأنت ، وإن الله قد أحسن إلينا في صغير الأمور وكبيرها ، فاذكر يا بني فضل الله عليك وعلى والديك ، وإياك والكبر والعظمة ، فإنها من عمل الشيطان ، وهو للمؤمنين عدو مبين ، واعلم أني لم أبعث إليك بكتابي هذا لأمر بلغني عنك ، فما عرفت من أمرك إلا خيرا ، غير أني بلغني عنك شيء من إعجابك بنفسك ، ولو أن هذا الإعجاب خرج بك إلى ما أكره لرأيت مني ما تكره.
قال ميمون : ثم التفت إلي عمر وقال : يا ميمون ، إن ابني عبد الملك قد زين في عيني، وإني أتهم نفسي في ذلك ، وأخاف أن يكون حبي له قد غلب علمي به وأدركني ما يدرك الآباء من العمى عن عيوب أولادهم ، فسر إليه ، وانظر هل ترى ما يشبه الكبر والفخر، فإنه غلام حدث ، ولا آمن عليه الشيطان[2] .
قال ميمون : فشددت الرحال إلى عبد الملك حتى قدمت عليه فاستأذنت فدخت ، فإذا غلام في مقتبل العمر.. فرحب بي ، ثم قال : لقد سمعت أبي يذكرك بما أنت أهل له من الخير، إني لأرجوا أن ينفع الله بك.

---

[1] سيد بن حسين العفاني : المرجع السابق، ج1 ، ص : 243 ، 244.

[2] ياسر عبد الرحمن : المرجع السابق ، ج2 ، ص : 159 ، 160.

فقلت له : كيف تجد نفسك ؟

فقال : بخير من الله عزوجل ونعمة غير أني أخشى أن يكون قد غرني حسن ظني والدي بي ، وأنا لم أبلغ من الفضائل كل ما يظن ، وإني لأخاف أن يكون حبه لي قد غلبه على معرفته بي ، فأكون آفة عليه. فعجبت من اتفاقهما ، ثم قلت له : أعلمني من أين معيشتك ؟

فقال : غلة من أرض اشتريتها ممن ورثها عن أبيه ، ودفعت ثمنها من مال لا شبهة فيه ، فاستغنيت بذلك عن فيء المسلمين.

قلت : فما طعامك ؟

فقال : لية لحم ، وليل عدس وزيت ، وليل خل وزيت ، وفي هذا بلاغ.

فقلت له : أفما تعجبك نفسك ؟

فقال : قد كان في شيء من ذلك ، فلما وعظني أبي بصرني بحقيقة نفسي ، وصغرها عندي ، وحط من قدرها في عيني ، فنفعني الله عزوجل بذلك ، فجزاه الله من والدا خيرا.. فقعدت ساعة أحدثه ، واستمتع بمنطقه ، فلم أر فتى أجمل منه[1] .

أو أمنت الموت يأتيك ورعيتك على بابك :

عن ابن علية قال : جلس عمر بن عبد العزيز يوما للناس ، فلما انتصف النهار ضجر ومل وكل ، فقال : للناس مكانكم حتى انصرف إليكم ، ودخل ليستريح ساعة ، فجاء ابنه عبد الملك فسأل عنه فقالوا : دخل ، فاستأذن عليه ، فأذن له ، فلما دخل قال : يا أمير المؤمنين ، ما أدخلك ؟ قال : أردت أن أستريح ساعة ، قال : أو أمنت الموت أن يأتيك ، ورعيتك على بابك ينتظرونك ؟ وأنت تحجب عنهم ؟ فقام عمر من نومته وخرج للناس[2] .

---

[1] ياسر عبد الرحمن : المرجع السابق ، ج2 ، ص: 160.

[2] ابن الجوزي : سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد ، المصدر السابق ، ص : 301.

أبو حنيفة النعمان (الإمام الأعظم)

هو الإمام الأعظم ، فقيه فقهاء الأمة ، أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي، الكوفي ، من أبناء فارس الأحرار، أول الأئمة الأربعة ، وصاحب المذهب الحنفي ، ولد سنة ثمانين في حياة صغار الصحابة ، ورأى أنس بن مالك لما قدم الكوفة[1] .

كان عالما زاهدا ، عابدا ، ورعا ، تقيا ، كثير الخشوع ، دائم التضرع إلى الله تعالى ، اشتهر بعلمه الغزير، وأخلاقه الحسنة ، حتى قال فيه الشافعي : الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة. وقال علي بن عاصم : لو وزن علم الإمام أبي حنيفة بعلم أهل زمانه ، لرجح عليهم[2] . وعن حماد بن أبي حنيفة قال : كان أبي جميلا، تعلوه سمرة ، حسن الهيئة ، كثير التعطر، هيوبا ، لا يتكلم إلا جوابا ، ولا يخوض رحمه الله فيما لا يعنيه. وقال أبو يوسف القاضي : كان أبو حنيفة يختم القرآن كل ليلة في ركعة[3] .

توفي رحمه الله في سنة خمسين ومائة وله سبعون سنة ، وكانت وفاته في بغداد ، ودفن في مقبرة الخيزران وقبره هناك مشهور يزار.

قال إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه : لما مات أبي سألنا الحسن ابن عمارة أن يتولى غسله ففعل ، فلما غسله قال : رحمك الله وغفر لك ، لم تفطر منذ ثلاثين سنة ، ولم تتوسد يمينك في الليل منذ أربعين سنة ، وقد أتعبت من بعدك، وفضحت القراء[4] .

نساء معلمات:

روى الحسن بن عبد الله العسكري بإسناده إلى أبي حنيفة قال : (خدعتني امرأة وزهدتني أخرى ، وفقهتني أخرى ، فأما التي خدعتني ، فإني كنت مجتازا بظاهر الكوفة، فرأيت شخصا يشير بإصبعه، فتوهمته أخرس ، فتقدمت فإذا هي امرأة ، تشير إلي

---

[1] شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج6 ، ص : 390 ،391.

[2] نفسه : ص : 400.

[3] نفسه : ص : 403.

[4] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج5 ، ص : 413 ، 414 .

بشيء مطروح على الطريق ، فتوهمت أنه لها ، فحملته لها ، فقالت : احتفظ به حتى يجيء صاحبه. (ويسمى في الشرع لقطة ، وهو ما يجده الإنسان ولا يعرف صاحبه ، وعليه أن يحتفظ به ويعلن به حتى يجد صاحبه ثم يكون ملكا لمن التقطه بعد مرور سنة) ، فهذه المرأة خدعتني بأن جعلتني مسؤولا عن اللقطة بدلا منها ، ويدل ذلك على فقهها وتقواها..

وأما التي زهدتني (أي : شجعتني على العبادة و الزهد في الدنيا) ، فهو أني اجتزت في طريق فيه نساء ، فقالت واحدة منهن ، هذا أبو حنيفة الذي يصلي الفجر بوضوء العتمة ، فقلت : لأحققن ظن الناس في ، فتعبدت فصارت عادة لي. (وانظر إلى همته ونيته أن يكون خيرا من ظن الناس فيه).

وأما التي فقهتني فسألتني عن مسألة من الحيض ، فلم أعرف جوابها ، فتشورت (خجلت) فتفقهت حتى لا أحرج أحدا سألني بعد ذلك[1]...

بديهة الإمام أبي حنيفة:

كانت عند أبي حنيفة قدرة عجيبة على التخلص من المؤامرات التي تحاك ضده ، ففي قصة طريفة حدثت في مجلس أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي حيث دخل أبو حنيفة على الخليفة أبي جعفر وعنده أعداد كبيرة من الناس.

فقال أحد كبار القوم ، وهو أبو العباس الطوسي لمن حوله ، اليوم أقتل أبا حنيفة (أي : أغلبه في الحجة و المنطق ، فإن أخطا قتله الخليفة) فنادى في المجلس : يا أبا حنيفة ، عندي سؤال.

قال أبو حنيفة : هات - والخليفة يسمع -

قال الطوسي : إن أمير المؤمنين يدعو الرجل منا ، فيأمره بضرب عنق الرجل ، وهو لا يدري ما فعل ذلك الرجل ، أيسعه أن يضرب عنقه ؟ (أي حين يأمرنا الخليفة بقتل الرجل ، دون أن نعرف ذنبه ، فهل يجوز لنا طاعة الخليفة ؟).[2]

السؤال خطير، فإن أجاب بأنه يجوز، فكأنه يقول : اقتل بغير سبب.

وإن أجاب : بأنه لا يجوز، فكأنه يقول : أوامر الخليفة لا قيمة لها.

---

[1] طارق السويدان : الإمام أبو حنيفة النعمان ، الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط1 ، الكويت ، 2011 ، ص : 35 .

[2] نفسه : ص : 108.

لكن أنظر إلى الفطنة و الدهاء ، وسرعة البديهة عند أبي حنيفة ، رد على الطوسي حيث قال: يا أبا العباس، أمير المؤمنين يأمر بالحق أم الباطل ؟

فقال الطوسي: بالحق.

فقال أبو حنيفة : أنفذ الحق حيث كان ، ثم التفت إلى من كان جنبه وقال: أراد هذا أن يوثقني فربطته. كان رحمه الله حاضر البديهة ، تأتيه أرسال المعاني متدافعة في وقت الحاجة إليها ، فلا تحتبس فكرته ، ولا يغلق عليه في نظر، لا يفحم في جدال ما دام الحق في جانبه ، وعنده من الأدلة ما يؤيده ، ولقد اشتهر بذلك بين فقهاء عصره ...

روي عن الليث بن سعد فقيه مصر أنه قال : كنت أتمنى أن أرى أبا حنيفة ، حتى رأيت الناس متقصفين على شيخ ، فقال رجل : يا أبا حنيفة ، وسأله عن مسألة ، فوالله ما أعجبني صوابه ، كما أعجبني سرعة جوابه ! (أي سرعة جوابه أدهشتني أكثر من صحة جوابه) [1].

فطنة الإمام أبي حنيفة:

كان أبو حنيفة في الفطنة والذكاء آية ، فكانت توجه إليه الأسئلة المعقدة المبهمة فيجيب عنها على البديهة إجابة مسكتة ، وكان يعرف كيف يتقي المكايد ، ويتخلص من الورطات ، وينجو من المهالك قال محمد بن مقاتل : قصد رجل أبا حنيفة ، فقال له : ما تقول في رجل لا يرجو الجنة ، ولا يخاف النار، ولا يخاف الله تعالى ، ويأكل الميتة ، ويصلي بلا ركوع ولا سجود ، ويشهد بما لا يرى ، ويبغض الحق ويحب الفتنة ، ويفر من الرحمة ، ويصدق اليهود والنصارى.

فقال أبو حنيفة : - وكان يعرفه شديد البغض له - يا فلان سألتني عن هذه المسائل ولك بها علم ؟ فقال : الرجل لا. فقال أبو حنيفة لأصحابه : ما تقولونه في هذا الرجل؟ قالوا : شر رجل هذه صفة كافر. فتبسم أبو حنيفة وقال لأصحابه : هو من أولياء الله تعالى حقا. ثم قال للرجل : إن أنا أخبرتك أنه من أولياء الله تعالى تكف عني سوء لسانك ؟ قال : نعم. قال أبو حنيفة : أما قولك لا يرجو الجنة ولا يخاف [2]

---

[1] طارق السويدان : المرجع السابق ، ص : 107،108.

[2] السيد عفيفي : حياة الإمام أبي حنيفة، المطبعة السلفية ومكتبتها ، (د.ط)، القاهرة ، مصر، 1350هـ ، ص : 94 ، 95.

النار، فإنه يرجو رب الجنة ويخاف رب النار، وقولك : لا يخاف الله ، فإنه لا يخاف الله أن يجور عليه في عدله وسلطانه قال تعالى : (وما ربك بظلام للعبيد). وقولك : يأكل الميتة ، فهو يأكل السمك ، وقولك : يصلي بلا ركوع ولا سجود ، أراد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أو صلاة الجنازة ، وقولك : يشهد بما لم يره ، فهو شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وقولك : يبغض الحق ، فهو يبغض الموت وهو الحق ويحب البقاء حتى يطيع الله تعالى قال تعالى : (وجاءت سكرة الموت بالحق). وقولك : يحب الفتنة أراد أنه يجب المال والولد قال تعالى : (إنما أموالكم و أولادكم فتنة). وقولك : يفر من رحمة الله أراد أن يفر من المطر، وقولك : يصدق اليهود والنصارى أراد قول الله تعالى عنهم : (وقالت اليهود ليست النصارى على حق وقالت النصارى ليست اليهود على حق). فقام الرجل وقبل رأس أبي حنيفة وقال : أشهد أنك على حق[1]. هكذا كان الإمام أبو حنيفة عميق الفكر لا يقف عند ظواهر الأمور بل يسير وراء مراميها البعيدة والقريبة ويبحث عن العلل والغايات غير متوقف.

حيلة أبي حنيفة في النجاة من الخوارج:

الخوارج فرقة منحرفة ، وكانت هذه الفرقة تقتل المسلمين إذا لم يقولوا بقولهم ، ويتركون المشركين إذا استجاروا بهم ، فدخلت عصابة منهم يوما مسجد الكوفة ، وأخذت تقتل الناس ، فهرب الناس ، فلما رأى أبو حنيفة المشهد ، أمر أصحابه بالجلوس ، فلم يتحركوا، وقال لهم : لا تبرحوا.

وما هي إلا لحظات حتى كان الخوارج واقفين على رأس الحلقة.

فقال رئيس الخوارج : ما أنتم ؟

فقال أبو حنيفة : نحن مستجيرون.

فقال الخارجي : اتركوهم ، وأبلغوهم مأمنهم ، واقرؤوا عليهم القرآن .

فأخذ الخوارج يقرؤون القرآن ، وأصحاب أبي حنيفة مستغربون ، ثم طلبوا منهم أن يخرجوا معهم ، وحرسوهم إلى أن أخرجوهم من المسجد بكل أمان.

فلما التقى أبو حنيفة بأصحابه سألوه : كيف استطاع أن ينجيهم و ينجي نفسه من هؤلاء ؟

---

[1] السيد عفيفي : المرجع السابق ، ص : 95.

فقال : هؤلاء من عقيدتهم قتل من يخالفهم من المسلمين ، لكنهم أيضا يطبقون ما يفهمون من القرآن ، وفهمهم للقرآن في قوله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغْه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون) التوبة [6].[1]

فلما قلت لهم : نحن مستجيرون ، طبقوا علي الآية فأسمعوني كلام الله ، وأبلغوني مأمني.

وهذا يدل على فطنة و على بديهة سريعة ، لأن الموقف خطير، فمن يستطيع أن يتصرف بهذه السرعة في لحظات و الناس تقتل من حوله ؟ وأيضا يدل على علم أبي حنيفة ، ليس فقط بمنهج السلف الصالح ، لكن حتى بمنهج الفرق الضالة.

الإمام أبو حنيفة يفحم الضحاك الخارجي:

دخل الضحاك بن قيس الخارجي - الذي خرج في عهد الأمويين - مسجد الكوفة ،

فقال لأبي حنيفة : تب .

فقال : مم أتوب ؟

قال : من تجويزك التحكيم ، (أي : لأنك رضيت بالتحكيم بين علي و معاوية رضي الله عنهم ، وكان الخوارج يكفرون من يقول بجواز التحكيم لأنه عندهم تحكيم البشر في دين الله تعالى).

فقال أبو حنيفة : تقتلني أو تناظرني ؟ (أي : تقتلني لأني عندك كافر أو تناقشني).

فقال : بل أناظرك.

قال : فإن اختلفنا في شيء مما تناظرنا فيه ، فمن بيني و بينك ؟

فقال الخارجي : اجعل أنت من شئت.

فقال أبو حنيفة لرجل من أصحاب الضحاك : اقعد فاحكم بيننا فيما نختلف فيه إن اختلفنا.

ثم قال للضحاك : أترضى بهذا بيني و بينك ؟

قال الضحاك : نعم.

[1] طارق السويدان : المرجع السابق ، ص : 110،111 .

قال الإمام أبو حنيفة : فأنت بهذا قد جوزت التحكيم فانقطع. (أي : أفحم الضحاك).

كان رحمه الله في مناظراته واسع الإدراك قوي الحجة ، يعرف كيف ينفذ إلى أن يفحم خصمه من أيسر سبيل ، إذا كان خصمه متعنتا أو يريد إحراجه ، وله في ذلك غرائب ومدهشات معجبات ، قد امتلأت بها كتب المناقب والتراجم والتاريخ[1].

ذكاء أبي حنيفة في الرد على الجاهلين:

يروى أنه كان بالكوفة رجلا يقول : عثمان بن عفان كان يهوديا. ولم تستطع العلماء إقناعه أوحمله على أن يقول غير مقالته ، فأتاه أبو حنيفة.

قال : أتيتك خاطبا.

قال : لمن ؟

قال أبو حنيفة : لابنتك يخطبها رجل شريف ، غني بالمال ، حافظ للكتاب ، سخي ، يقوم الليل في ركوع ، كثير البكاء من خوف الله تعالى.

فقال : في دون هذا مقنع يا أبا حنيفة (أي : لو كانت صفاته أقل من ذلك لرضيت)

فقال أبو حنيفة : إلا أن فيه خصلة.

قال : وما هي؟

قال أبو حنيفة : يهودي.

قال الرجل : سبحان الله ، أتأمرني أن أزوج ابنتي من يهودي ؟!

قال : أبو حنيفة : ألا

تفعل؟

قال : لا.

قال أبو حنيفة : فالنبي صلى الله عليه و سلم زوج ابنتيه من يهودي. (أي : عثمان رضي الله عنه الذي يعتبره هذا الرجل كذلك..)

قال : أستغفر الله ، إني تائب إلى الله عزوجل[2].

---

[1] محمد أبو زهرة : أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه الفقهية ، دار الفكر العربي ، ط2 ، القاهرة ،1947 ، ص :67 ،68.

[2] أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر : المصدر السابق ، ج15 ، ص : 498 ،499.

بهذه الفطنة السمحة كان الإمام أبو حنيفة يرد الجاهلين إلى الصواب.

إنها مخارج لا يكتسبها إلا العلماء ، ولا يتوج بها إلا الحكماء ، ولا يسعى إلى تطبيقها إلا الشجعان ، ولا يميز بها إلا أتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

الإمام مالك (إمام دار الهجرة)

هو شيخ الإسلام ، حجة الأمة ، إمام دار الهجرة ، أبو عبد الله مالك بن أنس بن عمرو بن الحارث.. ينتهي نسبه إلى يعرب بن يشجب بن قحطان الاصبحي.. فهو عربي الأصل من أهل اليمن.

ولد عام 93 للهجرة ، في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم : المدينة المنورة ، وكان قد عرف بالعلم منذ نعومة أظفاره ، وليس هذا بشيء غريب عليه ، فهذه الأسرة التي هو منها أسرة علم ، فأبوه (أنس بن مالك وهو ليس الصحابي أنس بن مالك رضي الله عنه) وأعمامه ، وجده ، كلهم من أصحاب العلم ، وأرباب الفضل ، ولهم مع هذا العلم حديث طويل[1]..

اشتهر الإمام مالك بعلمه الغزير، وقوة حفظه للحديث النبوي ، وتثبته فيه ، وكان معروفا بالصبر، والذكاء ، والهيبة ، والوقار، والأخلاق الحسنة ، وقد أثنى عليه الكثير من العلماء ، قال الإمام الشافعي : إذا ذكر العلماء فمالك النجم. وقال ابن عينية : مالك عالم أهل الحجاز وهو حجة زمانه[2]. وقال أحمد بن حنبل : مالك سيد من سادات أهل العلم ، وهو إمام في الحديث والفقه ومن مثل مالك ؟ متبع لآثار من مضى ، مع عقل وأدب[3].

والإمام مالك هو صاحب المذهب المالكي الشهير، ويعد كتابه الموطأ من أوائل كتب الحديث النبوي ، وأشهرها وأصحها ، حتى قال فيه الإمام الشافعي : ما في الأرض كتاب في العلم أكثر صوابا من موطأ مالك[4].

ودع الإمام مالك الحياة سنة 179هـ بعد تسع وثمانون سنة ، أمضاها في تعلم العلم وتعليمه ، وصار نموذجا فريدا ، وقدوة متميزة ، ومثالا عظيما لكل من أراد السير في طريق العلم[5].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج8 ، ص: 48 ، 49.

[2] نفسه : ص: 57.

[3] محمد أبو زهرة : مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية ، دار الفكر العربي ، ط2 ، القاهرة ، 1952، ص: 88.

[4] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 111.

[5] نفسه : ص : 130.

هيبة الإمام مالك:

يقول الإمام الشافعي (وكان الشافعي صغيرا في بداية طلب العلم) : أردت أن أتعلم على يد الإمام مالك ، وأن يستوصي بي توصية خاصة ، فقررت أن أطلب من والي مكة رسالة توصية إلى والي المدينة ليوصي بي الإمام مالك ، ورسالة أخرى مباشرة إلى الإمام ليتوصى بي.. فأخذت الكتابين ، فلما وصلت إلى المدينة دخلت على الوالي ، وأعطيته كتابه ، فلما قرأه قال : يا فتى إن مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيا أهون علي من المشي إلى باب الإمام مالك بن أنس ، فلست أرى الذل حتى أقف ببابه (أي : إن منصب الوالي لا قيمة له عند الإمام مالك ، فهو يتعامل مع العلم والدين وليس الدنيا والحكم)..

فقلت : أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه حتى يحضر(أي : يطلب من الإمام مالك أن يأتي هو لمجلس الوالي) فقال : هيهات ، ليت أني إذا ركبت أنا ومن معي ، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا (يعني لو خرجت أنا وجميع الوجهاء والأعيان ماشين على أرجلنا إلى الإمام مالك حتى تغبر أقدامنا ، لعل هذا يلين من قلب الإمام مالك تجاه طلباتنا).

يقول الإمام الشافعي : فواعدته العصر، وركبنا جميعا ، فوا الله لكان كما قال أصابنا من تراب العقيق، فتقدم رجل ، فقرع الباب ، فخرجت إلينا جارية سوداء ، فقال الأمير : قولي لمولاك (الإمام مالك) إني بالباب فدخلت فأبطأت ثم خرجت ، فقالت : إن مولاي يقرئك السلام ، ويقول : إن كانت لديك مسالة فرفعها في رقعة يخرج إليك الجواب ، وإن كنت جئت لسماع الحديث فقد عرفت يوم المجلس ، فانصرف.

فقال : قولي له : إن معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة..

فدخلت ، ثم خرجت وبيدها كرسي فوضعته عند الباب وانصرفت..

يقول الإمام الشافعي : فإذا أنا بمالك قد خرج وعليه الهبة والوقار وهو شيخ طويل فجلس ، فتقدم الوالي بالكتاب ، وأعطاه إياه ، فقرأه فإذا فيه طلب والي مكة من الإمام المالك أن يعلم الشافعي الفقه والحديث (إن هذا رجل من أمره وحاله فتحدثه ، وتفعل ، وتصنع).. [1]

---

[1] محمد أبو زهرة : مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية ، المرجع السابق ، ص : 104.

فرمى بالكتاب من يده ، ثم قال : سبحان الله ! أو صار علم رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ بالوسائل (الواسطة) ؟

يقول الشافعي : فإذا الجميع سكوت ، وإذا الوالي قد تهيبه أن يكلمه..

فتقدمت إليه وقلت : أصلحك الله ، إني رجل مطلبي ، ومن حالتي وقصتي ، وبدأت أصف نفسي وطلبي للعلم وعمن أخذت..

فلما سمع كلامي نظر إلي ساعة ، وكان من أصحاب الفراسة ، فقال لي : ما اسمك ؟

فقلت : محمد..

فقال : يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي ، فإنه سيكون لك شأن من الشؤون[1].

لم يكن الإمام مالك يخشى حاكما ولا واليا ، بل كان الولاة والحكام يهابونه ويحسبون حسابه. وكان يتعامل معهم بأسلوب يجعلهم يحترمون مكانة الدين والعلم ، ويفرض عليهم احترامه.

الإمام مالك والتقاليد الملكية:

كان الإمام مالك يأبى أن يتعامل مع الخلفاء بالتقاليد الملكية التي يتعاملون بها ، حيث كان من شأن الأعيان و الشرفاء و كبار بني هاشم أنهم إذا انصرفوا من عند الخليفة قبلوا يده أو كمه ، فكان الإمام مالك لا يفعل ذلك ، بل يسلم و ينصرف.

وفي أحد المجالس عطس المنصور، فكانوا من شدة احترامهم للخليفة لا يشمتونه (أي لا يقولون : يرحمك الله) وكان الإمام جالسا ، فلما عطس المنصور، قال له : يرحمك الله ، ورد عليه المنصور ردا حسنا ، فلما انصرف خرج معه واحد من بطانة الخليفة ومن أعيانه ، فقال له : لا ينبغي لك أن تشمت الخليفة أمام الناس، فسكت الإمام مالك ، وفي مجلس آخر عطس المنصور، فالتفت الإمام مالك إلى الحاجب ، ثم التفت إلى الخليفة وقال : أي حكم تريد يا أمير المؤمنين حكم الله أم حكم الشيطان ؟ فقال : لا بل حكم الله..

فقال الإمام مالك : يرحمك الله[2].

---

[1] محمد أبو زهرة : مالك حياته وعصره وآراؤه الفقهية ، المرجع السابق ، ص : 104.

[2] القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، ج2 ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ط2 ، المغرب ، 1983 : ص : 96 ، 97.

كان الإمام مالك لا يترك عملا أو حكما خوفا من خليفة ولا يتعامل مع الخلفاء ، بالتقاليد الملكية إذا كانت تقلل من شأن العالم وتعامله كمعاملة الآخرين.

فتوى جريئة :

من الطرائف التي حدثت بين الإمام مالك و هارون الرشيد : أن الرشيد في أحد الأيام حلف ثم حنث بيمينه (لم يوف) ، فاستشار ماذا عليه ، فأجمعوا أن عليه عتق رقبة ، فسأل الإمام مالك في هذه اليمين ، فقال : عليك صيام ثلاثة أيام ، فتعجب الرشيد ، وتعجب العلماء ، فكفارة اليمين : عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام..

فقال الرشيد : أأنا معْدم ؟ قال تعالى : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام) المائدة[89]

فرد الإمام مالك ردا في منتهى القوة فقال : يا أمير المؤمنين كل ما في يدك ليس لك ، فعليك صيام ثلاثة أيام (فهذه الأموال التي في يدك ليست ملكك الشخصي ، هذه أموال الأمة فلا يجوز لك إنفاق الأموال العامة على أمورك الشخصية و لو كانت أمور الدين) [1].

فانظر و تأمل في هذه الفتوى وصيانتها لأموال الأمة من تلاعب أهل الشأن بها ، أو استعمالها لأمورهم الخاصة ، وهناك معنى أخر: هذه فتوى في منتهى القوة و في منتهى الجرأة ، عتق رقبة لخليفة يملك آلاف الرقاب أمر عادي ، وأمر سهل ، والأصل في الكفارات الإحساس بالعقوبة ، الإحساس بالجزاء ، فلو أعتق رقبة لم يتأثر، فأراد الإمام مالك أن يشعره بعظمة الحلف بالله رب العالمين..

بالإضافة لأن يعلمه مبدأ آخر، هو أن هذه الأموال التي في يده ليست له و إنما هي لله ثم للمسلمين [2].

---

[1] القاضي عياض : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 111.

[2] طارق السويدان : الإمام مالك ، الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط1 ، الكويت ، 2009 ، ص : 115.

سفيان الثوري (أمير المؤمنين في الحديث)

هو أبو عبد الله سفيان الثوري بن سعيد بن مسروق الثوري الربابي التميمي من بني تميم ، ولد عام 97 هـ ، كان من أعظم أئمة المسلمين ، يقول عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء : هو شيخ الإسلام ، إمام الحفاظ ، سيد العلماء العاملين في زمانه ، أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد ، مصنف الجامع. وطلب سفيان العلم وهو صغير باعتناء والده ، المحدث الصادق سعيد بن مسروق الثوري[1] ، وكان يتوقد ذكاء ، صار إماما أثيرا منظورا إليه وهو شاب ، قال أبو المثنى : سمعتهم بمرو يقولون : قد جاء الثوري ، قد جاء الثوري . فخرجت أنظر إليه ، فإذا هو غلام قد بقل وجهه (خرج شعر وجهه). وقال : شعبة ، وأبو عاصم، ويحي بن معين وغيرهم : سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث[2] ، و عن شعيب بحرب قال : إني لأحسب أنه يجاء غدا بسفيان حجة من الله على خلقه يقول لهم : لم تدركوا نبيكم قد رأيتم سفيان . وقال ابن المهدي رأى أبو إسحاق السبيعي سفيان الثوري مقبلا فقال : (وآتيناه الحكم صبيا) مريم [12] . وقال بشر الحافي : سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما. وقال ابن المبارك : ما أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان. وكان سفيان رحمه الله زاهدا ورعا ، كثير العبادة ، شديد الخشية من الله تعالى ، قال شعبة : ساد سفيان الناس بالورع والعلم[3]. وقال عطاء الخفاف : ما لقيت سفيان الثوري إلا باكيا ، فقلت: ما شأنك ؟ قال : أخاف أن أكون في أم الكتاب شقيا ، وقال ابن وهب : رأيت الثوري في المسجد الحرام بعد المغرب صلى ثم سجد سجدة ، فلم يرفع رأسه حتى نودي لصلاة العشاء[4].

توفي في أول سنة إحدى وستين ومائة ، فرحم الله سفيان الثوري رحمة واسعة ، وجزاه خيرا عن الإسلام والمسلمين[5].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج7 ، ص : 230.

[2] نفسه : ص : 236.

[3] نفسه : ص : 238، 239.

[4] نفسه : ص : 266.

[5] نفسه : ص : 279.

الثوري إمام الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

كان الخلفاء والأمراء يودون لو أن كبار العلماء يجالسونهم ليتزينوا بهم ، وليقنعوا الناس أنهم أهل عدل ولا يظلمون الناس ، ولا يأخذون أموالهم بغير حق وأنهم قائمون بما يرضي الله في كل أمورهم ، وإلا لم يجالسهم هؤلاء العلماء.

فمن العلماء من يغريهم ذلك ، وخصوصا الخلفاء يغدقون عليهم من الأموال والكسوة ويأكلون عندهم من أطيب الطعام ، وهذا عند بعضهم يكفي حجة صلاحهم وعدلهم.

أما سفيان الثوري وأمثاله - وهم الأقل - لا يسكتون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يفرقون بين سلطان وسوقة ، وغني وفقير، أمير وحقير، ولو كلفهم ذلك حياتهم ، وكانت قوتهم في الأمر والنهي مع الخلفاء والأمراء سببا لجفوة شديدة بينهم ، وكم كان بعض الخلفاء والأمراء يحاولون أن يزيلوا هذه الجفوة فما يزيدهم ذلك إلا غلوا في الوحشة والجفاء.

قال يحي بن أبي غنية : ما رأيت أصفق وجها - أي أقل حياء - في الأمر والنهي في الله عزوجل من سفيان الثوري.

لقي أبو جعفر المنصور سفيان الثوري ، وسفيان لا يعرفه ، فضرب بيده على عاتقه وقال : أتعرفني ؟ قال : لا ، ولكنك قبضت علي قبضة جبار، قال : عظني أبا عبد الله، قال : وما عملت في ما علمت فأعظك فيما جهلت ؟ قال : فما يمنعك أن تأتينا ؟ قال : إن الله نهى عنكم قال تعالى : (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار) ثم التفت إلى أصحابه فقال : القينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فرارا[1] .

وقال سفيان الثوري : أدخلت يوما على أبي جعفر المنصور بمنى ، فقلت : اتق الله ، فإنما أنزلت هذه المنزلة ، وصرت في هذا الموضع بسيوف المهاجرين والأنصار، وأبناؤهم يموتون جوعا ، وحج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فما أنفق إلا خمسة عشر دينارا ، كان ينزل تحت الشجرة ، فقال[2] : - أي أبو جعفر - فإنما تريد أن أكون

---

[1] عبد الغني الدقر: الإمام سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ،1994 ، ص : 180،181.

[2] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج7 ، ص :263.

مثلك ؟ قال : قلت : لا تكن مثلي ، ولكن كن دون ما أنت فيه ووفق ما أنا عليه ، فقال لي : اخرج.

وكان أبو جعفر مهيبا جبارا ، لا يبالي أن يبطش بأقل من لمح البصر، ولم يستطع أبو جعفر بعد هاتين الحادثتين أن يكظم غيظه من سفيان ، وكلما امتد الزمن ازداد غيضا وحقدا[1].

وحدث عطاء بن مسلم قال : لما استخلف المهدي بعث إلى سفيان فلما دخل عليه خلع خاتمه فرمى به إليه وقال : يا أبا عبد الله ، هذا خاتمي ، فاعمل في هذه الأمة بالكتاب والسنة ، فأخذ الخاتم بيده وقال : تأذن لي في الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : أتكلم وأنا آمن ؟ قال : نعم ، قال : لا تبعث إلي حتى آتيك ، ولا تعطني حتى أسالك ، قال : فغضب فهم به ، فقال له كاتبه : أليس قد أمنته ؟ قال : بلى ، فلما خرج حف به أصحابه فقالوا : ما منعك وقد أمرك أن تعمل في الأمة بالكتاب والسنة ، فاستصغر عقولهم ، وخرج هاربا إلى البصرة[2]. وإنما استصغر عقولهم لأنهم ظنوا أن هذا الذي قاله لا يعني غيره ، بل ربما رأوا فيه غاية الإخلاص ، أما الحقيقة التي فهمها سفيان أنه إنما يريد أن يشتريه بالثمن الذي لا يحب غيره ليكون جليسه ويغدق عليه المال لئلا يقف في طريق ظلمه عثرة ، بل مبررا لأعماله وأمواله وكل شأنه ، وإذا استطاع أن يخدع سفيان فيميله إليه فقد تم له ملكه لا منازع له فيه غيره ، وليست منازعته أخذ الحكم منه ولكن هو نقده في كل صغيرة وكبيرة مما يخالف الشرع ، والعجيب أن أباه المنصور من قبله استماله فما استطاع لذلك سبيلا[3].

وعن سفيان قال : أدخلت على المهدي ، بمنى فسلمت عليه بالإمرة ، فقال : أيها الرجل طلبناك فأعجزتنا ، فالحمد لله الذي جاء بك ، فارفع إلينا حاجتك. فقلت : قد ملأت الأرض ظلما وجورا ، فاتق الله ، وليكن منك عبرة ، فطأطأ رأسه. ثم قال : أرأيت إن لم أستطع دفعه ؟ قال : تخليه وغيرك. فطأطأ رأسه ثم قال : إلينا حاجتك. قلت : أبناء المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان بالباب فاتق الله وأوصل إليهم حقوقهم. فطأطأ رأسه فقال : أبو عبيد الله أيها الرجل ! ارفع إلينا حاجتك.

---

[1] عبد الغني الدقر : المرجع السابق ، ص : 182.

[2] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج7 ، ص : 262.

[3] عبد الغني الدقر : المرجع السابق ، ص: 184،185.

قلت : وما أرفع ؟ حدثني إسماعيل بن أبي خالد قال : حج عمر فقال لخازنه : كم أنفقت ؟ قال : بضعة عشر درهما. وإني أرى هاهنا أمورا لا تطيقها الجبال[1].

رحم الله أمير المؤمنين ، وشيخ الإسلام ، وزين العباد سفيان الثوري... إن كان الربانيون يهابونه ، فكيف بملوك الدنيا.

قال ابن المهدي : ما كنت أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياء وهيبة منه.

قال عبد الله بن المبارك : إن سفيان دخل على أبي جعفر فقال حاجتك ؟ فقال : حاجتي أن لا تدعوني حتى آتيك ... وأبو جعفر أبو جعفر في بطشه !! لله درك يا سفيان من إمام[2].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج7 ، ص : 264 ،265.

[2] سيد بن حسين العفاني : المرجع السابق ، ج1 ، ص : 260.

الفضيل بن عياض (عابد الحرمين)

هو الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام ، الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني ، ولد في سمرقند سنة 107 هـ ونشأ بأبيرود ودخل الكوفة وسمع الحديث بها وتوفي بمكة سنة 187هـ رحمه الله تعالى[1] .

كان في أول أمره شاطرا يقطع الطريق بين اليورد وسرخس ، وكان سبب توبته أنه عشق جارية فبينما هو يتسلق الجدران إليها سمع تاليا يتلو قوله تعالى :

(ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون). فقال يا رب قد آن ... فرجع فآواه الليل إلى خربة فإذا فيها رفقة ، فقال بعضهم : نرتحل ، وقال بعضهم : حتى نصبح فإن فضيلا على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل وأمنهم ...

وكانت تلك اللحظة التي سمع فيها الآية الكريمة لحظة العناية الإلهية إذ تحول فيها من خبيث إلى طيب ، ومن منحرف ضال إلى مستقيم مهتد.

كان ثقة في الحديث أخذ عنه كثير من رجال العلم والمعرفة منهم الإمام الشافعي رحمه الله تعالى. قال ابن المبارك : ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل من الفضيل بن عياض[2] .

وأخباره في الوعد والطاعة والتقوى ، وقول الحق ولو كان على سيف مسلول أخبار مثيرة وأحيانا مدهشة ... وإذا وقف عليها أبناؤنا اليوم في هذا العصر المادي الذي أصبح فيه الزهد والتقوى والنزاهة أمورا غريبة فإنهم لاشك سيهزون رؤوسهم ويمططون شفاههم تعجبا واستغرابا ...

وكل أخبار الفضيل تعكس عقيدته الراسخة ، وإيمانه العميق ، وثقته في الله ، وشجاعته وحبه للحق وانتصاره له ، وإنكاره للباطل ، ونصحه الخالص في سبيل الله.

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 421 ، 422.

[2] نفسه : ص : 423 ، 424.

عظة الفضيل بن عياض لهارون الرشيد :

قال الفضيل بن ربيع : حج هارون الرشيد ، فبينما أنا نائم ، إذ سمعت قرع الباب ، فقلت : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت مسرعا ، فإذا أنا به أمير المؤمنين ، فقلت : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك ، فقال : ويحك ، قد حاك في نفسي شيء لا يخرجه إلا عالم ، انظر إلي رجلا أسأله.

فقلت : ههنا سفيان بن عيينة.

فقال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعا وقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك.

فقال الرشيد : جد بنا ما جئنا له ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين ؟ قال سفيان بن عيينة : نعم. فقال الرشيد : يا عباس اقض دينه ، ثم انصرفنا.

فقال الرشيد لابن الربيع : ما أغنى عني صاحبك شيئا ، فانظر لي رجلا أسأله ، فقلت : هاهنا عبد الرزاق بن همام . فقال : امض بنا إليه نسأله ، فأتيناه ، فقرعت عليه الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فخرج مسرعا ، فقال : يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليك أتيتك . فقال : جد لنا ما جئنا إليه ، فحادثه ساعة ، ثم قال له : عليك دين ؟ فقال : نعم ، فقال الرشيد : يا عباس اقض دينه ، ثم انصرفنا.

فقال الرشيد : ما أغنى عني صاحبك شيئا ! فانظر لي رجلا أسأله ، فقلت : هاهنا الفضيل بن عياض ، فقال : امض بنا إليه ، فأتيناه ، فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله ويرددها ، فقرعت الباب ، فقال : من هذا ؟ فقلت : أجب أمير المؤمنين . فقال : ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت : سبحان الله ، أما عليك طاعته ؟! فنزل ففتح الباب ، ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ، ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة ، فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف الرشيد كفي إليه ، فقال : أواه من كف ما ألينها إن نجت من عذاب الله تعالى ، فقلت في نفسي : ليكلمنه الليلة بكلام نقي من قلب تقي ، فقال : جد لنا ماجئنا له يرحمك الله تعالى. فقال : إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة ، دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن القرضي ، ورجاء بن حيوة ،[1] فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي ،

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 428 ، 429.

فعد الخلافة بلاء ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة ، فقال سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله ، فصم عن الدنيا ، وليكن إفطارك فيها على الموت.
وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله تعالى غدا ، فليكن كبير المؤمنين عندك أبا ، وأوسطهم عندك أخا ، وأصغرهم ولدا ، فبر أباك ، وارحم أخاك ، وتحنن على ولدك ...
وقال رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غدا من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم متى شئت مت . وإني لأقول هذا ، وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام . فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء من يأمرك بمثل هذا ؟؟؟
فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ، حتى غشي عليه ، فقلت : ارفق بأمير المؤمنين ... فقال : يا ابن الربيع قتلته أنت وأصحابك ، وأرفق به أنا ؟ ثم أفاق هارون الرشيد فقال : زدني ...
فقال : يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكا إليه سهرا ، فكتب له عمر : يا أخي أذكر سهر أهل النار في النار وخلود الأبدان ، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائما ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك وينقطع الرجاء منك ...

فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ فقال له : لقد خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبدا حتى ألقى الله عزوجل ...
فبكى هارون بكاء شديدا ثم قال : زدني .. قال : يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليه فقال : يا رسول الله أمرني إمارة ... فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا عباس ، يا عم النبي ، نفس تحيها خير من إمارة لا تحصيها ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت ألا تكون أميرا فافعل ، فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ، ثم قال : زدني يرحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله تعالى عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل ، وإياك أن تصبح أو تمسي وفي قلبك غش لرعيتك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أصبح لهم غاشا ، لم يرح رائحة الجنة). [1]

---
[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج8، ص : 430 ،431.

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ، ثم قال له : أعليك دين ؟ قال نعم ، دين لربي لم يحاسبني عليه ، فالويل لي إن ناقشني ، والويل لي إن سألني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتي . فقال هارون الرشيد : إنما أعني دين العباد ... قال : إن ربي لم يأمرني بهذا ، وإنما أمرني أن أصدق وعده ، وأطيع أمره ، قال تعالى : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين).

فقال له هارون : هذه ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك ... فقال سبحان الله !! أنا ادلك على طريق النجاة ، وأنت تكافئني بمثل هذا ؟! سلمك الله ووفقك. ثم صمت ولم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فقال لي هارون : إذا دللتني على رجل ، فدلني على مثل هذا ، فإن هذا سيد المسلمين اليوم[1] .
وموقف الفضيل هذا لا يعني أنه كان قاسيا مبغضا للرشيد ، هذا الموقف كان دواء لموقف يحتاج هذا الدواء ، لقد كان الفضيل يقدر الرشيد ويجله ، ويحبه حبا عظيما ، وكل من الرجلين يعرف مكانة الآخر ، فالرشيد يرى الفضيل العالم الفاضل، يشع إيمانا وتقوى وورعا ويقينا وإخلاصا ، والفضيل يرى الرشيد الخليفة المسلم ، غزير الدمع إذا ذكر بالله ورسوله ، مجالسه تقوى وأدب وعلم ، قاضي قضاته أبو يوسف صاحب كتاب (الخراج) ، يعرفه مؤمنا يحج عاما ، ويغزو في سبيل الله عاما ، يعرفه محبا لله عزوجل ، ومحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك يجعله يتقبل النصح ، ويترك هذا الموقف في نفسه أثرا عميقا ، يبقى ذخيرة إيمان ومراقبة لله زمنا طويلا . ولو كان إيمان الرشيد رقيقا ضحلا ، لكانت حكمة الفضيل تجعله في موقف مغاير.

فالفضيل يعلم قيمة صلاح الإمام الأمير ، لذلك قال : لو كانت لي دعوة مستجابة لا أجعلها إلا في إمام صالح ، لأنه إذا صلح الإمام أمن العباد[2] .
لقد كانت مثل هذه المواقف وقودا روحيا للرشيد ، تذكره بالله ولقائه ، فيها النصح المناسب ، للرجل المناسب ، من الرجل المناسب ، ودليل نجاعة هذه المواقف ، قول

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 572.
[2] شوقي أبو خليل : هارون الرشيد ، مؤسسة اقرأ ، ط1، القاهرة ، 2006 ، ص : 160 ، 161.

الرشيد للفضل بن الربيع : إذا دللتني على رجل ، فدلني على مثل هذا ، فإن هذا سيد المسلمين اليوم. لله در الرجلين ، العالم والخليفة ، فالأول نعم الناصح لله ، والثاني نعم المتقبل للنصح لإيمانه العميق بالله[1].

[1] شوقي أبو خليل : المرجع السابق ، ص : 161.

الإمام أبو يوسف (قاضي قضاة الدنيا)

هو الإمام المجتهد ، العلامة المحدث ، قاضي القضاة ، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري نسبا ، والكوفي منشأ ، وتعلما ، ومقاما ، ولد سنة 113 هـ ، وتوفي سنة 182هـ رفع العلم قدره ، ورفع الفقه شأنه ، كان تلميذا فقيرا ، فصار أستاذا مجتهدا في العلم[1].

كان رحمه الله فقيها علامة ، من حفاظ الحديث ، كان تلميذ وصاحب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان ، وهو أول من نشر مذهبه ، قال يحي بن معين : ما رأيت في أصحاب الرأي أثبت في الحديث ، ولا أحفظ ، ولا أصح رواية من أبي يوسف ، وعن يحي البرمكي قال : قدم أبو يوسف ، وأقل ما فيه الفقه ، وقد ملأ بفقهه الخافقين ، وقال عنه الذهبي : بلغ أبو يوسف من رئاسة العلم ما لا مزيد عليه ، وكان الرشيد يبالغ في إجلاله[2].

وصل أبو يوسف إلى مرتبة قاضي القضاة في زمن الرشيد ، وهو أول من سمي بقاضي القضاة ، وكان قد تولى القضاء في عهد هارون الرشيد وقبله عند المهدي ، له عدة مصنفات أشهرها : الخراج ، و الآثار الذي هو مسند الإمام أبو حنيفة[3].

قصة أبو يوسف القاضي مع معلمه الإمام أبي حنيفة:

قال علي بن الجعد : سمعت أبو يوسف القاضي قال : توفي أبي و أنا صغير، فأسلمتني أمي إلى قصار (خياط) ، فكنت أمر على حلقة أبي حنيفة فأجلس فيها ، فكانت أمي تتبعني فتأخذ بيدي من الحلقة و تذهب بي إلى القصار، ثم كنت أخالفها في ذلك و أذهب إلى أبي حنيفة ، فلما طال ذلك عليها ، قالت أمي لأبي حنيفة : إن هذا صبي يتيم ليس له شيء إلا ما أطعمه من مغزلي ، وإنك قد أفسدته علي ، فقال لها : اسكتي يا رعناء (قليلة العقل) هاهو ذا يتعلم العلم ، وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق (الفالوذج : هو أغلى أنواع الحلويات ، ودهن الفستق : هو أغلى أنواع الدهون ، فما بالك إن كان فالوذج بدهن الفستق) ، فقالت له : إنك

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 535 ، 536.

[2] نفسه : ص: 537 ، 538.

[3] أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج 16 ، ص :359.

شيخ قد خرفت.

قال أبو يوسف : فلما وليت القضاء (وكان أول من ولاه القضاء الهادي وهو أول من لقب بقاضي القضاة وكان يقول له : قاضي قضاة الدنيا ، لأنه كان يستنيب في سائر الأقاليم التي يحكم فيها الخليفة) بينما أنا ذات يوم عند الرشيد ، إذ أتي بحلوة أول مرة أراها ، فقال لي هارون الرشيد : كل من هذا يا أبا يوسف ، فإنه لا يصنع لنا كلّ وقت. فقلت : و ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا فالوذج بدهن الفستق. قال : فتبسمت ، فقال : مالك تبتسم ؟ فقلت : لا شيء ، أبقى الله أمير المؤمنين ، فقال : لتخبرني ، فأخبرته بالقصة من أولها إلى آخرها ، فعجب من ذلك و قال : إن العلم ينفع و يرفع في الدنيا و الآخرة ، ثم قال : رحم الله أبا حنيفة ، فقد كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه[1].

قصة الثوب والقصار:

قال الفضل بن غانم : مرض أبو يوسف ، فعاده أبو حنيفة مرارا ، وفي بعض هذه المرات رآه ثقيلا فاسترجع وقال : لقد كنت أؤملك بعدي للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليموتن معك علم كثير، وفي رواية لئن مات هذا الغلام لا يخلفه أحد على وجه الأرض. فبلغ ذلك أبا يوسف. ثم رزق العافية ، فأعجب بنفسه وعقد لنفسه مجلسا في الفقه ، فانصرف وجوه الناس إليه. وقصر عن مجلس أبي حنيفة. فسأل عنه ، فأخبر أنه عقد لنفسه مجلسا ، وأنه بلغه كلامك فيه. فدعا رجلا كان له عنده قدر وقال له : اذهب إلى مجلس يعقوب (أبي يوسف) وقل له : ما تقول في رجل دفع إلى قصار (خياط) ثوبا ليقصره بدرهمين ثم طلب ثوبه ، فقال له القصار : مالك عندي شيء وأنكره. ثم إن صاحب الثوب عاد إليه وطلب ثوبه فدفعه له مقصورا. هل له أجرة ؟ فإن قال : له أجرة ، فقل له : أخطأت ، وإن قال : لا أجرة له ، فقل له : أخطأت[2].

فصار الرجل إلى أبي يوسف ، فسأله.

فقال أبو يوسف : نعم له أجرة ، فقال : أخطأت.

---

[1] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج13، ص : 616.

[2] أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي : المصدر السابق ، ج15 ، ص :478.

فنظر أبو يوسف ساعة ، ثم قال : لا، فقال : أخطأت.
فقام أبو يوسف من ساعته لأبي حنيفة ، فقال له أبو حنيفة : ما جاء بك إلا مسألة القصار.
قال أبو يوسف : أجل.. علمني.
قال أبو حنيفة : إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة له ، لأنه إنما قصره لنفسه ، وإن كان قصره قبل أن يغصبه ، فله الأجرة ، لأنه قصره لصاحبه.
كان الإمام أبو حنيفة ينظر إلى نفوس تلاميذه ، و يتعهدها بالرعاية ، فإذا وجد في أحدهم إحساسا بالعلم ، يمازجه غرور، أزال عنه درن الغرور ببعض الاختبارات ، ترشده إلى مواطن نقصه ، يثبت بها أنه لازال في حاجة إلى فضل من المعرفة يأخذها عن غيره[1] .

قضية ضد الخليفة :

ذكر أنه كانت خصومة بين الخليفة الهادي وبين أحد الرعية حول بستان أخذه الخليفة وفق شبهة في ملكية البستان ، ومن الصعوبة أن ترفع قضية ضد الخليفة ، لكنها رفعت ، ولابد للقاضي أن يحكم فيها ، وكان الظاهر في القضية أن الحكم فيها للأمير، لكن لما دقق القاضي في الأمر وجده خلاف ذلك ، فأراد أن يحكم دون أن يحرج الخليفة ، وهذا من الأدب ، وهو مطلوب في التعامل مع الحكام والسلاطين ، إذا أمكن الوصول إلى الحق دون أذى ، وبدون توتر.
فانتظر القاضي أبو يوسف إلى أن سأله الخليفة ، ما صنعت في الأمر الذي يتنازع إليك فيه ؟
فقال أبو يوسف : خصم أمير المؤمنين ، يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على الحق ، وهذا فيه إحراج للخليفة.
فقال الخليفة : هل ترى ذلك ؟
فقال أبو يوسف : قد كان ابن أبي ليلى القاضي الذي قبلي يراه. وهنا رأى الخليفة أنه سيخسر القضية ، فقال : اردد البستان عليه في الحال[2] .
وهكذا استطاع أبو يوسف أن يرد الحق لأصحابه بمنهجه اللطيف و الحكيم.

[1] محمد أبو زهرة : أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه الفقهية ، المرجع السابق ، ص : 88.
[2] نفسه : ص : 221.

وفي زمن خلافة هارون الرشيد ، رد أبو يوسف شهادة الفضل بن الربيع ، فسأله الرشيد فقال : سمعته يقول: أنا عبد الخليفة ، فإن كان صادقا فلا شهادة لعبد ، وإن كان كاذبا فشاهدته مردودة أيضا لكذبه ، وبالغ الخليفة في الجدل ، فقال : وما شأني كشاهد ، أتقبل شهادتي فقال أبو يوسف : لا، فيعجب الرشيد ، ويسأله عن السبب ، فقال : لأنك تتكبر على الخلق ، ولا تحضر الجماعة من المسلمين ، وهذا ينافي العدالة التي هي شرط لقبول الشهادة ، فبنى الرشيد مسجدا في داره ، وأذن للعامة في الصلاة فيه ، فحضر بذلك صلاة الجماعة.

ولما احتضر أبو يوسف ، قيل له : في نفسك شيء من هذا الأمر يعني القضاء ، قال : لا والله ، إلا شيء واحدا ، ادّعى نصراني مرة على الرشيد ضيعة ، فدعوت بالرشيد و بالنصراني ، فجاء الرشيد و مصلى يحمل له فجلس عليه ، ولم أدع للنصراني بمصلى مثله ، فذاك في نفسي[1].

أغرب يمين طلاق لهارون الرشيد !

لعلى أطرف ما ذكر في فتاوي أبي يوسف لهارون الرشيد ، فتوى جميلة جدا : عندما حدثت بين هارون الرشيد وزوجته زبيدة مشكلة ، انتهت بيمين الطلاق ، ولكنه يمين غريب ، حيث حلف هارون الرشيد فقال : علي الطلاق ألا تبيتي في ملكي الليلة ، فأين تذهب ؟ وملك هارون الرشيد واسع وكبير، تحتاج عدة شهور حتى تخرج من ملكه ، وكان يحب زوجته ، ولكنها كانت نزوة غضب ، فقبل قدوم الليل ندم هارون الرشيد على هذا اليمين ، وبدأ من حوله يسألون ليجدوا حلا لهذه القضية ، فتوجهوا إلى قاضي القضاة أبي يوسف ، فقيه الفقهاء ، فقالوا : هل من مخرج من هذه القضية ؟ قال : نعم . فتعجبوا ، قال : تبيت في المسجد ، فالمسجد ليس من ملكه ، وتلا قوله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) الجن [81] . وحملت زوجة الخليفة إلى المسجد ، وقضت تلك الليلة فيه ، ساجدة قائمة شاكرة لله عزوجل ، وتعلم الخليفة من هذا درسا عظيما ألا يستعجل في الحلف ، وتعلم أيضا أن ملكه لا يتناول مساجد الله ، فهذا ليس من ملكه ، وإنما هو ملك لله رب العالمين.

---

[1] شوقي أبو خليل : هارون الرشيد ، مؤسسة اقرأ ، ط1، القاهرة ، 2006 ، ص : 153 ، 154.

وعرف الناس جميعا و على رأسهم الخليفة عظمة الإمام أبي يوسف الذي تعلم على يد أستاذه العظيم أبي حنيفة فنون التحليل العقلي و الاستنباط الشرعي[1] .

[1] طارق السويدان : الإمام أبو حنيفة النعمان ، المرجع السابق ، ص : 107.

الإمام الشافعي (إمام الدنيا وناصر السنة)

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطلبي القرشي ، عالم العصر، ناصر الحديث ، فقيه الملة ، ولد عام 150هـ بغزة ، و مات أبوه إدريس شاباّ ، فانتقلت به أمه إلى مكة وعمره سنتان[1]. فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين ، وحفظ الموطأ وهو ابن عشرين سنة ، ثم أخذ يطلب العلم في مكة حتى أذن له بالفتوى وهو ابن دون عشرين سنة. هاجر الشافعي إلى المدينة المنورة طلبا للعلم عند الإمام مالك بن أنس ، ثم ارتحل إلى اليمن وعمل فيها. ثم ارتحل إلى بغداد سنة 184هـ فطلب العلم فيها عند القاضي محمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان ، وأخذ يدرس المذهب الحنفي ، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز - المذهب المالكي - وفقه العراق - المذهب الحنفي - فقد كان رحمه الله إمام في علم التفسير، وعلم الحديث ، وقد عمل قاضيا فعرف بالعدل والذكاء ، وإضافة إلى العلوم الدينية ، كان الشافعي فصيحا شاعرا ، وراميا ماهرا ، ورحالا مسافرا ، أكثر العلماء من الثناء عليه ، حتى قال الإمام أحمد فيه : كان الشافعي كالشمس للدنيا ، وكالعافية للناس. وقال أيوب بن سويد : ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثل الشافعي[2].

في عام 199هـ سافر الشافعي إلى مصر، وهناك أعاد تصنيف كتاب الرسالة ، الذي كان قد كتبه للمرة الأولى في بغداد ، كما أخذ ينشر مذهبه الجديد ، ويجادل مخالفيه ، ويعلم طلاب العلم ، حتى توفي في مصر سنة 204 هـ رحمه الله تعالى[3].

سخاء وكرم الإمام الشافعي :

كان الإمام الشافعي في جوده منقطع النضير ، مع أنه كان في أكثر حياته فقيرا ، ما عنده قوت ليلة ، فإذا أتاه المال أنفقه وتصّدق به.

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج10 ، ص : 6،5.

[2] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 163 ، 164 .

[3] أكرم يوسف عمر القواسمي : المدخل إلى مذهب الإمام الشافعي ، تقديم مصطفى سعيد الخن ، دار النفائس ، ط1، الأردن ، 2003 ، ص : 103 ، 104 .

قال الحميدي : قدم الشافعي صنعاء ، فضربت له خيمة ، ومعه عشرة آلاف دينار ، فجاء قوم فسألوه ، فما قلعت الخيمة ومعه منها شيء.

وقال الربيع بن سليمان : أخذ رجل بركاب الشافعي ، فقال الشافعي : يا ربيع أعطه الأربعة دنانير واعتذر لي منه.

وعن الربيع أيضا قال : كان الشافعي راكب حمار ، فمر على سوق الحذّائين ، فسقط سوطه من يده ، فوثب غلام من الحذّائين ، فأخذ السوط ومسحه بكمّه وناوله إياه ، فقال الشافعي لغلامه : ادفع تلك الدنانير التي معك إلى هذا الفتى ، قال الربيع : فلست أدري كانت تسعة دنانير أو سبعة.

وقال الربيع : كنا مع الشافعي رحمه الله تعالى وقد خرج من مسجد مصر ، فانقطع شسْع نعله ، فأصلح له رجل شسْعه ودفعه إليه ، فقال : يا ربيع ، معك من نفقتنا شيء ؟ قلت : نعم. قال : كم ؟ قلت : سبعة دنانير ، قال : ادفعها إليه[1] .

هكذا قمة الكرم ، ينفق كل ما يملك ، ويعتذر ممن يعطيه بأنه لا يملك غيره ، أية أخلاق هذه وأي كرم ؟

وعندما تزوج خادمه الربيع بن سليمان سأله الشافعي : كم أصدقتها ؟ (أي مهرها).

قال : الربيع ثلاثين دينارا.

فقال الشافعي : كم أعطيتها ؟ (أي مقدم المهر).

قال الربيع : ستة دنانير ، فصعد دارا وأرسل إليه صرة فيها أربعة وعشرون دينارا[2] .

وقال الربيع : كان الشافعي رحمه الله تعالى إذا سأله إنسان أن يصله بشيء يحمار وجهه حياء من السائل ، ويبادر بإعطائه ما سأله ، ولقد سأله إنسان يوما وهو راكب شيئا فتغير لونه (لأنه لم يكن يحمل معه أي مال) ، وقال : أين تكون حتى أبعث إليك حاجتك ؟ فلما رجع إلى منزله بعث إليه بما سأله[3] .

يستحي ويتغير لونه إن لم يكن معه ما يعطي السائل ، أين نحن منهم ؟ إنها أخلاق النبيين عليهم السلام..

---

[1] أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر : مناقب الشافعي ، ج2 ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار التراث ، ط1 ، مصر ، 1970 ، ص: 220،221.

[2] نفسه : ص : 223.

[3] نفسه : ص : 235.

وقال الربيع : قد سمعنا بالأسخياء ، قد كان عندنا قوم من الأسخياء بمصر ، وأهل الفضل رأيناهم ، ولكن ما رأينا مثل الشافعي ، ولا سمعنا أحدا في زمانه كان مثله.
قال الربيع : وكان الشافعي يقول : أهل اليمن فيهم سخاء.
قال الربيع : قال الحميدي : فأين سخاء أهل اليمن من سخاء الشافعي رحمه الله ؟ أولئك سخاؤهم من فضل معهم ، والشافعي يسخو بكل ماله[1].

فراسة الإمام الشافعي :

الفراسة هي القدرة على تحليل الشخصيات من خلال النظر في الوجوه والعلامات الظاهرة ، وقد عني الشافعي بالفراسة علما وتجربة ، ومارسها ممارسة فعلية ، وأخذها حين لازم الأعراب في البادية وهو صغير ، ثم أخذ كتبها من اليمن[2].
و له في الفراسة قصص تروى في جميع مراحل حياته ، ومن أطرفها ما يرويه الحميدي ، قال : قال محمد بن إدريس الشافعي :
خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ، ثم لما كان انصرافي مررت في طريقي برجل وهو محتب (جالس) في داره ، أزرق العين ، ناتئ (مرتفع الجبهة) ، سناط (لا لحية له أصلا).
فقلت له : هل من منزل ؟
قال : نعم.
قال الشافعي : فرأيت في وجهه الدناءة (وهذا النعت أخبث ما يكون في الفراسة) فأنزلني فرأيت أكرم رجل ، بعث إليّ بعشاء وطيب وعلّف لدابتي ، وفراش ولحاف ، وجعلت أتقلب الليل أجمع ، ما أصنع بهذه الكتب ؟ (أي ما قيمة كتب الفراسة التي تعلمتها في اليمن وقد أخطأت فراستي في هذا الرجل ؟).
فلما أصبحت قلت للغلام : أسْرج (شدّ سرج الدابة). فأسْرج فركبت ، ومررت على الرجل ، وقلت له : إذا قدمت مكة ، ومررت بذي طوى ، فسلْ عن منزل محمد بن إدريس الشافعي.

---

[1] أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر : المصدر السابق ، ج2 ، ص : 235.
[2] طارق السويدان : الإمام الشافعي ، الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط1 ، الكويت ، 2007 ، ص : 40.

فقال لي: أموْلى (أعبد) لأبيك أنا ؟

قلت: وما هو ؟ (ماذا تقصد ؟).

قال : اشتريت لك طعاما بدرهمين ، وأدما بكذا ، وعطرا بثلاثة دراهم ، وعلفا لدابتك بدرهمين ، وكراء (أجرة) الفراش واللحاف درهمين.

قال الشافعي: قلت: يا غلام أعطه ، فهل بقي من شيء ؟

قال: كراء المنزل ، فإني وسعت عليك وضيّقت على نفسي.

فغبطت نفسي بتلك الكتب. (أي صرت سعيدا أن هذه الكتب التي فيها علم الفراسة لم تخطئ).

فقلت له بعد ذلك: هل بقي من شيء ؟

قال: امض أخزاك الله تعالى ، فما رأيت قط شرّا منك[1].

لقد أخذ الشافعي الفراسة علما ، ومارسها فعلا ، فكان من أدق الناس فراسة.

العقل السليم في الجسم السليم:

قال الشافعي : لا يسكن العقل في الجسم الغليظ. ويروي في ذلك قصة طريفة ، قال الشافعي : كان ملك في الزمان الأول ، وكان مثقلا كثير اللحم ، لا ينتفع بنفسه (أي : لا يستطيع الحركة من شدة سمنته) ، فجمع المتطببين ، وقال : احتالوا لي حيلة يخف عني لحمي هذا قليلا. فما قدروا له على صفة.

قال الشافعي : فنعت له رجل عاقل أديب متطبب ، فبعث إليه فجيء به.

فقال الملك : تعالجني ولك الغنى ؟

قال الحكيم : أصلح الله الأمير، أنا متطبب ومنجم ، دعني أنظر الليلة في طالعك ، أي دواء يوافق طالعك فأسقيك.

قال : فغدا عليه في صباح اليوم التالي ، فقال الحكيم : أيها الملك ، الأمان.

قال الملك :لك الأمان[2].

قال الحكيم : رأيت طالعك يدل على أن عمرك شهر(أي : ستموت بعد شهر) ، فإن أحببت حتى أعالجك ، فإن أردت بيان ذلك فاحبسني عندك ، فإن كان لقولي حقيقة فخل عني ، وإلا فاستقص علي (أي : إذا لم أعالجك من سمنتك أولم تمت

[1] أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر: المصدر السابق ، ج2 ، ص : 134.

[2] نفسه : ص : 120 ، 121.

فعاقبني). فحبسه ، ثم رفع الملاهي ، واحتجب عن الناس ، وخلا وحده مغتما ، ما يرفع رأسه ، يعد أيامه ، كلما انسلخ يوم ازداد غما حتى هزل وجف لحمه ، ومضى لذلك ثمانية وعشرون يوما. فبعث إلى الحكيم فأخرجه من السجن ، فقال الملك : ما ترى ؟

قال : أعز الله الملك ، أنا أهون على الله من أن أعلم الغيب ، والله ما أعرف عمري ، فكيف أعرف عمرك ؟ إنه لم يكن عندي من دواء إلا الغم (أي : لم أجد علاجا للسمنة عندك ، إلا أن تغتم فلا تأكل) فلم أقدر أن أجلب لك الغم إلا بهذه العلة (أي بهذه الحيلة فأخبرتك أنك ستموت خلال شهر) فأذابت شحم الكلى. قال الشافعي : فأجازه وأحسن إليه[1].

ذكاء الثعالب:

ومن القصص الطريفة التي يرويها أيضا الإمام الشافعي ، قصة في ذكاء الثعالب ، يقول : كنا في سفر بأرض اليمن ، فوضعنا الطعام للعشاء ، فحضرت صلاة المغرب والطعام جاهز، فتركنا الطعام وأقمنا الصلاة ، وكان الطعام دجاجتين ، فأتى ثعلب ونحن نصلي ، وأخذ دجاجة وهرب ، فلما انتهينا من الصلاة ، أسفنا على الدجاجة ، وقلنا حرمنا طعامنا ، وبينما نحن كذلك إذ جاء الثعلب ، وفي فمه الدجاجة نراه من بعيد ، فوضعها بعيدا عنا ، ووقف بعيد عنها ، يقول : فهجمنا عليها ، فهرب الثعلب، فلما وصلنا إليها ، فإذا هي ليفة على شكل دجاجة وليست دجاجة ، وبينما نحن نضحك على ذلك، كان الثعلب قد ذهب ، وأخذ الدجاجة الثانية وهرب بها ، فضحك علينا الثعلب ، ونحن من كبار العلماء[2].

---

[1] أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر: المصدر السابق ، ج2 ، ص : 121.

[2] سلمان بن محمد بن عمر البجيرمي : البجيرمي على الخطيب ، ج5 ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1997 ، ص: 212.

الإمام أحمد بن حنبل (إمام أهل السنة والجماعة)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي ، شيخ الإسلام ، إمام أهل السنة والجماعة ، عالم العصر، زاهد الدهر، محدث الدنيا ، علم السنة ، ولد سنة 164هـ في بغداد ، ونشأ فيها يتيما[1] ، وقد كانت بغداد في ذلك العصر بلد الخلافة ، والعلم ، والحضارة ، فلقى بها من لا يحصون من أجلة العلماء ، ولكنه لم يكتفي بعلماء بلده ، وتاقت نفسه إلى لقاء علماء الأمصار، فرحل في سبيل تحمل الحديث المراحل البعيدة ، فرحل إلى الكوفة ، والبصرة ، ومكة ، والمدينة ، واليمن ، والشام ، والجزيرة ، وحج خمس حجج ، منها ثلاث راجلا ، وقد مكنت له هذه الرحلات أكبر قدر ممكن من رواية الأحاديث ولقاء الشيوخ.

وكان للإمام شيوخ لا يحصون كثرة ، منهم هشيم ، و سفيان بن عينية ، ويحي بن سعيد القطان ، وإسماعيل بن علية ، وزياد البكائي ، وبشر بن الفضل ، وأبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة ، ووكيع ، وعبد الرزاق ، والشافعي ، وآخرون لو استقصيناهم لمائة صحف[2].

كان الإمام أحمد من حجج الله البالغة في الحفظ ، والرواية ، وصدق الحديث ، والتثبت ، وقد جمع إلى الحفظ ، الفهم ، والفقه في الحديث ، شهد له بذلك الأئمة المبرزون ، الجامعون بين الفقه والرواية ، وعلى رأس هؤلاء الشافعي الذي لازمه مدة ببغداد ، فقد قال فيه : خرجت من بغدا ، وما تركت بها أفقه، ولا أزهد ، ولا أورع، ولا أعلم ، من أحمد بن حنبل. وقال المزني : قال لي الشافعي : رأيت ببغداد رجلا إذا قال : حدثنا ، قال الناس كلهم : صدق ، قلت : من هو ؟ قال : أحمد بن حنبل[3]. وقد وصفه إبراهيم الحربي فقال : رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين[4].

والإمام أحمد فقيه ومحدث ، وهو صاحب المذهب الحنبلي الشهير، ويعد كتابه المسند من أشهر كتب الحديث وأوسعها.

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج11 ، ص : 178،179.

[2] محمد بن محمد أبو شهبة: أعلام المحدثين، مركز كتب الشرق الأوسط ، (د.ط)، القاهرة ، مصر، 1996، ص: 71،72.

[3] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج11 ، ص : 195.

[4] نفسه : ص : 188.

في يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة مائتين وإحدى وأربعين توفي الإمام أحمد ، عظيم القرن الثالث ، وأعظم سند للسنة وأهلها ، توفي وله من العمر سبع وسبعون سنة.. رحمه الله تعالى[1].

محنة خلق القرآن :

تعرض الإمام أحمد لمحنة قاسية بسبب ثباته على أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وكانت نبتة نابتة تقول بخلق القرآن ، وهم المعتزلة[2] ، والمعتزلة انحرفوا عندما قدموا العقل على النص ، وأرادوا بعقولهم تنزيه الله تعالى ، فزين لهم المنطق أن الله تعالى لا يتكلم ، لأن الله عزوجل قديم لا يتجدد ، والكلام جديد يحدث وليس بقديم ، فمن أجل أن ينزهوا الله تعالى عن التجدد ، قالوا أن القرآن مخلوق من مخلوقات الله تعالى ، خلقه كما خلق السماوات والأرض وليس بكلام الله عزوجل ، لأنه عندهم سبحانه لا يتكلم ، ومن قال إنه يتكلم فقد جعل لله تعالى جسدا فهو كافر[3].. وفي عهد المأمون قويت شوكتهم فاستحوذوا عليه ، وزينوا له القول بخلق القرآن حتى أرسل إلى والي بغداد من قبله أن يحمل الناس ولا سيما العلماء على هذا القول ، وقد وافق معظمهم مكرهين ، وحمل لواء المعارضة والثبات على ما يعتقد الإمام أحمد ومحمد بن نوح ، ولم يلبث ابن نوح أن توفي وانفرد الإمام أحمد بالمحنة. وقد استمرت الفتنة من عهد المأمون إلى عهد المتوكل ، فلما ولى الخلافة استبشر الناس به ، فقد كان محبا للسنة وأهلها ، وقد كان عند حسن ظن الناس به ، فقد رفع المحنة ، وكتب إلى الآفاق أن لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن ، وبذلك أزال الله الكربة ، وفرج عن الأمة ، وأصبح الإمام محبوبا للمتوكل ، أثيرا عنده ، معظما في نفسه ، وقد تحمل الإمام في الفتنة صنوف البلاء[4] ، من ضرب ، وسجن ، وتعذيب ، وتنكيل ، وتشريد ، ولم يزده كل ذلك إلا إيمانا وثباتا على ما يعتقده ، وقد كان الإمام على حق في هذا الموقف ، فهو إمام يقتدى به ، فلو انزلق إلى هذه المقالة ولو

---

[1] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج14 ، ص : 381.

[2] محمد بن محمد أبو شهبة : المرجع السابق ، ص : 75 .

[3] طارق السويدان: الإمام أحمد بن حنبل ، الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط1 ، الكويت ، 2006 ، ص: 103.

[4] محمد بن محمد أبو شهبة : المرجع السابق ، ص : 76 .

تقية ، لتبعه في مقالته الألوف الذين لا يحصون ، ولضل بسببه خلق كثير، وقد عرف الأئمة للإمام هذا الموقف المشرف ، فهذا علي بن المديني يقول : إن الله أعز الدين بأبي بكر يوم الردة وبأحمد بن حنبل يوم المحنة ولما سئل بشر بن الحارث عن أحمد بن حنبل قال : أنا أسأل عن أحمد إن أحمد أدخل الكير فخرج ذهبا أحمر[1].

لقد بلغ الإمام أحمد ذروة المجد ، ونال إعجاب الموافق والمخالف ، بصبره وثباته ، حتى قاسوه بعلية التابعين ، وقالوا : إنه قام في الأمة مقام النبوة ، بصبره على ما أصابه من الأذى في ذات الله..

قهرنا أحمد ، قهرنا أحمد..

يقول سليمان بن عبد الله السجزي أحد مشاهدي محنة خلق القرآن التي تعرض لها الإمام أحمد بن حنبل في أيام المعتصم :

أتيت إلى باب المعتصم ، وإذا الناس قد ازدحموا على بابه ، كيوم العيد ، فدخلت الدار، فرأيت بساطا مبسوطا ، وكرسيا مطروحا ، فوقفت بإزاء الكرسي ، فبينما أن قائم ، فإذا بالمعتصم قد أقبل ، فجلس على الكرسي ، ونزع نعله من رجله ، ووضع رجلا على رجل ، ثم قال : يحضر أحمد بن حنبل ، فأحضر، فلما وقف بين يديه ، وسلم عليه ، قال له : يا أحمد تكلم و لا تخف..

فقال أحمد : والله يا أمير المؤمنين ، لقد دخلت عليك وما في قلبي مثقال حبة من الفزع..

فقال له المعتصم : ما تقول في القرآن ؟

فقال : كلام الله ، قديم غير مخلوق ، قال الله عزوجل : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) التوبة [6] .

فقال له : عندك حجة غير هذا ؟[2]

---

[1] محمد بن محمد أبو شهبة : المرجع السابق ، ص : 76 .

[2] محمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي أبو الحسين : طبقات الحنابلة ، ج1 ، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة سنة على تأسيس المملكة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1999 ، ص: 438.

فقال أحمد : نعم ، يا أمير المؤمنين ، قول الله عزوجل : (الرحمن علم القرآن) الرحمن[2.1] ... ولم يقل : خلق القرآن..

وقوله عزوجل : (والقرآن الحكيم) يس [2] ... ولم يقل يس و القرآن المخلوق..

فقال المعتصم : احبسوه ، فجلس ، وتفرق الناس..

فلما كان صباح اليوم التالي قصدت الباب ، فأدخل الناس ، فدخلت معهم ، فأقبل المعتصم وجلس على كرسيه ، فقال : هاتوا أحمد بن حنبل ، فجيء به ، فلما أوقف بين يديه قال له المعتصم : كيف كنت يا أحمد في محبسك البارحة ؟

فقال : بخير والحمد لله ، إلا أني رأيت يا أمير المؤمنين في محبسك أمرا عجبا..

قال له : و ما رأيت ؟

قال : قمت في نصف الليل فتوضئت للصلاة ، وصليت ركعتين ، قرأت في ركعة : " الحمد لله " و" قل أعوذ برب الناس " وفي الثانية : " الحمد لله " ، وأردت أن أقرأ : " قل هو الله أحد " فلم أقدر.. ثم اجتهدت أن أقرأ غير ذلك من القرآن فلم أقدر، فمددت عيني في زاوية السجن ، فإذا القرآن مسجى ميتا ، فغسلته و كفنته ، وصليت عليه ودفنته..

فقال له المعتصم : ويلك يا أحمد ، والقرآن يموت ؟

فقال له أحمد : فأنت كذا تقول : إنه مخلوق وكل مخلوق يموت..

فقال المعتصم : قهرنا أحمد ، قهرنا أحمد..[1]

[1] محمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي أبو الحسين : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 439.

الإمام البخاري (سيد الحفاظ وإمام المحدثين)

هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري ، أبو عبد الله ، شيخ الإسلام ، وإمام الحفاظ ، صاحب الجامع الصحيح ، المعروف بصحيح البخاري ، ولد عام 194هـ في بخارى ، ونشأ يتيما ، ورحل في طلب الحديث إلى سائر محدثي الأمصار، فزار خراسان ، والعراق ، والحجاز، والشام ، ومصر، وسمع من نحو ألف شيخ ، وجمع نحو ستمائة ألف حديث ، اختار منها في صحيحه ما وثق برواته[1]. كان الإمام البخاري عزيز النفس ، عفيفا ، زاهدا ، عف اللسان ، نبيل الشعور، شديد الورع ، ومما يدل على ذلك قوله إني لا أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدا[2].

قال عمرو بن علي الفلاس : حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث.

وقال الإمام أحمد بن حنبل : ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

وقال أبو عمار الحسين بن حريث : لا أعلم أني رأيت مثله ، كأنه لم يخلق إلا للحديث.

وقال محمود بن النضر أبو سهل الشافعي : دخلت البصرة ، والشام ، والحجاز، والكوفة ، ورأيت علماءها ، فكلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل فضلوه على أنفسهم[3].

وقال الإمام بن خزيمة : ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل.

وقال له الإمام مسلم : دعني أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين ، وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث في علله[4].

رجع الإمام البخاري في آخر حياته إلى بخارى وسط حفاوة بالغة ، ولما استقر فيها طلب منه ، أميرها خالد بن أحمد الذهلي أن يحضر إليه ليسمعه أو يسمع أولاده كتابه الجامع ، فأبى ، وقال لرسوله : قل له : أنا لا أذل العلم ، ولا أحمله إلى أبواب الناس ، وكان هذا سبب جفاء بينهما ، اضطر معه البخاري أن يترك بخارى فخرج إلى

---

[1] ابن خلكان: المصدر السابق ، ج4 ، ص : 188- 190.

[2] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج12 ، ص : 439.

[3] نفسه: ص: 420 - 422.

[4] نفسه : ص : 431 ، 432.

خرتنك[1].

وكانت وفاته ليلة عيد الفطر 256 هـ بقرية خرتنك وهي قرية من قرى سمرقند ، رحمه الله تعالى. قال : محمد بن محمد بن مكي الجرجاني : سمعت عبد الواحد بن آدم الطواويسي يقول : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم ، ومعه جماعة من أصحابه ، وهو واقف في موضع ، فسلمت عليه فرد علي السلام ، فقلت : ما وقوفك يا رسول الله ؟ قال : أنتظر محمد بن إسماعيل البخاري. فلما كان بعد أيام ، بلغني موته فنظرت ، فإذا مات في الساعة التي رأيت فيها النبي صلى الله عليه وسلم[2].

سعة حفظ الإمام البخاري:

قال حاشد بن إسماعيل : كان البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام ، فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام ، فكنا نقول له : إنك تختلف معنا و لا تكتب ، فما تصنع ؟ فقال لنا يوما بعد ستة عشر يوما : قد أكثرتم علي ، فاعرضوا علي ما كتبتم ، فأخرجنا إليه ما كان عندنا ، فزاد على خمسة عشر ألف حديث ، فقرأها كلها عن ظهر قلب ، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه[3].

وفي مجال قوة حفظه دائما ،ترددت قصة رواها كل مؤرخي الإمام البخاري واجمعوا عليها.

قال ابن عدي الحافظ : سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا ، وحضر جماعة من أهل خرسان وغيرهم[4] ، ومن البغداديين ، فلما اطمئن المجلس بأهله ، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث ، فقال : البخاري لا أعرفه ، فما زال يلقي عليه

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج12 ، ص : 464.

[2] نفسه : ص : 468.

[3] نفسه : ص : 408 .

[4] ابن خلكان: المصدر السابق ، ج4 ، ص : 189.

واحد بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول : لا أعرفه ، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون : فهم الرجل ، ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز ، والتقصير وقلة الحفظ. ثم انتدب رجل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة ، فقال : لا أعرفه ، فسأله عن آخر فقال : لا أعرفه ، فلم يزل يلقي عليه واحدا واحدا حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول لا أعرفه ، ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاري لا يزيدهم على لا أعرفه ، فلما علم أنهم قد فرغوا ، التفت إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء ، حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل[1]. قال : الحافظ ابن حجر هنا يخضع للبخاري ، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب ، فإنه كان حافظا ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة[2].

دقة وصدق الإمام البخاري في نقل الحديث:

روى البخاري أنه خرج يطلب الحديث من رجل ، فرآه قد هربت فرسه ، وهو يشير إليها بردائه ، كأن فيه شعيرا ، فجاءته ، فأخذها ، فقال البخاري : أكان معك شعير؟ فقال : الرجل لا ، ولكن أوهمتها ، فقال البخاري : لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم ، فكان هذا مثالا عاليا في تحري النقل عن الصادقين ، ولهذا اعتبر كتابه أصدق كتاب في الأحاديث النبوية[3].

---

[1] ابن خلكان : المصدر السابق ، ج4 ، ص : 189.

[2] محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي : حياة البخاري ، تحقيق محمد الارناؤوط ، دار النفائس، ط1، بيروت ، لبنان ، 1992، ص:17-19.

[3] ياسر عبد الرحمن : المرجع السابق ، ج1 ، ص : 41.

أحمد بن طولون (مؤسس الدولة الطولونية)

هو أحمد بن طولون أبو العباس التركي ، أمير مصر، ومؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام ، ولد بسمراء في سنة عشرين ومائتين هجرية ، وقيل سنة أربع عشرة ومائتين وهو الأصح ، وقيل بل تبناه الأمير طولون ، وطولون مولى نوح بن أسد ابن أسامان السماني ، عامل بخارى وخراسان، أهداه نوح في جملة مماليك إلى المأمون ابن الرشيد ، فرقاه المأمون حتى صار من جملة الأمراء[1]، ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل ، وحفظ القرآن وأتقنه ، وكان من أطيب الناس صوتا به ، مع كثرة الدرس وطلب العلم ، وتفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة ، ولما مات أبوه طولون ، فوض إليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه ، ثم تنقلت به الأحوال وتأمر، وولي ثغور الشام ، ثم إمرة دمشق ، ثم ولي الديار المصرية في سنة أربع وخمسين ، وله إذ ذاك أربعون سنة[2].

قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء : كان بطلا شجاعا ، مقداما مهيبا ، سانسا ، جوادا ، ممدحا ، من دهاة الملوك ، وكان يرجع إلى عدل وبذل ، لكنه جبار ، سفاك للدماء ، و أنشأ بظاهر مصر جامعا ، غرم عليه مائة ألف دينار ، وكان جيد الإسلام ، معظما للشعائر.

ويعتبر جامع أحمد بن طولون شيخ جوامع القاهرة بلا نزاع ، إذ أنه أقدم جامع بقي على حالته الأصلية بشكل كامل مع بعض الإضافات المملوكية.

توفي أحمد بمصر في شهر ذي القعدة سنة سبعين ومائتين هجرية ، رحمه الله تعالى[3].

من روائع ابن طولون:

كان أحمد بن طولون والي مصر متحليا بالعدل مع تجبره وسفكه للدماء ، وكان يجلس للمظالم وينصف المظلوم من الظالم.

---

[1] يوسف بن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج3، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دار الكتب ، (د.ط) ، مصر ، 1963 ، ص : 2.

[2] نفسه : ص : 3،4.

[3] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج13 ، ص : 94 - 96.

حكي أن ولده العباس استدعى بمغنية وهو يصطبح يوما ، فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عودها فكسره ، فدخل العباس إليه وأخبره بذلك ، فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح ، فلما أحضر إليه قال : أنت الذي كسرت العود ، قال : نعم ، قال: أعلمت لمن هو ؟ قال : نعم هو لابنك العباس ، قال : أفما أكرمته لي ، قال : أكرمه لك بمعصية الله عزوجل ، والله تعالى يقول : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) التوبة [71]. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. فأطرق أحمد بن طولون عند ذلك ، ثم قال : كل منكر رأيته فغيره وأنا من ورائك[1].

وكان ابن طولون صاحب فطنة وذكاء والمرويات عنه في ذلك كثيرة منها :

رأى ابن طولون يوما حمالا يحمل صندوقا وهو يضطرب تحته ، فقال : لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنق الحمال ، وأنا أرى عنقه بارزة ، وما هذا إلا من خوف ما يحمل ، فأمر بحط الصندوق ، فوجد فيه جارية قد قتلت وقطعت ، فقال : أصدقني عن حالها ؟ فقال : أربعة نفر في الدار الفلانية أعطوني هذه الدنانير وأمروني بحمل هذه المقتولة ، فضرب الحمال مئتي عصا ، وأمر بقتل الأربعة.

وكان ابن طولون يتنكر ويخرج فيسمع قراءة الأئمة في المحاريب ، فدعا أحد أصحابه يوما ، وقال: امض إلى المسجد الفلاني وأعط إمامه هذه الدنانير، قال : فمضيت ، فجلست مع الإمام وباسطته ، حتى شكا أن زوجته ضربها الطلق ولم يكن معه ما يصلح به شأنه ، و أنه صلى فغلط مرارا في القراءة ، فعدت إلى ابن طولون ، فأخبرته ، فقال : صدق ، ولقد وقفت أمس فرأيته يغلط كثيرا ، فعلمت شغل قلبه[2].

---

[1] إبراهيم شمس الدين : المرجع السابق ، ج1، ص : 24 ، 25.

[2] ابن الجوزي : أخبار الأذكياء ، المصدر السابق ، ص : 89 .

العلامة أبو حفص عبد الجبار (الفقيه الزاهد)

هو الشيخ أبو حفص عبد الجبار بن خالد بن عمران السرتي ، سمع من سحنون ، وأبي زكريا الحضري ، وابن يجير، وحماد بن يحي السلجماسي ، وكان فقيها فاضلا ، زاهدا ثقة ، طويل الصلاة وكان كثير الدعاء مجتهدا ، ومن عقلاء الشمال الإفريقي وبلغ من العلم ما بلغه الإمام سحنون أو كاد ، وكان كثير التلاوة للقرآن ، واشتغل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وله في ذلك نوادر وملح.

توفي سنة 281 هـ إحدى وثمانين ومائتين ، ودفن بباب سلم ، وصلى عليه حمديس القطان ، وكان عبد الجبار وحمديس القطان يضرب بهما المثل في الفضل والدين بإفريقية[1] .

عبد الجبار مع شاب :

خرج الشيخ عبد الجبار من داره يوم الجمعة إلى صلاة الجمعة ، فإذا شاب جميل له هيئة حسنة ولباس جميل وقد اتبع صبية يمشي خلفها ، فلما رآها الشيخ عبد الجبار شق عليه ذلك ، فاتكأ برجله على رجله الأخرى فقطع شسع نعله ، وصاح يا شاب ؟ فالتفت إليه ، فمشي إليه الشيخ عبد الجبار، فوقف الفتى وقال له : مالك ؟ قال : قد كبر سني ، وضعف بصري ، وقد انقطع شسع نعلي فأصلحه لي ، فأصلحه ثم نظر الشيخ عبد الجبار إلى الصبية وقد أمسكت في مشيتها فأخذ من الشاب النعل ، وأدخله في رجله وتمادى الشاب في أثر المرأة ، فقطع الشيخ عبد الجبار شسع نعله مرة ثانية فقطعه ، ثم صاح : يا شاب ! يا شاب.. وكانت للشيخ عبد الجبار مهابة عظيمة فعاد إليه الشاب ، فقال له : أصلح النعل يا مبارك ؟ أصلحه إصلاحا شديدا أظنك ما أصلحته إلا وأنت مستعجل ، فأخذه الشاب وأصلحه ، فعطف الشيخ عبد الجبار عليه وقال : يا شاب أنا قطعت النعل المرة الأولى والثانية ، وإنما فعلت ذلك إشفاقا عليك ورحمة لك ، وخفت والله يا بني على هذا الشباب الصبيح من لهيب النار، وبكا الشيخ عبد الجبار وبكا الشاب ثم قال له[2] : جزاك الله خيرا فو

---

[1] علي محمد محمد الصلابي : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج ، المرجع السابق ، ص : 255.

[2] نفسه : ص : 256.

الله لا عدت إلا ما كان مني أبدا ، ثم صحب عبد الجبار إلى الجامع ثم تاب وحسنت توبته وإنابته ، وكان من فضلاء أهل وقته[1].

أسلوبه في دعوة الأمراء إلى الخير :

ذكر صاحب المنهل العذب أن إبراهيم بن الأغلب طهر أولاده فمضى أهل العلم ، والمشايخ ، مشايخ القيروان لتهنئته ، وكان ممن مضى إليه عبد الجبار بن خالد ، فلما أتى إلى الأمير، أكبره وعظمه ، وسر برؤيته ، فأخرج إليه أولاده فدعا لهم ، وبرك عليهم ، ثم قال : أيها الأمير : هل علمت مقدار هذه النعمة التي أنعم الله عليك بها ؟ أعطاك بنين مثل هؤلاء علمتهم كتاب الله ، وأحييت بهم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بلغني عنك أنك بالغت فيما عملت من الطعام للأغنياء.

فقال له : أجل ! فقال له عبد الجبار : لو استكملت هذه المرة بأن تذكر الفقراء ؟ فقال : صدقت وبررت. ثم دعا بكيس فيه خمسمائة دينار ودفعه إلى عبد الجبار وسأله أن يفرقه على الفقراء والمساكين ؟ فأجابه عبد الجبار إلى ذلك ، فسر به الأمير وخرج معه إلى باب القصر. وقال : احملوا الشيخ على دابته. وقال : والله لا برحت حتى تركب ، فركب عبد الجبار والأمير قائم. فلما ركب دابته... وأصلح الغلمان ثيابه وانصرف. التفت الأمير إلى كاتبه رجاء بن محمد فقال : يا رجاء رأيت ما أعقله وأظرفه ؟ أتعرف في رعيتي مثله ؟ إنه قضى ذمامنا ، وتعافى من طعامنا ، وأخرج مالنا فيما يرضينا.

فتصدق عبد الجبار بالدنانير جميعا على الفقراء والمساكين ولم يبق منها شيئا[2].

---

[1] علي محمد محمد الصلابي : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج ، المرجع السابق ، ص : 256.

[2] نفسه : ص : 256 ، 257.

القاضي منذر بن سعيد (معلم الملوك وراية الحق)

هو أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي ، قاضي الجماعة بقرطبة ، ولي القضاء في عهد عبد الرحمن الناصر، واستمر إلى أن مات ، فلما ولى ابنه الحكم استعفى ، وقد كان فقيها محققا ، وخطيبا بليغا مفوها ، قال ابن بشكوال في بعض كتبه : منذر بن سعيد خطيب بليغ مصقع ، لم يكن بالأندلس أخطب منه ، مع العلم البارع ، والمعرفة الكاملة ، واليقين في العلوم والدين ، والورع ، وكثرة الصيام ، والتهجد ، والصدع بالحق ، كان لاتأخذه في الله لومة لائم ، وقد استسقى غير مرة ، فسقي. وذكره محمد بن حارث القروي فقال : كان من أهل النفاذ والتحصيل ، متدربا للمناظرة ، متخلقا بالإنصاف ، جيد الفهم ، طويل العلم ، بليغا موجزا ، يميل إلى طرق الفضائل ، ويوالي أهلها ، ويلهج بأخبار الصالحين. ولم يحفظ على منذر مدة ولايته قضية جور، وله تآليف في القرآن ، والسنة ، والورع ، والزهد ، والرد على أهل الأهواء[1].

توفي منذر في انسلاخ ذي الحجة سنة خمس وخمسين وثلاثمائة هجرية ، وذكر بعضهم أن مولده سنة خمس وستين ومائتين ، فيكون عمره تسعين سنة كاملة ، رحمه الله تعالى[2].

منذر بن سعيد و الناصر العظيم:

انفق الناصر ثلاثمائة ألف دينار كل عام على بناء الزهراء ، وظل على ذلك خمسة وعشرين عاما ، وجلب لها زخارف الدنيا وبدائعها ، ألف سارية من إفريقيا ، وحوضا منقوشا بالذهب غريب الشكل ، وجعل على الحوض اثني عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي ، ويخرج الماء من أفواهها ، و بنى بركة واسعة عليها أسد عظيم الصورة ، شديدة الروعة مطلى بالذهب ، وعيناه جوهرتان لهما لمعان شديد يجوز هذا الماء إلى عجز الأسد ، فيدفعه في البركة من فمه فيبهر الناظر[3]. وغضب منذر لذلك أشد الغضب ، ومضى ينصح لعبد الرحمن ، ويتناوله

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج16 ، ص : 173- 175.

[2] نفسه : ص : 178.

[3] أنور الجندي : من أعلام الإسلام ، مطابع الدار القومية ، (د.ط) ، روض الفرج ، القاهرة ، (د.ت) ، ص : 61.

بالنقد جاهرا غير مبال. فأراد الناصر أن يرضي الناس ، فبنى مسجد الزهراء وحشد له ألف عامل ، وفرشه بالرخام المرمي وجعل في وسطه فوارة يجري فيها الماء.

وعندما وقف منذر على المنبر بعد ثلاثة أسابيع انقطعت فيها الصلاة الجامعة قرع الناصر، وقال : انصرف إلى الزخرفة والبناء عن غزو الأعداء ، ومغالبة الفرنجة ، وبدأ بالآية الكريمة : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون..) سورة الشعراء [131.128] . وظل منذر يردد معاني الإيغال في الترف وحب البناء والإقامة ، والإعراض عن الجهاد حتى دمعت عينا الناصر، وإن كان قد عتب على منذر تقريعه. ولكن الناصر كان يقدر الإمام قدره ، ويرى له مكانته وعدله ، فقد ذهب المنافقون يغرونه بعزل منذر فرفض ، وقال : إن مثل منذر في فضله وورعه وعلمه يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن الرشد ؟ إني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعا مثل منذر في ورعه وصدقه.

والتفت الناس حول منذر الذي عاد إلى بيته في نفس الطريق ، وأخذوا يخوفونه غضب الخليفة ، فقال لهم في بساطة : إن رضا الناس لا يوازي غضب الله ، وأن سطوة الله أعظم من سطوة أمير المؤمنين. وقيل له : لو التمست رسولا للخليفة ليزيل ما في نفسه ، فضحك ابن سعيد وقال : إن معي ربي سيهدين.

وذهب القاضي إلى بيته حيث لا يخرج منه إلا ليؤدي الصلاة ، واستدعاه الناصر لمقابلته فلبس رث الثياب وأردأها ، ودخل عليه مجلس الذهب حيث دبج بأصناف الديباج وفاخر الرياش.

وجلس ابن سعيد في آخر المجلس ، فأومأ إليه الناصر أن يقترب فقال : يا أمير المؤمنين إنما يقعد الرجل حيث ينتهي به المجلس ، ولا يتخطى الرقاب[1] .

وكان منذر مطرقا وهو يتحدث ، فقال له الخليفة : ما تقول في هذا القصر العظيم ؟ ورفع رأسه لأول مرة ، وقلب النظر فيما حوله ، في الصرح الممرد من قوارير الذهب والفضة ، وأجاب : (ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا). سورة المدثر [17.11] .ورجع القاضي إلى بيته ، وجاء من أسر إليه : بأن الناصر أمر بنقض سقف القبة واستبدال قوارير الذهب والفضة بقوارير الأجر وأمر

---

[1] أنور الجندي : المرجع السابق ، ص : 61 ، 62.

بهدم التماثيل في مجلس الذهب.

هذه هي الصورة التي ترسمها كتب التاريخ لمنذر بن سعيد قاضي الأندلس الشخصية البارعة الجريئة التي عرفت ببلاغة الخطابة وعدالة الحكم وقوة الحجة ، وعمق الفهم ، والفقيه الذي طوف بلاد المشرق حيث تلقى العلم والفقه ونبغ في فهم الأدب والتاريخ وتذوق الشعر والفنون المختلفة ، والمجاهد الذي هاجم الصليبية في الأندلس كله.

وكان منذر مفطوما عن الشهوات عزوفا عن الترف والأهواء ، قد جعل الله عقله أكبر من عاطفته ، فبهر الناس بخلقه ورجولته ونزاهته ، حتى لقد ألزم (الناصر) الحق مرات عدة.

لقد كان منذر مثلا للأئمة الأولين الذين عرفتهم عصور الإسلام في قوته وازدهاره مثلا في النصح والتسديد ،وقول الحق ،وخشية الله وحده[1].

---

[1] أنور الجندي : المرجع السابق ، ص : 62.

الإمام الغزالي (حجة الإسلام)

الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام ، أعجوبة الزمان ، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي ، صاحب التصانيف ، والذكاء المفرط[1] .

يقول شيخ الأزهر المرحوم مصطفى المراغي : إذا ذكر ابن سينا ، والفارابي ، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان ، وإذا ذكر ابن العربي ، خطر بالبال رجل صوفي ، له في التصوف أراء لها خطورتها ، وإذا ذكر البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم ، في الحفظ ، والصدق ، والأمانة ، والدقة ، فإذا ذكر الغزالي ، فقد تشعبت النواحي ، ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون ، لكل واحد منهم قدرته ، وقيمته. خطر بالبال : الغزالي الأصولي ، الفقيه المتكلم ، إمام أهل السنة ، الاجتماعي الخبير بأحوال العالم ، وخفيات الضمائر، ومكنونات القلوب ، الفيلسوف الذي ناهض الفلسفة ، وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، المربي الصوفي الزاهد ، وإن شئت فقل أنه يخطر بالبال ، رجل هو دائرة معارف عصره. ذلك أبلغ وصف للرجل ، الذي أطلق عليه المسلمون في حياته ، حجة الإسلام ، والذي وصف بأنه أحد ثلاثة رجال ، حملوا الدعوة الإسلامية ، هم : البخاري ، والأشعري ، والغزالي ، هذا الرجل عاش حياة قصيرة في حساب الزمن ، عريضة في حساب الفكر ، خمسة وخمسون عاما ، ألف فيها مازاد عن مائة من الأبحاث والكتب ، ولمع اسمه لمعانا خاطفا ، حتى كان يحضر مجلسه ثلاثمائة من أصحاب العمائم ، يكتبون عنه ، والذي هو في تقدير المؤرخين ، مجدد الإسلام في القرن الخامس ، وفي نظر الباحثين ، مؤسس علم النفس الإسلامي ، أو ما أطلق عليه فقه النفس ، وصاحب كتاب إحياء علوم الدين ، الذي وصفه الزبيدي بأنه لا يجد له نظيرا في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون.

ومازال كتابه الإحياء يشغل الناس ، ويثير الخصومات ، ويلقى مزيدا من التقدير ، فقد اختصر، وشرح ، ونقد ، وطبع في القاهرة وحدها أكثر من عشرين مرة ، وترجم إلى الانجليزية ، والفرنسية ، والاسبانية ، ومازال مخطوطا في معظم مكتبات العالم[2] .

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج13 ، ص : 322 ، 323.

[2] أنور الجندي : نوابغ الإسلام ، دار الاعتصام ، (د.ط)، القاهرة ، 1983، ص : 172 ، 173.

ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربعمائة هجرية ، و ارتحل إلى نيسابور ، ثم إلى بغداد ، فالحجاز ، فبلاد الشام ، ومصر، وعاد إلى بلدته ، فتوفي بها في الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة 505 هـ ، ومن أبرز مؤلفاته إحياء علوم الدين ، وكتب أخرى كثيرة ، وقد ترجم لنفسه في كتابه المنقذ من الضلال ، وله أيها الولد ، وتهافت الفلاسفة[1] .

اجتهاد الإمام الغزالي في طلب العلم :

قرأ الإمام أبو حامد الغزالي في صباه طرفا من الفقه ببلده طوس على يد أستاذه أحمد بن محمد الرازكاني ، وكان أستاذه الأول بها هو يوسف النساج ، وبعد تناول الإمام الغزالي لهذا القدر اليسير من الفقه في بلدته ، شد الرحال إلى جرجان ، حيث التقى بأستاذه أبي نصر الاسماعيلي ، و بدأ يدون ما يسمعه منه كمرحلة أولى من التلقي والتعليم ، ثم رجع إلى طوس ، وفي أثناء رجوعه حدث له ما جعله يحفظ ما كتب ويفهم ماعلم ، وفي هذا يقول : قطعت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معي ، ومضوا فاتبعتهم ، فالتفت إلي مقدمهم وقال : ويحك ارجع وإلا هلكت ، قلت له : أسالك بالذي ترجوا السلامة منه أن ترد علي تعليقتي فقط ، فما هي بشيء تنتفعون به ، فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتبت في تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك ، وقال : كيف تدعي أنك عرفت علمها ، وقد أخذناه منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه ، فسلم إلي المخلاة ، قال الغزالي : هذا منطق أنطقه الله ليرشد به أمري ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع علي الطريق لم أتجرد من علمي[2] .

---

[1] أنور الجندي : نوابغ الإسلام ، المرجع السابق ، ص : 193.

[2] تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج6 ، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي، ط1 ، القاهرة ، 1964 ، ص : 195.

الإمام الغزالي و السلطان محمد بن ملك الشاه السلجوقي
(في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان) :

كان مما كتبه الغزالي للسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي :
ويجب أن تعلم أن صلاح الناس في حسن سيرة الملك ، فينبغي للملك أن ينظر في أمور رعيته ، ويقف على قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيرها ، لا يشارك رعيته في الأفعال المذمومة ، ويجب عليه احترام الصالحين ، وأن يثبت على الفعل الجميل ، ويمنع من الفعل الرديء الوبيل ، ويعاقب على ارتكاب القبيح ، ولا يحابي من أصر على القبيح ، ليرغب الناس في الخيرات ويحذروا من السيئات ، ومتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهى المفسد عن فساده ويتركه على مراده ، أفسد سائر أموره في بلاده. وقال الحكماء : إن طباع الرعية نتيجة طباع الملك ، لأن العوام إنما يبخلون ، ويركبون الفساد ، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بملوكهم ، فإنهم يتعلمون منهم ، ويلزمون طباعهم ، ألا ترى أنه قد ذكر في التاريخ أن الوليد بن عبد الملك - من بني أمية - كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة. وكان سليمان بن عبد الملك همته في كثرة الأكل ، وتطيب الطعام ، وقضائه الأوطار (الحاجات) ، وبلوغ الشهوات. وكانت همة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة. قال محمد بن علي بن الفضيل : ما كنت أعلم أمور الرعية تجري على عادة ملوكها ، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكرم والبساتين ، واهتموا ببناء الدور، وعمارة القصور. ورأيتهم في زمان سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام ، حتى كان الرجل يسأل صاحبه : أي لون اصطنعت ، وما الذي أكلت ؟ ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة ، وتفرغوا لتلاوة القرآن ، وأعمال الخيرات ، وإعطاء الصدقات. لتعلم أنه في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان، ويعملون بأعماله ، ويقتدون بأفعاله : من القبيح والجميل ، واتباع الشهوات ، وإدراك الكمالات[1].

---

[1] محمد بن محمد بن محمد الغزالي : التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1988 ، ص : 50 ، 51.

الشيخ عبد القادر الجيلاني (الإمام الزاهد القدوة)

هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني أبو محمد محي الدين الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي ، مؤسس الطريقة القادرية ، من كبار الزهاد ، والمتصوفين ، ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة 471 هـ ، وانتقل إلى بغداد شابا سنة 488 هـ ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف ، وبرع في أساليب الوعظ ، وتفقه ، وسمع الحديث ، وقرأ الأدب ، واشتهر[1] .

جمع الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى من الصفات الحميدة ، والأخلاق الكريمة ، والتقوى ، والورع ، ما جعل العلماء القدماء والمحدثين ، يلهجون بذكره، ويثنون عليه ، ويجمعون على احترامه ، وتقديره ، قال عنه الشيخ ابن تيمية : وأما أئمة الصوفية المشهورة ، مثل الجنيد وأتباعه ، والشيخ عبد القادر وأمثاله ، فهؤلاء من أعظم الناس لزوما للأمر والنهي.. فالشيخ عبد القادر كلامه كله يعود على إتباع المأمور، وترك المحضور، والصبر على المقدور[2]. وقال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء : هو الشيخ الإمام ، العالم الزاهد ، العارف ، القدوة ، شيخ الإسلام ، علم الأولياء[3] .

عاش الشيخ عبد القادر تسعين سنة ، وانتقل إلى الله في عاشر ربيع الآخر سنة إحدى وستين وخمسمائة هجرية ، وشيعه خلق لا يحصون ، رحمه الله تعالى[4].

صدق الشيخ عبد القادر الجيلاني:

قال الشيخ عبد القادر الجيلاني وهو يحكي لنا قصة رائعة حدثت له في شبابه وهو في طريقه من همدان إلى بغداد لتحصيل العلم :

---

[1] ابن تيمية: الزهد والورع والعبادة ، تحقيق حماد سلامة ، مكتبة المنار ، ط1، الأردن ، 1987، ص : 101.

[2] عبد الرزاق الكيلاني :الشيخ عبد القادر الجيلاني ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 2000 ، ص : 300 ،301.

[3] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج20 ، ص : 439.

[4] نفسه : 450.

بعد أن غادرت القافلة همدان متجهة إلى بغداد ، وبعد أن قطعت قسما من الطريق، فوجئت بجماعة من قطاع الطرق واللصوص على خيولهم السريعة يحيطون بها من جميع الجهات ويدعونها للاستسلام ، فأسقط في يد أصحاب القافلة وأناخوا رحالهم صاغرين ، وبدأ اللصوص يفتشون أفراد القافلة فردا فردا ورجالها رجلا رجلا ويأخذون منهم ما خف وزنه وغلا ثمنه ، وجلس الشيخ ينتظر دوره في التفتيش ، ومر عليه أحد اللصوص وهو يسأل كل فرد يمر به عما معه ، وكانوا كلهم ينكرون أنهم يملكون شيئا فيفتشهم ويستخرج أموالهم ويستولي عليها ، إلى أن وصل إلى الشيخ الشاب فرآه غريرا لم تكتمل لحيته بعد ، يرتدي ثيابا بسيطة لا تدل على ثروة ولا جاه ، وليس عليه هيئة التجار، فأراد أن يمر به مر الكرام ويتجاوزه إلى غيره، ولكنه ألقى عليه السؤال الذي كان يلقيه على الآخرين ، وهو يسير إلى غيره ، قال : هل معك شيء ؟ وتابع خطاه يريد أن يسير لأنه كان متيقنا من أن الجواب سيكون بالنفي ، ولكن الجواب الذي أتاه جعله يتسمر في مكانه ، ويفتح فمه وأذانه دهشة ، فقد أجابه الشيخ ، نعم معي أربعون دينارا ، ولم يصدق اللص أذنيه، فأعاد السؤال فأتاه الجواب نفسه نعم معي أربعون دينارا ، وظن اللص أن الفتى يستهزئ به أو يمزح معه ، وبعد أخذ ورد تأكد اللصوص من أن الفتى يقصد ما يقول فتعجب من ذلك أشد العجب وقال له: تعال معي إلى رئيس جماعتنا. وهناك أعاد الرئيس عليه السؤال نفسه فأتاه الجواب نفسه أن معي أربعين دينارا ، فقال له : أين هي ؟ فأخرجه له من تحت إبطه ، فتعجب الرجل ، وعدها فوجدها أربعين دينارا ، فقال للفتى الشيخ: ما الذي دفعك إلى الاعتراف بها وهي مخبأة في هذا المكان الأمين ، ونحن ما كنا نظن أنك تملك شيئا ؟ قال : لأن أمي أوصتني عندما سافرت أن أصدق دائما ولا أكذب أبدا لأن المؤمن لا يكذب ، وقد سألني هذا الرجل هل معك شيء فلم أكذب عليه.

فتأثر رئيس الجماعة تأثرا كبيرا بما سمع واغرورقت عيناه بالدموع ، وهو الذي لم يعرف البكاء في حياته ، والظاهر أنه كان لديه بقية من الإيمان ، فالتفت إلى الفتى الشيخ وقال له : أنت توصيك أمك فتحفظ وصيتها ولو كان في ذلك ذهاب كل ما تملك ، ونحن مضى علينا كذا وكذا سنة نقطع الطريق وننهب الأموال ونروع الآمنين ، ونسمي أنفسنا مسلمين ، اشهد يا بني أنني قد تبت من الآن عن كل ذلك[1].

---

[1] عبد الرزاق الكيلاني : المرجع السابق ، ص :97 ، 98.

ودعا أصحابه وقص عليهم قصة الغلام فتأثروا بها جميعا ووافقوا رئيسهم على التوبة مما يأتون من أعمال تخالف شريعة الله عزوجل ، وردوا جميع المتاع والمال الذي نهبوه من القافلة إليها ، وسارت القافلة بعد ذلك آمنة مطمئنة بحمايتهم إلى أن وصلت إلى بغداد ، وكان ذلك بفضل صدق الشيخ الفتى الصغير عبد القادر الجيلاني.

فتح قلوبا غلفا و أحيا نفوسا ميتة ، ورفع البلاء عن أمة الإسلام ومكن للإيمان في قلوب بعض أبنائها ، والنبي صلى الله عليه وسلم قال : (فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا ، خير لك من أن تكون لك حمر العين)[1].

صبر وحلم الشيخ عبد القادر الجيلاني:

عندما تقدم الشيخ عبد القادر الجيلاني في دراسة علوم الفقه والحديث والأدب وعلوم القرآن ، قرر أن يضيف إلى هذه العلوم ، علم تربية الروح وتزكيتها وتقويتها ، علم التصوف ، وكان ثمة في بغداد عالم انتهت إليه تربية المريدين وانتهى إليه معظم مشايخ بغداد في ذلك الوقت هو الشيخ حماد بن مسلم الدباس (توفي سنة 525 هـ) ومن أقواله القلوب ثلاثة :" قلب يطوف في الدنيا وقلب يطوف في الآخرة وقلب يطوف بالمولى " ومن أقواله أيضا : " أقصر طريق إلى الله تعالى هو حب الله تعالى ". عندما التحق الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى بشيخه الجديد حماد الدباس ، توسم فيه شيخه الجديد الخير والفلاح ، لذلك أراد أن يختبر صبره وصدقه وقوة احتماله ، فصار يعامله بقسوة وشدة ليظهر معدنه الحقيقي ، هل ينكص على عقبيه أم يبقى ثابتا صلبا ، انظروا إليه يقول[2] : خرجت مرة إلى باب الحلبة فقال لي قائل : إلى أين تمشي ؟ ودفعني دفعة خررت منها وقال : ارجع فإن للناس فيك منفعة. قلت : أريد سلامة ديني ، قال لك ذلك. وعرفت أنه حماد الدباس ، وقد كشف لي بعد ذلك جميع ما كان يشكل علي ، وكنت إذا غبت عنه لطلب العلم وجئت ، يقول ما الذي جاء بك إلينا ؟ أنت فقيه ، مر إلى الفقهاء. وأنا أسكت ، وفي يوم الجمعة من شهر كانون الثاني ، خرجت مع الشيخ حماد الدباس وجماعته لنذهب إلى مسجد الرصافة ، وعندما وصلنا إلى جسر اليهود على نهر دجلة ، وكنت أسير خلف الشيخ ،

---

[1] عبد الرزاق الكيلاني : المرجع السابق ، ص: 99.

[2] نفسه : 115 ، 116.

توقف فجأة ودفعني فألقاني في الماء ، في شدة البرد ، فقلت لنفسي : غسل الجمعة ، بسم الله الرحمن الرحيم ، وكان علي جبة صوف ، وفي كمي أجزاء (أي : أوراق مكتوبة) فرفعت كمي لكي لا تهلك الأجزاء ، وتركوني ومشوا ، فعصرت الجبة وتبعتهم ، وقد تأذيت بالبرد كثيرا، وكان الشيخ يؤذيني ، وإذا جئت يقول : جاءنا اليوم خبز كثير وفالوذج فأكلنا وما خبأنا لك شيئا ، فطمع في أصحابه ، وقالوا : أنت فقيه ، ماذا تعمل هنا ؟ فلما رآهم يؤذونني ، قال لهم : لم تؤذونه ؟ والله ما فيكم مثله ، إنما أوذيه أنا لأمتحنه ، فأراه جبلا لا يتحرك[1].

نستنتج من هذه القصة عدة أمور : الأمر الأول : أن الشيخ عبد القادر رحمه الله تعالى قد درس الفقه أولا ثم تحول إلى التصوف ، والأمر الثاني : أنه قد تقدم في دراسة الفقه تقدما ملموسا ، فالشيخ حماد وتلاميذه يعرفون أنه متفقه ، وعندما سقط في الماء اغتنم ذلك ونوى الغسل ليكسب ثواب غسل الجمعة ، لأن الغسل لا يصح بدون نية ، ولا يفعل ذلك إلا فقيه ، والأمر الثالث : أن الشيخ حماد كان يمتحنه وقد نجح في الامتحان نجاحا كبيرا ، والأمر الرابع : أن الشيخ عبد القادر رحمه الله كان يتصف بالحلم ، ولولا ذلك لغضب من شيخه غضبا شديدا ، والخامس : أنه كان رابط الجأش ثابت الجنان ، والسادس : أنه يريد أن يبلغ الهدف الذي رسمه لنفسه مهما واجه في سبيله من صعاب[2].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي : المصدر السابق ، ج20 ، ص : 446.

[2] عبد الرزاق الكيلاني : المرجع السابق ، ص : 117.

ابن الجوزي (العالم المربي والواعظ البليغ والعالم المتفنن)

الإمام العلامة ، الحافظ المفسر، عالم العراق ، وواعظ الآفاق ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي ، صاحب التصانيف العديدة في فنون العلم. ولد سنة تسع أو عشر وخمس مئة هجرية ، عرف جده بالجوزي ، لجوزة كانت في دارهم بواسط ، لم يكن بواسط جوزة سواها ، توفي أبوه وله ثلاثة أعوام ، فربته عمته. وكان أول سماعه سنة ست عشرة سنة ، وسمع بعدها من خلق كثير، عدتهم سبعة وثمانون نفسا. وانتفع في الحديث بملازمة ابن ناصر، وفي القرآن والأدب بسبط الخياط ، وابن الجواليقي[1].

وكان بحرا في التفسير، علامة في السير والتاريخ ، موصوفا بحسن الحديث ، فقيها ، عالما بالإجماع والاختلاف ، وكان ذا حظ عظيم ، وصيت بعيد في الوعظ ، قد طاوعته اللغة ، والبيان ، يحضر مجلسه الملوك ، والوزراء ، والخلفاء ، والأئمة الكبار، لا يكاد مجلسه ينقص عن ألوف كثيرة.

قال عنه الحافظ ابن كثير : الشيخ الحافظ الواعظ ، أحد أفراد العلماء ، برز في علوم كثيرة ، وانفرد بها عن غيره ، وجمع المصنّفات الكبار والصغار ، وتفرّد بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ، ولم يلحق شأوه فيه ، وفي طريقته وشكله ، وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته ، وحلاوة ترصيعه ونفوذ وعظه[2]. وقال الموفق عبد الطيف : كان ابن الجوزي لطيف الصورة ، حلو الشمائل ، رخيم النغمة ، موزون الحركات ، والنغمات ، لذيذ المفاكهة ، لا يضيع من زمانه شيئا[3].

وكانت وفاته ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة من الهجرة ، رحمه الله تعالى ، واسكنه فسيح جناته[4].

---

[1] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: المصدر السابق ، ج21 ، ص: 365- 367.

[2] أبو الفداء بن كثير الدمشقي : المصدر السابق ، ج16 ، ص : 708.

[3] نفسه : ص : 377.

[4] نفسه : ص : 379.

عظة ابن الجوزي للمستضيء بالله :

لم يكن ابن الجوزي يقبل على الحكام ولم يحاول أن يتملقهم كما يفعل غيره من العلماء ومن ثم كان له موقف من الحكام يوضح جانبا مهما من شخصيته ، فلم يكن من وعاظ السلاطين ولا من حاشية الملوك ، بل كان صاحب شخصية فذة ، له مكانته في بيئته ومجتمعه ، فانطلق يجاهد ببيانه ولسانه ولم يداهن أحدا من السلاطين أو الأمراء . ومع أنه كان بعيدا عن الرغبة في الاقتراب من الحكام والتماس الحضوة لديهم ، فقد كان له معهم مواعظ ومواقف ، حيث وعظ المستضيء بالله فقال له : يا أمير المؤمنين ، إن تكلمت خفت منك وإن سكت خفت عليك ، فأنا أقدم خوفي عليك من خوفي منك لمحبتي دوام أيامك ، وأن أقدم قول القائل : " اتق الله " خير من قول القائل : " إنكم أهل بيت مغفور له ". وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول :" إذا بلغني عن عامل أنه قد ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم ". يا أمير المؤمنين ، وكان يوسف عليه السلام لا يشبع في زمان القحط لئلا ينسى الجياع ، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول :" قرقري إن شئت أو لا، والله لا شبعت والمسلمون جياع ". فترتب على هذه الموعظة أن أطلق المستضيء المحابيس وتصدق بصدقات كثيرة[1].

[1] عبد العزيز هيثم هاشم الغزولي : ابن الجوزي ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1992 ، ص :31 ، 32.

الإمام العز بن عبد السلام (سلطان العلماء وبائع الملوك والأمراء)

هو الإمام العلامة ، شيخ الإسلام ، عز الدين بن عبد السلام أبو محمد عبد العزيز ابن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي الشافعي ، أحد الأئمة الأعلام ، الملقب بسلطان العلماء ، والمعروف أيضا ببائع الملوك ، ولد في دمشق سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية ، ونشأ فيها يتلقى علوم الشريعة على يد كبار علمائها ، قال الحافظ الذهبي : وتفقه على الإمام فخر الدين ابن عساكر، وقرأ الأصول والعربية ، ودرس وأفتى وصنف وبرع في المذهب وبلغ رتبة الاجتهاد ، وقصده الطلبة من الآفاق وتخرج به أئمة ، وله التصانيف المفيدة والفتاوى السديدة ، وكان إماما ناسكا عابدا[1]. وكان الإمام عز الدين بن عبد السلام جامعا بين العلم والعمل ، مهيبا عند العامة والخاصة ، من دعاة الجهاد في سبيل الله ، وجرت بينه وبين ملوك وأمراء زمانه مواقف مشهودة ، كان فيها آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم ، رحل إلى القاهرة واستوطنها يصنف ، ويدرس ، ويفتي الناس ، إلى أن توفي فيها سنة 660 هجرية[2].

موقف الشيخ العز بن عبد السلام من تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين :

لما تحالف إسماعيل المعروف بأبي الخبيش حاكم دمشق ، مع الصليبيين ، وأسلمهم قلعة صفْد ، وقلعة الشقيف ، وصيدا ، وبعض ديار المسلمين اختيارا ، لينجدوه على الصالح نجم الدين أيوب ، حاكم مصر ، لأن الصالح إسماعيل خاف منه فكاتب الفرنجة ، ليساعدوه ضد ابن أخيه حاكم مصر، فدخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح ، ليقاتلوا المسلمين ، فشقّ ذلك على سلطان العلماء مشقة عظيمة في مبايعة الفرنج السلاح ، وعلى المتدينين من المتعيّشين من السلاح ، فاستفتوا الشيخ في مبايعة الفرنج السلاح ، فقال : يحرم عليكم مبايعتهم لأنكم تتحققون أنهم يشترونه ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين.

---

[1] يوسف تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن : المصدر السابق ، ج7 ، ص : 208.

[2] أكرم يوسف عمر القواسمي : المرجع السابق ، ص : 383.

وترك عز الدين الدعاء للحاكم في الخطبة ، وجدّد دعاءه - في الجامع - الذي كان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين : " اللهم أبرم لهذه الأمة رشدًا تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك. " والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين، والنصر على أعداء الله الملحدين.

فكاتب أعوان الشيطان السلطان بذلك ، وحرفوا القول وزخرفوه ، فجاء كتابه باعتقال الشيخ ، فبقي مدة معتقلا ، ثم وصل الصالح إسماعيل ، وأخرج الشيخ بعد محاورات ومراجعات ، فأقام مدة بدمشق ، ثم انتزح عنها إلى بيت المقدس ، فوافاه الملك الناصر داود على الفور ، فقطع عليه الطريق وأخذه ، وأقام عنده بنابلس مدة ، ثم جاء الصالح إسماعيل والملك المنصور - صاحب حمص - وملوك الفرنج بعساكرهم وجيوشهم إلى بيت المقدس ، يقصدون الديار المصرية ، فسير الصالح إسماعيل بعض خواصه إلى الشيخ بمنديله ، وقال له : تدفع منديلي إلى الشيخ وتتلطف به غاية التلطف وتستنزله ، وتعده بالعوْد إلى مناصبه على أحسن حال ، فإن وافقك تدخل به عليّ ، وإن خالفك فاعتقله في خيمة إلى جانب خيمتي.

فلما اجتمع الرسول بالشيخ شرع في مسايسته وملاينته ، ثم قال له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة ، أن تنكسر للسلطان ، وتقبل يده لا غير.

وهنا قال سلطان العلماء كلماته النّيّرة ، وهي كلمات للحياة ، فيها استعلاء أهل العلم وعزّة العقيدة ، خرّ من هوْل هذه الكلمات رسول الحاكم. قال عز الدين : " والله يا مسكين ،ما أرضاه أن يقبّل يدي ، فضلا أن أقبل يده. يا قوم ، أنتم في واد، وأنا في واد ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به "[1].

يقول الشيخ شرف الدين عبد اللطيف ولد الشيخ سلطان العلماء فيما حكاه السبكي في " طبقات الشافعية " بعد مقولة الشيخ لرسول السلطان :

فقال له : قد رسم لي إن لم توافق على ما يطلب منك وإلا اعتقلتك.

فقال : افعلوا ما بدا لكم. فأخذه واعتقله في خيمة إلى جانب خيمة السلطان.

وكان الشيخ يقرأ القرآن والسلطان يسمعه ، فقال يوما لملوك الفرنج : تسمعون هذا الشيخ الذي يقرأ القرآن ؟ قالوا : نعم. قال : هذا أكبر قسوس المسلمين ، وقد حبسته لإنكاره عليّ تسليمي لكم حصون المسلمين ، وعزلته عن الخطابة بدمشق

---

[1] تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 243 ، 244.

وعن مناصبه ، ثم أخرجته فجاء إلى القدس ، وقد جدّدت حبسه واعتقاله لأجلكم. فقالت له ملوك الفرنج : لو كان هذا قسّيسنا لغسلنا رجليه ، وشربنا مرقتها.
ثم جاءت العساكر المصرية ، ونصر الله تعالى الأمة المحمدية ، وقتلوا عساكر الفرنج، ونجّى الله سبحانه وتعالى الشيخ ، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب رحمه الله، وولاّه خطابة مصر وقضاءها ، وفوض إليه عمارة المساجد المهجورة بمصر والقاهرة، واتفق له في تلك الولايات عجائب وغرائب[1] .

جرأة وهيبة الشيخ العز بن عبد السلام :

كان الشيخ العز جريئا في الحق ، يعلنه في كل مناسبة ، وينطق به في خطبه ودروسه ، يبينه في الفتاوى والأحكام ، ولا يخشى في الله لومة لائم ، ولم تكن هذه الجرأة على ضعاف الناس ، أو على أحكام الشرع ، كما يحصل أحيانا من أنصاف العلماء ، وإنما كانت جرأة العز في مواطنها المطلوبة ، وحتى مع السلطان مهما كان قويا أو مهيبا ، أو بطاشا ، وكان يستمد هذه الجرأة من ثقته بالله ، وإعلانه لشرعه ، ووقوفه عند حدوده ، دون أن يكون له مطمع شخصي ، أو رغبة في المصالح الخاصة ، أو خوف على نفسه وروحه ، وفي ذلك أمثلة كثيرة ، ومواقف عديدة في حياة الشيخ العز، نذكر جانبا منها[2].
نقل ابن السبكي عن والده أنه سمع شيخه الباجي (تلميذ العز) يقول : طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان نجم الدين أيوب في يوم عيد القلعة ، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه وزينته على عادة سلاطين الديار المصرية ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه يا أيوب..يا أيوب..ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر، ثم تبيح الخمور ؟ فقال له وهو مرعوب من ما كان للشيخ العز من هيبة وهبها الله له : هل جرى هذا ؟ فقال : نعم[3] ،

---

[1] تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 244.

[2] محمد الزحيلي : العز بن عبد السلام ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1992 ، ص : 113 ، 114.

[3] تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 211.

الحانة الفلانية يباع فيها الخمر وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة ، يناديه بأعلى صوته ، والعساكر واقفون ، فقال : يا سيدي ، هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبي ، فقال له : أنت من الذين يقولون : (إن وجدنا آباءنا على أمة) الزخرف [23.22] . فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة. قال : الباجي سألت الشيخ لما جاء عند السلطان ، وقد شاع الخبر : يا سيدي كيف الحال ؟ فقال : يا بني رأيته في تلك العظمة ، فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه ، فقلت : يا سيدي أما خفته ؟ فقال : والله يا بني ، استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان أمامي كالقط[1] .

أمراء للبيع !!

كان الملك الصالح نجم الدين شديد المراس ، صلبا ، قويا ، طموحا ، وله أطماع واسعة ، فأراد أن يقوي جيشه ، ويصطفي قواده ، ويحمي نفسه ، فاشترى (من مال الدولة) المماليك الأتراك ، واستجلبهم من أواسط آسيا وغربها ، ودربهم على الفروسية والفتوة والقتال ،حتى نالوا ثقته ، فاتسع نفوذهم حتى صاروا أمراء وقادة للجيش ، وبلغ أحدهم أن صار نائب السلطان مباشرة. ولما تولى الشيخ العز منصب قاضي القضاة لم يقبله لمجرد الجاه والأبهة ، أو إشغال المركز والتعالي به ، بل استلمه لإصلاح الأمور ، وإقامة العدل ، ومنع الانحراف أو الخطأ ، وهنا اكتشف العز الخلل في الإدارة والسلطة ، وأن الأمراء لا يزالون في حكم الرق لبيت مال المسلمين[2] .

قال السبكي: لما تولى الشيخ عز الدين القضاء ، تصدى لبيع أمراء الدولة من الأتراك ، وذكر أنه لم يثبت عنده أنهم أحرار ، وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين ، فبلغهم ذلك ، فعظم الخطب ، عندهم واضّرم الأمر ، والشيخ مصمم لا يصحح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا ، وتعطلت مصالحهم لذلك ، وكان من جملتهم نائب السلطنة ، فاستثار غضبا ، فاجتمعوا وأرسلوا إليه ، فقال : نعقد لكم مجلسا وينادى عليكم لبيت مال المسلمين ، ويحصل عتقكم بطريق شرعي ، فرفعوا

---

[1] تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 211 ، 212.

[2] محمد الزحيلي : المرجع السابق ، ص : 179 ، 180.

الأمر إلى السلطان ، فبعث إليه فلم يرجعْ ، فجرت من السلطان كلمة فيها غلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ في دخوله في هذا الأمر ، وأنه لا يتعلق به ، فغضب الشيخ ، وحمل حوائجه على حمار ، وأركب عائلته على حمار آخر ، ومشى خلفهم خارجا من القاهرة قاصدا نحو الشام ، فلم يصل خارج القاهرة إلا قليلا حتى لحقه غالب المسلمين ، لم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف ، لا سيما العلماء والصلحاء والتجار وأنحاؤهم ، فبلغ السلطان الخبر ، وقيل له : متى راح ذهب ملكك ، فركب السلطان بنفسه ولحقه واسترضاه وطيّب قلبه[1] ، وطلب منه الرجوع والعودة إلى القاهرة ، فوافق العز على شرطه بأن يتم بيع الأمراء بالمناداة عليهم، ورجع الجميع إلى القاهرة ، وقد انتصر الحق والعدل، وخذل الباطل والظلم. وبعد ذلك حاول نائب السلطنة التدخل بالملاطفة ، ثم بالتهديد والوعيد ، ثم بمحاولة التخلص من الشيخ وقتله ، فلما فشلت هذه الأسلحة الفارغة ، أذعن الأمراء للأمر ، واستسلموا لحكم الشرع ، وأعلن المزاد العام ، ووقف العز ينادي على أمراء الدولة واحدا واحدا ، ويغالي في ثمنهم ، وتدخل الشعب في المزايدة ، حتى إذا ارتفع السعر إلى أقصى غايته ، وعجز الأفراد عنه ، قام السلطان نجم الدين بدفع الثمن من ماله الخاص، ليتملك الأرقاء الأمراء، ثم أعتق رقابهم، فصاروا أحرارا، واحتفظ بهم قادة ، وقبض الشيخ العز ، الثمن ووضعه في بيت مال المسلمين ليصرف في شؤونهم العامة ووجوه الخير المختلفة. قال ابن السبكي : " وهذا لم يسمع بمثله عن أحد رحمه الله تعالى ورضي عنه ".

ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه " بائع الملوك " ، واشتهر أمره في الآفاق ، وسجل له التاريخ موقفا فريدا لم يشهده العالم أجمع ، وعلا صوت الحق ، وعزّ العلماء ، وتم تطبيق شرع الله تعالى ، وهزم الباطل ، وطاشت سهام السلطة والقوة المادية ، أمام سلطان الله تعالى وأحكامه[2].

---

[1] تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 216 ، 217.

[2] محمد الزحيلي : المرجع السابق ، ص : 181 ، 182.

أمره بالمعروف أيام قطز :

لما دهم التتار البلاد عقيب واقعة بغداد ، وجبن أهل مصر عنهم ، وضاقت بالسلطان وعساكره الأرض، استشاروا الشيخ عز الدين رحمه الله ، فقال : اخرجوا، وأنا أضمن لكم على الله النصر. فقال السلطان له : إن المال في خزانتي قليل ، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار. فقال له الشيخ عز الدين : إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك ، وأحضر الأمراء ما عندهم من الحلّي الحرام ، وضربته سكة ونقدا ، وفرقته في الجيش ، ولم يقم بكفايتهم ، ذلك الوقت ، اطلب القرض ، وأما قبل ذلك فلا. فأحضر السلطان والعسكر - كلهم - ما عندهم من ذلك بين يدي الشيخ ، وكان الشيخ له عظمة عندهم وهيبة ، بحيث لا يستطيعون مخالفته ، فامتثلوا أمره، وانتصروا[1].

كريم رغم الفقر :

كان الشيخ العز بن عبد السلام رغم فقره كريما كثير الصدقات ، فيحكي أنه لما كان بدمشق ، وحدثت ضائقة ، وعانى الناس من قلة المال ، وانخفضت أسعار البساتين فأعطته زوجته مصاغها ، وقالت : اشتري لنا بثمنه بستانا نصيف فيه ، فأخذ المصاغ وباعه وتصدق بثمنه ، فسألته زوجته : هل اشتريت لنا بستانا ؟

قال : نعم ، بستانا في الجنة ، إني وجدت الناس في شدة فتصدقت بثمنه.

فقالت : جزاك الله خيرا[2].

كان الشيخ العز كثير الصدقات ، باسط اليد فيما يملك ، يجود بماله ولو كان قليلا، طمعا بالأجر والثواب ، وادخار ذلك إلى يوم الدين.

---

[1] تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : المصدر السابق ، ج8 ، ص : 215.

[2] نفسه : ص : 214.

الإمام ابن تيمية (شيخ الإسلام)

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد النميري الحراني الدمشقي ، أبو العباس تقي الدين ابن تيمية ، الإمام العالم العلامة، المفسر، الفقيه ، المجتهد ، الحافظ ، المحدث ، شيخ الإسلام ، نادرة العصر، ولد في حيران سنة 661هـ ، وتحول به أبوه إلى دمشق عند استيلاء التتار على البلاد سنة 667 هـ ، وفيها أقبل على العلوم الإسلامية يحصلها ، وأمده الله بكثرة الكتب ، وسرعة الحفظ ، وقوة الإدراك ، والفهم ، فألم بالفقه ، والتفسير، والحديث ، والحساب ، وغيرها ، وهو ابن بضع عشرة سنة ، وناظر، وجادل ، وأفتى ، وهو ابن سبع عشرة سنة ، وقام بوظائف أبيه بعد وفاته ، فدرس بدار الحديث ، وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، ولقب بمحي السنة ، وإمام المجتهدين ، وهو ابن ثلاثين ، قال الذهبي : كان من بحور العلم ، ومن الأذكياء المعدودين ، والزهاد الأفراد ، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد ، أثنى عليه الموافق والمخالف ، حدث بدمشق ، ومصر، والثغر... امتحن وأوذي مرات ، طلب أولا إلى مصر أيام الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، من أجل فتوى أفتى بها ، فتعصب عليه جماعة من أهلها ، فسجن مدة في خزانة البنود ، ثم نقل إلى الإسكندرية ، وأطلق سراحه ، فسافر إلى دمشق سنة 712 هـ ، واعتقل بها سنة 720 هـ ، وأطلق ، ثم أعيد إلى قلعة دمشق سنة 726 هـ ، فلم يزل معتقلا بها إلى أن مات صابرا ، فخرجت دمشق كلها في جنازته[1].

كرم شيخ الإسلام ابن تيمية :

قال الحافظ عمر البزّار في الأعلام العليّة في مناقب ابن تيمية :

كان رضي الله عنه مجبولا على الكرم ، وما شدّ على دينار ولا درهم قط ، بل كان مهما قدر على شيء من ذلك ، يجود به كله ، وكان لا يرد من يسأله شيئا يقدر عليه من دراهم ولا دنانير ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك.

بل ربّما كان يسأله بعض الفقراء شيئا من النفقة ، فإن كان حينئذ متعذرا لا يدعه يذهب بلا شيء ، من لباسه فيدفعه إليه. وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله.

---

[1] عادل نويهض : معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية ، ط3 ، بيروت ، 1988 ، ص : 41 ، 42.

قال الشيخ عبد الله بن أحمد بن سعيد : كنت يوما جالسا بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه ، فجاءه إنسان فسلّم عليه ، فرآه الشيخ محتاجا إلى ما يعتمّ به ، فنزع الشيخ عمامته ، من غير أن يسأله الرجل ذلك ، فقطعها نصفين ، واعتمّ بنصفها ، ودفع النصف الآخر إلى ذلك الرجل ، ولم يحتشم للحاضرين عنده[1].

وكان الشيخ مارّا يوما في بعض الأزقّة ، فدعا له بعض الفقراء ، وعرف الشيخ حاجته ، ولم يكن مع الشيخ ما يعطيه ، فنزع ثوبا على جلده ودفعه إليه ، وقال : بعه بما تيسّر وأنفقه ، واعتذر إليه من كونه لم يحضر عنده شيء من النفقة. وكان لا يرد أحدا يسأله شيء من كتبه ، بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها[2].

و حكى غير واحد ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار ، وتفقد المحتاجين والغرباء ، ورقيقي الحال من الفقهاء والقرّاء ، واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ، ومساعدته لهم ، بل ولكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه ، وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ، ووجهه وجاهه[3].

شجاعة شيخ الإسلام ابن تيمية :

كان الشيخ ابن تيمية رحمه الله من أشجع الناس وأقواهم قلبا ، كما قال الحافظ سراج الدين أبو حفص في مناقبه : ما رأيت أحدا اثبت جأشا منه ، ولا أعظم عناء في جهاد العدو منه ، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ولا يخاف في الله لومة لائم .

كان الشيخ إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد ، يكون بينهم واقيتهم وقطب ثباتهم ، إن رأى من بعضهم هلعا أو رقة وجبانة ، شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة ، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين وإنزال الله عليهم السكينة[4].

وكان إذا ركب الخيل يتحنك ويجول في العدو كأعظم الشجعان ، ويقوم كأثبت الفرسان ، ويكبر تكبيرا أنكى في العدو من كثير الفتك بهم ، ويخوض فيهم خوض رجل

---

[1] عمر بن علي البزاز أبو حفص : الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1976 ، ص : 59.

[2] نفسه : ص :61 ، 62.

[3] نفسه : ص : 48.

[4] نفسه : ص :63.

لا يهاب الموت. وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أمورا من الشجاعة يعجز الواصف عن وصفها ، قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله ومشورته وحسن نظره . ولما ظهر السلطان غازان على دمشق ، جاءه ملك الكرج ، وبذل له أموالا كثيرة جزيلة ، على أن يمكنه من الفتك بالمسلمين من أهل دمشق ، فوصل الخبر إلى الشيخ، فقام من فوره ، وشجع المسلمين ، ورغبهم في الشهادة ، ووعدهم بالنصر والظفر والأمن وزوال الخوف ، فانتدب منهم رجال من وجهائهم وكبرائهم وذوي الأحلام منهم ، فخرجوا معه إلى حضرة السلطان غازان ، فلما رآهم السلطان قال : من هؤلاء ؟ فقيل : هم رؤساء دمشق ، فأذن لهم ، فحضروا بين يديه ، فتقدم الشيخ رحمه الله أولا ، فلما رآه أوقع الله في قلبه هيبة عظيمة ، حتى أدناه وأجلسه ، وأخذ الشيخ في الكلام معه أولا في عكس رأيه عن تسليط المخذول ملك الكرج على المسلمين ، وضمن له أموالا ، وأخبره بحرمة دماء المسلمين ، وذكره ووعظه. فأجابه إلى ذلك طائعا ، وحقنت بسببه دماء المسلمين ، وحميت ذراريهم ، وصين حريمهم [1].

وقال القاضي أبو العباس : إنهم لما حضروا مجلس غازان قدم لهم طعام فأكلوا منه إلا ابن تيمية ، فقيل له : لم لم تأكل ؟ فقال : كيف آكل من طعام نهبتموه من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس ؟ ثم إن غازان طلب منه الدعاء ، فقال في دعائه : اللهم ، إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا وجاهد في سبيلك فأيده وانصره ، وإن كان للملك والدنيا والتكاثر فافعل به واصنع ، فكان يدعوا عليه وغازان يؤمن على دعاءه ، ونحن نجمع ثيابنا خوفا أن يقتل فيطرطس بدمه.

ومن ذلك أنه في سنة 700 هـ اشتد الخطر على الشام من التتار ذلك العدو الرهيب، فأصبح الناس بين هارب أو لا يجد بدا من الاستسلام [2].

وطلب نائب السلطان والأمراء إلى الشيخ أن يركب على البريد إلى مصر يستحسن السلطان أن يجيء بالجيش لإنقاذ الشام ، وفي القاهرة قال الشيخ للسلطان : إن كنتم أعرضتم عن الشام وحمايته ، أقمنا له سلطانا يحوطه ويحميه ويستغله في زمن الأمن ، ثم قال : لو قدر إنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه ، واستنصركم أهله ،

---

[1] عمر بن علي البزاز أبو حفص : المصدر السابق ، ص : 63 ، 64.

[2] أبي عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان : حول حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، مكتبة المنار ، ط2 ، مصر ، 2002 ، ص: 22 ، 23.

وجب عليكم النصر ، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه ، وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم ؟؟

وقوى جأشهم ، وضمن لهم النصر هذه الكرة ، فخرجوا إلى الشام وكان الظفر والنصر. ومن ذلك أن الشيخ لم يكتف بالتحريض والتعبئة ، والسعاية للحرب ضد التتار، بل قاتل الشيخ بنفسه فكان في الطليعة ، وكان بطلا رحمه الله ، فقد ألقى بنفسه في الميدان ، في رمضان سنة 702هـ في موقعة شقحب التي جمع فيها التتار جموعهم ، واستعدوا لها بكل قواهم ، والتقى الجمعان ، واشتد القتال ، ألقى بنفسه في المعركة ، وقاتل هو وجماعة من أصحابه ، وكان يهرول بين خطوط المقاتلين في جبهة القتال ، ويدعم الصفوف ، ويشرف على إرسال النجدات ، فلما انتهت الحرب بالنصر، أحاط به قومه ليقبل الزعامة والولاية ، فإذا به يجيب معتذرا عن قبول الحكم والسلطان ، ويقول : إنما أنا رجل ملة لا رجل دولة[1] .

نتيجة الفهم الصحيح والثقافة الواعية :

يحكي الإمام ابن القيم عن فقه الإمام ابن تيمية العميق للإسلام في ترتيب الأولويات فيقول : سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان معي ، فقلت له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء تصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم[2] .

---

[1] أبي عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان : المرجع السابق ، ص : 23 ، 24 .

[2] ياسر عبد الرحمن : المرجع السابق ، ج1 ، ص : 202.

صمونجي بابا (الولي الرباني)

هذه قصة ولي من أولياء الله ، اسمه "حامد آقصرابيلي" ولكنه عرف بين أهالي مدينة "بورصة" باسم "صمونجي بابا" ، لأنه كان يبيع "الصمون" أي الخبز لهم.

ولد في مدينة "قيصري" وسافر في طلب العلم إلى "بلاد الشام" و "تبريز" ووصل إلى "أردبيل" وهي مدينة في شمالي غرب "إيران" اشتهرت بمكتبتها الكبيرة ، وعاشت فترة من الازدهار الثقافي. وهناك التقى الولي والعالم الكبير "علاء الدين الأردبيلي" ولازمه ، وبقي في خدمته سنوات عديدة ، فنهل من علمه ودرج مثله في مدارج التصوف والزهد. ثم رجع وسكن في مدينة "بورصة" ، وكانت آنذاك عاصمة الدولة العثمانية، فقد كان ذلك في عهد السلطان "بايزيد الأول".

قضى "صامونجي بابا" سنوات عديدة من عمره في مدينة "بورصة" يخبز الخبز في فرنه المتواضع في البيت ، ثم يضعه في سلة كبيرة يحملها على ظهره ، ويمشي في الأسواق والأزقة ، وما أن يراه الصبيان حتى يهتفوا : جاء "صامونجي بابا "...جاء "صامونجي بابا". وسرعان ما يتجمعون حوله ، ويبتاعون منه الخبز...كان جميع أطفال وصبيان وأهالي "بورصة" يحبونه ، فوجهه نوراني ، وهو بشوش يحب الأطفال ويلاطفهم ، وخبزه حار، ولذيذ ، ولطيف. وعندما بدأ "السلطان بايزيد" ببناء جامع "ألو جامع" أي "الجامع الكبير" أو "الجامع العظيم" اعتاد عمال البناء شراء الخبز من "صمونجي بابا".

اكتمل بناء هذا الجامع الذي يعد أية من آيات العمارة الإسلامية ، وتعد الآيات الكريمة التي تزينه آية في فن الخط ، وتقرر افتتاحه في صلاة الجمعة.

وفي يوم الجمعة : حضر "السلطان بايزيد" إلى الجامع مع الوزراء والعلماء ، وجمع وفير من أهالي بورصة ، حتى امتلأ هذا الجامع الكبير على سعته ، وعندما حان وقت الخطبة ، التفت السلطان إلى العالم الكبير "أمير سلطان" وكلفه بإلقاء الخطبة[1].

وقف "أمير سلطان" قرب المنبر، وبدأ يجول ببصره في الحضور، وكأنه يفتش عن أحدهم...أجل كان يفتش عن "صمونجي بابا" فهو يعرف قدره وعلمه ، وإن جهله الناس ، واعتقدوا أنه ليس إلا رجلا طيبا يبيع الخبز... وأخيرا وقع بصره عليه... ثم

---

[1] أورخان محمد علي : روائع من التاريخ العثماني ، دار الكلمة للنشر والتوزيع الإسلامية ، ط1، القاهرة ، مصر ، 2006 ، ص : 28 ، 29.

قال بصوت سمعه كل الحضور ، وهو يشير بيده إليه : ليس في هذا الجامع أحق من هذا الرجل من إلقاء هذه الخطبة. دهش الحاضرون من هذا الكلام ، وبدؤوا يتطلعون إلى الجهة التي أشار إليها العالم "أمير سلطان " وأحس "صمونجي بابا " بحرج شديد ، فقد كتم أمره عن الناس طوال هذه السنوات ، فلا يعرفون عنه إلا أنه بائع خبز، وها هو " أمير سلطان " يفاجئه فيكشف أمره للناس.

قام من مكانه مضطرا واتجه إلى المنبر، والأنظار مصوبة إليه ، وقبل أن يصعد المنبر، مال على أذن "سلطان أمير" وهمس له معاتبا : ماذا فعلت يا أخي ؟ لقد كشفتني أمام الناس جميعا. فأجابه "سلطان أمير" بالهمس نفسه : أنت الأجدر بإلقاء هذه الخطبة يا أخي. صعد الولي المتخفي على المنبر، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه ، قرأ " سورة الفاتحة "، وبدأ بتفسير معانيها الكبيرة من سبعة أوجه ، وكانت خطبة ، وتفسيرا رائعا ، أخذ بمجاميع قلوب الحاضرين. ولم يخف العالم الكبير، والمعروف " ملا فناري " الذي كان حاضرا ، وسمع هذه الخطبة التي حيرته وأدهشته وأعجبته ، فقال فيما بعد لأصدقائه :

لقد شاهدنا هذا الرجل ، وتبحره في العلم وفي التفسير ، فالتفسير الأول "للفاتحة " فهمه الجميع ، والتفسير الثاني فهمه البعض ، والتفسير الثالث فهمه القلة والخواص فقط ، أما التفسير الرابع والخامس والسادس والسابع فقد كان فوق طاقة إدراكنا. وانتشر الخبر في أرجاء العاصمة "بورصة " بسرعة ، وعرف الجميع حقيقة هذا الرجل المتواضع الفقير الذي يحمل سلة الخبز على ظهره ، ويتجول في الأسواق و الأزقة ، ويتلاطف مع الأطفال والصبيان... عرفوا أنه عالم كبير، وولي من أولياء الله ، وانتظروا رؤيته ، لكي يقبلوا يديه ويسألوه الدعاء ، ولكنهم لم يروه...أجل لم يروه بعد تلك الخطبة ، فقد رحل هذا الولي عن "بورصة " بعد أن انكشف أمره...ورحل إلى مدينة أخرى لا يعرفه الناس فيها.

توفي رحمة الله عليه في مدينة "آق صراي " ودفن فيها[1] .

[1] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص : 30 ،31.

الشيخ آق شمس الدين (الفاتح المعنوي للقسطنطينية)

هو محمد بن حمزة الدمشقي الرومي ، ارتحل مع والده إلى الروم ، وطلب فنون العلوم ، وتبحر فيها ، وأصبح علما من أعلام الحضارة الإسلامية في عهدها العثماني.
وهو معلم الفاتح ومربيه ، يتصل بنسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، كان مولده في دمشق عام (792هـ - 1389م) حفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره ، ودرس في أماسيا ، ثم في حلب ، ثم في أنقرة ، وتوفي عام 1459م .
درس الشيخ آق شمس الدين للأمير محمد الفاتح العلوم الأساسية في ذلك الزمن ، وهي القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، والفقه ، والعلوم الإسلامية ، واللغات (العربية ، والفارسية ، والتركية) وكذلك في مجال العلوم العلمية ، من الرياضيات، والفلك ، والتاريخ ، والحرب. وكان الشيخ آق ضمن العلماء الذين أشرفوا على السلطان محمد عندما تولى إمارة مغنيسيا ، ليتدرب على إدارة الولاية ، وأصول الحكم. واستطاع الشيخ آق شمس الدين أن يقنع الأمير الصغير ، بأنه هو المقصود بالحديث النبوي : (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش). وعندما أصبح الأمير محمد سلطانا على الدولة العثمانية ، وكان شابا صغير السن ، وجهه شيخه فورا إلى التحرك بجيوشه لتحقيق الحديث النبوي ، فكان له بذلك مساهمة كبيرة في فتح القسطنطينية[1].

هيبة الشيخ آق شمس الدين :

كان السلطان "محمد الفاتح " يكن لأستاذه "آق شمس الدين" مشاعر الحب ، والإجلال ، والتوقير ، ويزوره على الدوام ، حيث يستمع إلى أحاديثه ونصائحه ، ويستفيد من علمه الغزير. وكان أستاذه مهيبا لا يخشى سوى الله ، لذا فإنه عند قدوم السلطان "محمد الفاتح " لزيارته ، لا يقوم له من مجلسه ، ولا يقف له ، أما

---

[1] محمد علي محمد الصلابي: السلطان محمد الفاتح ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط1 ، المنصورة ، مصر، 2008، ص: 114.

عند زيارته للسلطان "محمد الفاتح " فقد كان السلطان يقوم له من مجلسه توقيرا له ، واحتراما و يجلسه بجانبه.

وقد لاحظ ذلك وزراء السلطان وحاشيته ، لذا لم يملك الصدر الأعظم " محمود باشا " من إبداء دهشته للسلطان فقال :

لا أدري يا سلطاني العظيم ، لم تقوم للشيخ "آق شمس الدين "عند زيارته لك ، من دون سائر العلماء و الشيوخ ، في الوقت الذي لا يقوم لك تعظيما عند زيارتك له ؟! .

فأجابه السلطان : أنا أيضا لا أدري السبب...ولكني عندما أراه مقبلا علي ، لا أملك نفسي من القيام له.. أما سائر العلماء والشيوخ ، فإني أراهم يرتجفون من حضوري، وتتلعثم ألسنتهم عندما يتحدثون معي ، في الوقت الذي أجد نفسي أتلعثم عند محادثتي الشيخ "آق شمس الدين "[1].

[1] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص: 48.

السلطان محمد الفاتح (فاتح القسطنطينية)

هو السلطان محمد خان الثاني (1429 م - 1481 م) ، ويعتبر السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان ، يلقب بالفاتح ، وأبي الخيرات ، حكم ما يقارب من ثلاثين عاما ، كانت خيرا وعزة للمسلمين ، تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في 16 محرم عام 855 هـ الموافق لـ 18 فبراير عام 1451 م ، وكان عمره آنذاك 22 سنة ، ولقد امتاز السلطان محمد الفاتح بشخصية فذة ، جمعت بين القوة والعدل ، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء ، وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره ، وميله الشديد لدراسة كتب التاريخ ، مما ساعده فيما بعد على إبراز شخصيته في الإدارة وميادين القتال ، حتى أنه اشتهر أخيرا في التاريخ بلقب محمد الفاتح ، لفتحه القسطنطينية[1].

عدل السلطان محمد الفاتح :

تروي لنا كتب التاريخ : أن أحد غلمان محمد الفاتح ظهر منه بعض الفساد بأدرنة ، فأرسل إليه القاضي بعض الخدم لمنعه فلم يمتنع ، فركب إليه القاضي بنفسه فاعتدى عليه الغلام وضربه ضربا شديدا ، فما إن سمع السلطان الفاتح حتى أخذه الغضب واستطار به ، وأمر بقتل ذلك الغلام لتحقيره نائب الشريعة ، وتشفع الوزراء للغلام لدى السلطان الفاتح فلم يقبل شفاعتهم ، فالتمسوا من المولى محي الدين محمد أن يصلح هذا الأمر لدى السلطان ، ولكن الفاتح أعرض عنه ورد كلامه ، فقال له المولى محي الدين : أن النائب (أي : القاضي) بقيامه عن مجلس القضاء بسبب الغضب سقط عن رتبة القضاء ، فلم يكن هو عند الضرب قاضيا فلم يلزم تحقير الشرع حتى يحل قتله (أي : الغلام)، فسكت السلطان محمد خان. ثم جاء الغلام إلى القسطنطينية فأتى به الوزراء إلى السلطان محمد خان لتقبيل يده شكرا للعفو عنه[2]. فأحضر السلطان محمد خان عصا كبيرة فضربه بنفسه ضربا شديدا حتى مرض الغلام أربعة أشهر فعالوه فبرئ ، ثم صار ذلك الغلام وزيرا

---

[1] محمد علي محمد الصلابي: السلطان محمد الفاتح ، المرجع السابق، ص: 83.

[2] نفسه : ص: 152.

للسلطان بايزيد خان واسمه داود باشا ، وكان يدعوا للسلطان محمد خان ويقول : إن رشدي هذا ما حصل إلا من ضربه[1].

قصة بناء جامع سنان باشا :

بعد أن تم فتح مدينة القسطنطينية ، وضع السلطان محمد الفاتح تعليمات معينة حول القلاع ، والأسوار المحيطة بالمدينة ، ومن هذه التعليمات أوامر مشددة على وجوب سد وغلق جميع أبواب أسوار هذه القلاع بعد أذان المغرب ، وتبقى هذه الأبواب مغلقة حتى أذان الفجر، وعينت مفارز عديدة على هذه القلاع ، لتطبيق هذه الأوامر ، وذلك لدواعي الأمن ، وبذلك كان يمنع أي شخص من دخول المدينة ، أو الخروج منها ضمن هذه الفترة.

كان سنان باشا على رأس إحدى هذه المفارز في القلعة الموجودة في "أون قباني "، وفي أحد الأيام ، كان السلطان محمد الفاتح مع كوكبة من حرسه خارج مدينة اسطنبول "القسطنطينية "، وتأخر في الرجوع إلى المدينة ، إذ عندما وصل إلى باب السور في منطقة "أون قباني "، رأى أن الباب مغلق ، إذ كان أذان المغرب قد أذن قبل مدة. صاح أحد حراس السلطان : سنان باشا... سنان باشا... افتح الباب.

قام سنان باشا من مكانه ، وتطلع إلى تحت... لم يستطع أن يتعرف على أحد ، فقد كان الظلام مخيما... نزل إلى تحت وصاح من خلف باب السور : من أنتم ؟

قال السلطان محمد الفاتح : افتح الباب يا سنان جلبي.

فقال سنان باشا : من أنتم ؟ ولماذا تأخرتم حتى الآن ؟ لم يستطع أن يميز صوت السلطان ، ولم يكن السلطان يفصح عن هويته.

قال السلطان : لا تسأل من نحن...افتح الباب.

احتد سنان باشا : كيف لا أسألكم ؟ ألم تسمعوا بأمر السلطان ؟ كيف أستطيع أن أفتح باب القلعة في هذه الساعة المتأخرة ؟ اذهبوا من هنا ، أو انتظروا حتى أذان الفجر... لا أستطيع مخالفة أمر السلطان ، أم تريدون أن أسمع منه تقريعا بسببكم؟[2]

هنا ضحك السلطان وقال : كلا يا سنان جلبي... لن تسمع تقريعا من السلطان.. إنني

---

[1] محمد علي محمد الصلابي : السلطان محمد الفاتح ، المرجع السابق ، ص : 152.

[2] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص: 45 ، 46.

أتكفل لك بهذا. فقال سنان باشا : لكن من أنت حتى تستطيع أن تكفلني لدى السلطان ؟ أم تحسب نفسك سلطانا ؟ فقال السلطان : أنا السلطان يا سنان جلبي...ألم تعرفني ؟ فوجئ سنان باشا عند سماعه هذا ، وأسرع بفتح الباب وهو يدمدم :اعذرني يا مولاي... لم أعرفكم... ولم أكن أتوقع أن تخالفوا التعليمات التي وضعتموها بأنفسكم يا مولاي.

دخل السلطان من باب السور، ثم ترجل عن جواده ، وضع يده على كتف سنان باشا وقال له : أنت عسكري جيد يا سنان باشا... لقد سررت جدا من التزامك بتعليماتي ، لذا فتمن مني ما تشاء. ذهل سنان باشا من كلام السلطان ، فهاهي كل الأبواب مفتوحة أمامه. يستطيع أن يطلب أي مبلغ ، أو أي منصب... كان السلطان ينظر إليه مبتسما ، منتظرا الجواب منه... لم يتردد سنان باشا طويلا... كلا لن يطلب من السلطان لا مالا ولا جاها... سيطلب منه تحقيق أمله الذي كان يحلم به منذ سنوات : ابني لي يا سلطاني جامعا باسمي... لا أريد منك شيئا آخر... جامعا باسمي.

قبل السلطان محمد الفاتح هذا الرجاء ، وأمر ببناء جامع باسمه.

فإذا قدر لك أن تزور اسطنبول فاسأل عن جامع سنان باشا ، وزر هذا الجامع التاريخي الجميل ، فقد عرفت قصة بنائه ، وبعد انتهاء صلاتك ، ادع لروح سنان باشا رحمه الله[1].

[1] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص: 47.

السلطان بايزيد الثاني (السلطان الورع)

هو بايزيد خان الثاني بن محمد الفاتح ثامن السلاطين العثمانيين، عاش بين عامي 1447 و 1512م[1] كان قوي البنية ، أحدب الأنف ، أسود الشعر، رقيق الطبع ، محبا للعلوم ، مواظبا للدرس ، وشاعرا أديبا ، ورعا تقيا ، يقضي العشرة الأخيرة من شهر رمضان في العبادة والذكر والطاعة ، وكان بارعا في رمي السهام ، ويباشر الحروب بنفسه ، مع أنه كان ميالا للسلام. وكان السلطان بايزيد الثاني متفقها في علم الشريعة الإسلامية ، شغوفا بعلم الفلك. في 25 أبريل 1512 م ترك حكم الدولة لابنه سليم الأول (1512 - 1519م) وذلك بدعم من الجيش ، الذي كان ينظر إليه على أنه الأمل المرتجى في بعث النشاط الحربي للدولة العثمانية بصورة أوسع ، ودفع حركة الفتوحات إلى الأمام ، ولذلك بادر الجيش إلى معارضة والده وتولية ابنه سليم مكانه.

وتوفي السلطان بايزيد الثاني وهو ذاهب إلى ديمتوقة ، فنقل عرشه إلى إسلامبول (اسطنبول) حيث دفن بجوار جامعه الشريف[2].

أول صلاة في جامع بايزيد الثاني:

يعد جامع بايزيد من أكبر و أفخم و أجمل الجوامع الموجودة في اسطنبول ، والساحة القريبة أخذت اسمها منه فهي ساحة بايزيد وتقع جامعة اسطنبول بالقرب من هذا الجامع. باني هذا الجامع هوالسلطان " بايزيد الثاني " ابن السلطان " محمد الفاتح "، وهو والد السلطان " سليم الأول " الملقب بـ "ياووز" أي هو جد السلطان "سليمان القانوني "[3]. كان هذا السلطان تقيا و ورعا ، وهناك قصة تروى حول أول صلاة في هذا الجامع العظيم تدل على ذلك :

---

[1] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص : 52.

[2] محمد علي محمد الصلابي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط1 ، مصر، 2001 ، ص : 174 ، 175.

[3] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص : 54.

عندما أكمل بناء جامع بايزيد وتم فرشه ، جاء يوم افتتاحه بالصلاة فيه ، ولكن من سيقوم بإمامة المصلين في هذه الصلاة ؟ أيؤم الناس الإمام المعين لهذا الجامع ؟ أم شيخ الإسلام ؟ أم أحد العلماء المعروفين ؟ لم يكن أحد يعلم بذلك وكان الجميع في انتظار من يتقدم للصلاة. عندما اصطفت الصفوف وقف إمام الجامع و توجه إلى المصلين قائلا لهم : ليتقدم للإمامة من لم يضطر طوال حياته لقضاء صلاة فرض (أي : من صلى صلوات الفرض في أوقاتها طوال حياته). دهش الحاضرون من هذا الشرط ، وبدأ بعضهم يتطلع لبعض ، وبعد انتظار دقيقة ، أو دقيقتين شاهد المصلون السلطان "بايزيد الثاني " وهو يتقدم للإمامة بكل هدوء ، ثم يكبر لصلاة الجماعة بكل خشوع.

أجل...كان السلطان هو الشخص الوحيد من بين الحاضرين الذي لم تفته أبدا صلاة من صلوات الفرض ، لذا لقبه الشعب بـ " السلطان الولي "[1].

---

[1] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص : 54 ، 55.

العالم العلامة علاء الدين الجمالي

هو علي بن أحمد الرومي ، العالم العلامة ، العامل ، الفاضل ، المولى علاء الدين الجمالي الرومي ، الحنفي . كان من أشهر علماء الدولة العثمانية وفقهائها ، وكان شيخا فاضلا ، يصرف جميع أوقاته في التلاوة ، والعبادة ، والتدريس ، والفتوى ، وكان شديد الورع في فتاويه ، حتى أنه كان يغلق باب داره ويقعد في غرفة له ، فتلقى إليه رقاع الفتاوى فيأخذها ويكتب ثم يدليها ، فعل ذلك لئلا يرى الناس فيميز بينهم في الفتوى ، كما كان الشيخ علاء الدين جريئا في قول الحق ، صادعا به ، أمارا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر، يواجه بذلك كل الناس ، فلا يهاب سلطانا ، ولا يخشى طغيانا.

كانت وفاته في سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة ، رحمه الله تعالى[1].

الشيخ علاء الدين والسلطان سليم :

حدث ذات مرة أن حاسب السلطان سليم الأول حفاظ الخزينة ، فوجد عندهم خللا وتقصيرا، فأمر بقتلهم جميعا ، وكانوا مائة وخمسين رجلا ، فتنبه لذلك المولى علاء الدين فذهب إلى الديوان ولم يكن من عادتهم أن يذهب المفتي إلى الديوان ، تحيروا في الأمر وقالوا : أي شيء دعا المولى إلى المجيء ؟ فقال : أريد أن ألاقي السلطان ولي معه كلام ، فعرضوا أمره على السلطان ، فأمر بدخوله وحده ، فدخل وسلم وجلس وقال : وظيفة أرباب الفتوى أن يحافظوا على آخرة السلطان ، وقد سمعت بأنك أمرت بقتل مائة وخمسين رجلا من أرباب الديوان لا يجوز قتلهم شرعا ، فغضب السلطان سليم وكان صاحب حدة وقال : لا تتعرض لأمر السلطنة وليس ذلك من وظيفتك ، فقال : بل أتعرض لأمر آخرتك وهو من وظيفتي فإن عفوت فلك الجنة وإلا فعليك عقاب عظيم ، فانطفأت فورة غضبه وعفا عن الكل ، ثم تحدث معه ساعة ثم سأله في إعادة مناصبهم فأعادها لهم[2]. وحكي أن السلطان سليم أرسل مرة إليه أمرا بأن يكون قاضي العسكر وقال له : جمعت لك بين الطرفين لأني

---

[1] محمد بن محمد الغزي نجم الدين : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، ج1 ، تحقيق خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ،1997، ص : 268 ، 269.

[2] نفسه : ص : 269 .

تحققت أنك تتكلم بالحق ، فكتب الجمالي في جوابه : وصل إلي كتابك سلمك الله تعالى وأبقاك ، وأمرتني بالقضاء ، وإني أمتثل لأمرك ، إلا أن لي مع الله تعالى عهدا أن لا تصدر عني لفظة (حكمت) ، فأحبه السلطان محبة عظيمة لإعراضه عن المال والجاه والمنصب صيانة لدينه[1] .

[1] محمد بن محمد الغزي نجم الدين : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 269.

خير الدين كججي أفندي (صاحب جامع : كأنني أكلت!!)

أجل !... إنه أغرب اسم لجامع في العالم كله. وإلا فهل هناك جامع اسمه :"كأنني أكلت "!!. هل سمع أحد بمثل هذا الاسم الغريب ؟

ولكن هذا اسم جامع صغير في منطقة "فاتح " في اسطنبول...والاسم باللغة التركية هو: "صانكي يدم "... أي :"كأنني أكلت !!". أو "افترض أنني أكلت "!!.

ووراء هذا الاسم الغريب قصة غريبة ، وطريفة...وقصة فيها عبر كبيرة.

لكي نعرف القصة الحقيقية لهذا الجامع ، دعنا نفتح الصفحة 119 من "الجزء الأول " من كتاب "جوامع اسطنبول " لمؤلفه "تحسين أوز " . لكي نقرأ قصة شخص ورع ، كان يعيش في منطقة "فاتح " واسمه "خير الدين كججي أفندي ".

كان صاحبنا هذا عندما يمشي في السوق ، وتتوق نفسه لشراء فاكهة ، أو لحم ، أو حلوى يقول في نفسه : "صانكي يدم " "كأنني أكلت "، ثم يضع ثمن تلك الفاكهة أو اللحم أو الحلوى في صندوق له. ومضت الأشهر والسنوات ، وهو يكف نفسه عن كل لذائذ الأكل ، ويكتفي بما يقيم أوده فقط ، وكانت النقود تزداد في صندوقه شيئا فشيئا ، حتى استطاع بهذا المبلغ الموفور القيام ببناء مسجد صغير في محلته ، ولما كان أهل المحلة يعرفون قصة هذا الشخص الورع الفقير، وكيف استطاع أن يبني هذا المسجد ، فقد أطلقوا على الجامع اسم جامع "صانكي يدم ".

فإذا تسنى لك زيارة اسطنبول وقصدت زقاق "كرباجي نم "، في منطقة "فاتح " فسترى هناك بين البيوت القديمة هذا الجامع الصغير... جامع "كأنني أكلت " شاهدا على إخلاص وزهد عميقين لشخص فقير، استطاع رغم فقره أن يترك من بعده ثوابا دائما لحياته الأبدية. رحمه الله وأجزل ثوابه. وقد نوه الأستاذ "سعيد النورسي " بهذا السلوك الورع فقال مشيرا إلى هذا الشخص ، وإلى هذه القصة : كلما نادت اللذائذ ، ينبغي الإجابة بـ "كأنني أكلت "، فالذي جعل هذا دستورا له ، كان بوسعه أن يأكل مسجدا سمي "كأنني أكلت " فلم يأكله[1].

---

[1] أورخان محمد علي : المرجع السابق ، ص : 100 ،101.

الإمام المصلح عبد الكريم المغيلي (قاهر اليهود ومذلهم)

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي أبو عبد الله التلمساني ، من مواليد تلمسان وبها نشأ وتعلم ، قال عنه مخلوف: خاتمة الأئمة المحقيقين والعلماء العاملين مع البراعة والتفنن في العلوم والصلاح والدين المتين. اشتهر بمناوأته لليهود وهدمه كنائسهم في توات بالجنوب الجزائري ، وكانت له معهم مشاحنات ، ورحل إلى السودان واجتمع بسلطان كنو ، وكتب له رسالة في أمور السلطنة ، وارتحل إلى بلاد التكرور لنشر أحكام الشرع وقواعده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أخذ عن عبد الرحمن الثعالبي ويحي بن بدير وغيرهما ، وأخذ عنه جماعة كالفقيه أيد أحمد والشيخ العاقب الأنصمني محمد بن عبد الجبار الفيجي وغيرهم[1] .

وقع بينه وبين السيوطي مراسلة في علم المنطق. توفي في توات سنة تسع وتسعمائة.

ويقال إن بعض ملاعين اليهود مشى لقبره فبال عليه فعمي مكانه. وكان رحمه الله ، مقداما على الأمور جسورا جريء القلب ، فصيح اللسان ، محبا في السنة ، جدليا نظارا محققا.

له تآليف منها: البدر المنير في علم التفسير ، مصباح الأرواح في أصول الفلاح ، شرح مختصر خليل ، مفتاح النظر في علم الحديث ، التعريف فيما يجب على الملوك[2] .

قصة طرد الإمام عبد الكريم المغيلي اليهود من جنوب الجزائر :

لقد استغل اليهود ضعف السلطة في المغرب الإسلامي داخليا وخارجيا ، فتواطؤا مع بعض الأمراء على مدّهم بالمال والدعاية لهم ، بل وتوليهم السلطة كما حدث في الدولة المرينية. فعظم شأن اليهود وأحدثوا بيع (معابد) واستعلوا على الإسلام والمسلمين واحتكروا التجارة خاصة منها القوافل في الصحراء. ولما استفحل اليهود ظهر من العلماء المعاصرين الذين عارضوا وحاربوا بشدة هؤلاء اليهود ، وكان أول من أثار هذا الموضوع محمد عبد الكريم المغيلي ، وكان شديد الشكيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان عبد الكريم المغيلي قائما بتلمسان ، وبسبب خلاف وقع

---

[1] محمد بن رزق طرهوني : التفسير والمفسرين في غرب إفريقيا ، ج1 ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1426 هـ ، ص : 320 ، 321.

[2] أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله ، دار الكاتب ، ط2 ، طرابلس ، ليبيا ، 2000 ، ص : 577 ، 578.

بينه وبين ملوك بن زيان ، انتقل إلى مدينة تمنطيط بتوات ، واشتغل بالتدريس ولم يرض عن تصرفات يهود توات الذين سيطروا على الاقتصاد والسياسة فحاربهم ، فخالفه في ذلك قاضي توات عبد الله العصنوتي.

ومن علماء تلمسان وفاس الذين أيدوا المغيلي بعد أن استفتاهم عن هدم بيع (معابد) اليهود بتوات فتوى الحافظ التنسي ، ووصفها ابن مريم بالسداد والصواب والابتعاد عن الهوى ، واتهم من خالفه بالزيغ والتملق يعطفون على مستخدميهم من اليهود. وكتب السنوسي رسالة إلى المغيلي مؤيدا فيها مواقفه وهذا بعض ما جاء في هذه الرسالة : " بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد بلغنا أيها السيد ما حملتكم عليه الغيرة الإيمانية والشجاعة العلمية من تغييركم أحداث اليهود ، أذلهم الله تعالى وأخمد كفرهم ، كنيسة في بلاد المسلمين وأنكم حرضتم أهل تمنطيطة على هدمها فتوفقوا من جهة من عارضكم في ذلك من أهل الأهواء.. إعلم يا أخي إني لم أر من وفق لإجابة هذا المقصد ، وبذل وسعه في تحقيق الحق وشفي غليل أهل الإيمان في هذه المسألة سوى الشيخ الإمام القدوة علم الأعلام الحافظ المحقق أبي عبد الله محمد بن عبد الجليل السني.. فإنه جزاه الله خيرا فقد مدّ في إبانة الحق ونشر أعلامه النفس ، وحقق نقلا وفهما.. فليعوّل أهل تمنطيط وغيرهم من أهل الإسلام على ما أبداه من الحق في ذلك الجواب ، ولينبذوا ما خالفه إن أرادوا الفوز بشرف الإسلام وإعزازه وإصابة وجه الصواب ، والله سبحانه المسؤول أن يوفقنا وسائر المسلمين للتمسك بالحق... " . وممن أجاب المغيلي أيضا أبو عبد الله الرصاع مفتي تونس ، وأبو مهدي عيسى بن أحمد الماواسي فقيه فاس ، وهذا بعض نصه : " الحمد لله وحده.. إن منزلة توات وغيرها من قصور الصحراء ، وهي كلها ديار الإسلام فلا تبتغي المسامحة بإقرار الكنائس فيها للكفار ، وإن قال به جماعة من العلماء ، إلا أن يكون ذلك شرطا لهم في عقود جزيتهم فيوفي لهم مما عوّد لهم في جزيتهم هذا مذهب المدونة ، وهو قول ابن القاسم المعمول به والمعروف له فلا يحسن العدول عنه مع ظهوره ووضوح وجهه ، إلا أن يثبت عند هذا المفتي بتقرير الكنائس المذكورة أن حدوثها كان شرطا مشروطا لليهود في عقد جزيتهم[1] ، كما جر العمل بذلك في كثير من بلدان الإسلام فتصح فتواه ويحسن تقريره لموافقته

[1] بوعمامة فاطمة : اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين 7 - 9 هـ ، 13 - 14 م ، كنوز الحكمة، ط4 ، الأبيار، الجزائر، 2011 ، ص : 236 ، 237.

للمشهور...". وجواب أحمد بن زكري مفتي تلمسان ، والقاضي أبو زكريا يحي بن أبي البركات الغماري وعبد الرحمن بن سبع التلمسانيان.

ولما وصل جواب التنسي ومعه خطاب السنوسي للمغيلي ، أخذ المغيلي وجماعته في تهديم البيع (المعابد) ، ثم قال لهم : من قتل يهوديا فله علي سبعة مثاقيل.وافتى الونشريسي في كتابه المعيار الجزء الثاني ص 232 بوجوب هدم كنائس اليهود بتوات فقال : " الحق الابلج الذي لا شك فيه ولا محيد عنه أن البلاد التواتية وغيرها من قصور الصحراء.. بلاد إسلام باختطاط ، لا تقرر الملاحين اليهود".

واشتد المغيلي بعد ذلك في مطاردة اليهود ، وناظر من خالفه في ذلك وأنشأ منظومة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم و ألف رسالة الذي أطلق عليها الفقيه الشيخ المكي الحاج أحمد الإدريسي عنوان : " مصباح الأرواح في أصول الفلاح " التي تركت أثرا عميقا في علماء فاس. ومنذ موقف المغيلي وصدور الفتوى ضد يهود توات ، اختفى اليهود بهذه المنطقة[1].

---

[1] بوعمامة فاطمة : المرجع السابق ، ص : 237 ، 238.

العالم الأمير الاندونيسي ديبانيكارا

هو العالم المجاهد الصابر الأمير ديبانيكارا (ورد اسمه في بعض الدراسات باسم ديبونيجورو) ، ابن ملك متارام هامنكوبوانا الثالث ، ولد في بلاطه سنة 1785 م ، ولكنه اتصل من مطلع شبابه بأحد الشيوخ العلماء ، فنشأه على العلم والعبادة ، ثم كره إليه هذا العالم الصالح حياة البلاط ، فتركها وذهب إلى دار له منعزلة ، فاعتكف فيها مقبلا على القراءة والدرس ، فحفظ القرآن ونظر في التفاسير، وقرأ التحفة لابن حجر وقرأ كتب الغزالي رحمهما الله ، وأقبل على النظر في التواريخ ، وأخذ نفسه بإنكار المنكر وإزالته بيده ، فاعترضه أبوه (الملك) فأنكر على أبيه ما كان عليه من المنكرات ، وألزمه بإتباع سبيل الهدى ، فلما خلا العرش بوفاة أبيه وأرادوه عليه ، رفضه أشد الرفض ، لأنه لم يرى نفسه أهلا لحمل أعباء الحكم.

ولما اشتد عسف الهولنديين وظلمهم لأبناء البلاد الذين كانوا يدعونهم الأقزام من شدة احتقارهم لهم ، رأى الجهاد واجبا عليه ، فنشر رايته ودعا إليه ، وكان ابن ثلاثين سنة ذلك الوقت ، وبدأت المعارك بينه وبين الهولنديين في 20 جويلية 1824م واستمرت خمس سنوات كان النصر له في جميعها ، وكان قائدا بارعا ، وفارسا لا يشق له غبار ، وقتل من الأعداء خمسة عشر ألف ، ثمانية ألاف منهم من الهولنديين ، وعجزت عنه جيوش هولندا في المستعمرات ، فاستنجدوا بأوربا فأنجدتهم بقوة هائلة كسرها كلها ، فأثاروا عليه الناس وجعلوا لمن جاء به حيا أو ميتا مكافأة ضخمة فما نفعهم ذلك شيئا ، بل زاد التفاف الناس حوله وتعلقهم به. فلما ضاقت بهم السبل عمدوا إلى الغدر، فأعلنوا الرغبة في الإستجابة لمطالب الأمير ودعوه إلى المفاوضة ، فلما جاء في شهر رمضان 8 فبراير1830م ، قبضوا عليه وأسروه ولم يكونوا كراما في أسره ، ولا نبلاء في ظفرهم ، وأي نبل يأتي من غادر ؟ فلم يرضوا منه ما عرضه عليهم من الانقطاع للعلم والتعليم ، ونفوه إلى أقصى الجزر، فبقي فيها سجينا منفيا إلى 8 فبراير1855م أي ربع قرن كامل لا ينقص يوما ولا يزيد يوما[1] .

---

[1] علي الطنطاوي : صور من الشرق في اندونيسيا ، دار المنارة للنشر و التوزيع ، ط1 ، جدة ، السعودية ،1992، ص : 114، 115.

وكان الأمير ديبانيكارا في شبابه ، وفي كهولته ، وفي ملكه ، وفي سجنه ، مثالا كاملا للعالم العامل ، وكان يبدأ بنفسه وأهله في كل خير يدعوا إليه ، لما خرج إلى الجهاد قال لزوجته : إذهبي على بركة الله وفرقي كل ما نملك في أسر المجاهدين ، فأطاعت المرأة الوفية الصالحة أمر زوجها ، وبدأت بحليها وثيابها فقسمتها على زوجات المجاهدين. ولما خرج أحرق الهولنديون داره ، فرآها من بعيد تتوهج نارها تأكل ماله وفرشه ، وكتبه فقال لعمه : أنظر يا عم إن منزلنا يحترق لم يبق لنا على ظهر الأرض منزل ، فلنتخذ منزلا من الجنة ، ومشى رحمه الله يدفع دمه ثمنا لذلك المنزل[1].

[1] علي الطنطاوي : المرجع السابق ، ص: 115.

الشيخ العلامة سعيد الحلبي

هو سعيد بن حسن بن أحمد ، أبو عثمان الحلبي ، فقيه الشام في عصره ، حنفي ، ولد ونشأ في حلب ، واستوطن دمشق عام 1227هـ وكان من تلاميذه فيها محمد أمين ابن عابدين ، وتوفي بها سنة 1259هـ جمع خليل بن عبد الرحمن العمادي إجازاته في ثبت سماه " عماد الإسناد في إجازات الأستاذ " في خزانة الكتاني بالمغرب ، وعليه خط الحلبي[1].

إن الذي يمد رجله لا يمد يده :

دخل إبراهيم باشا ابن محمد علي حاكم مصر المسجد الأموي في وقت كان فيه الشيخ سعيد الحلبي يلقي درسا في المصلين ، ومر إبراهيم باشا من جانب الشيخ وكان مادا رجله فلم يحركها ، ولم يبدل جلسته ، فاستاء إبراهيم باشا ، واغتاظ غيظا شديدا ، وخرج من المسجد وقد أضمر شرا بالشيخ. وما أن وصل قصره ، حتى حف به المنافقون من كل جانب يزينون له الفتك بالشيخ الذي تحدى جبروته وسلطانه ، ومازالوا يؤلبونه حتى أمر بإحضار الشيخ مكبلا بالسلاسل.

وما كاد الجند يتحركون لجلب الشيخ ، حتى أعاد إبراهيم باشا فغير رأيه ، فقد كان يعلم أن أي إساءة للشيخ ، ستفتح له أبوابا من المشاكل ، لا قبل له بإغلاقها.

وهداه تفكيره إلى طريقة أخرى ينتقم بها من الشيخ ، طريقة الإغراء بالمال ، فإذا قبله الشيخ ، فكأنما يضرب عصفورين بحجر واحد ، يضمن ولاءه ، ويسقط هيبته في نفوس المسلمين ، فلا يبقى له تأثير عليهم.

وأسرع إبراهيم باشا ، فأرسل إلى الشيخ ألف ليرة ذهبية ، وهو مبلغ يسيل له اللعاب في تلك الأيام ، وطلب من وزيره أن يعطي المال للشيخ على مرأى ومسمع من تلاميذه ومريديه[2]. وانطلق الوزير بالمال إلى المسجد ، واقترب من الشيخ وهو يلقي درسه ، فألقى السلام وقال للشيخ بصوت عال سمعه كل من حول الشيخ :

هذه ألف ليرة ذهبية يرى مولانا الباشا أن تستعين بها على أمرك.

[1] خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج2 ، دار العلم للملايين ، ط 15 ، بيروت ، لبنان، 2002، ص: 93.

[2] ياسر عبد الرحمن : المرجع السابق ، ج1 ، ص : 243 ، 244.

ونظر الشيخ نظرة إشفاق نحو الوزير، وقال له بهدوء وسكينة: يا بني ، عد بنقود سيدك ، وردها إليه وقل له: إن الذي يمد رجله لا يمد يده[1] .

[1] ياسر عبد الرحمن: المرجع السابق ، ج1 ، ص : 244.

الشيخ العلامة حسن العدوي

هو الشيخ حسن العدوي الحمزاوي ، ولد سنة 1221هـ - 1806م بعدوة ، من قرى مصر، وحفظ بها القرآن ، ثم التحق بالأزهر، وأخذ العلم عن الشيخ الأمير الصغير، والشيخ أحمد المعروف بمنة الله ، والشيخ القويسني ، شيخ الأزهر، والشيخ مصطفى بن رمضان البرلسي البولاقي (ت 1226هـ) ، وجلس للتدريس سنة 1242هـ وانتفع به الطلبة ، وممن روى عنه من التلامذة : محمد فالح بن محمد الظاهري (ت 1328هـ) وأحمد بن محمد بن أحمد الحضراوي المكي (ت 1327هـ).

اشتهر بحفظ السنة وسير الصالحين ، مع كرم زائد ، وأخلاق زكية ، وكان يسعى في مصالح الطلبة وتنفيس الكربات عنهم ، وكان الأمراء يكرمونه ، ويقبلون شفاعته وبنى مسجدين : الأول ببلده ، والثاني بجوار مسجد الإمام الحسين بالقاهرة. توفي في شهر رمضان سنة 1303هـ - 1885م ودفن بمسجده ، بجوار المشهد الحسيني بالقاهرة. ومن مؤلفاته : " النور الساري من فيض صحيح البخاري " و " تبصرة القضاة والإخوان في حكم وضع اليد في الصلاة " و " النفحات الشاذلية في شرح البردة " و " مشارق الأنوار "[1].

الشيخ العدوي أمام السلطان " ذكر دينه ونسي دنياه " :

عند ما زار السلطان العثماني عبد العزيز مصر في عهد إسماعيل باشا كان إسماعيل باشا حفيا بالزيارة ، لأنها كانت جزءا من برنامجه للحصول على لقب خديوي ، مع عدة امتيازات في نظام الحكم بمصر، وكان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة العلماء في السراي ، ولما كانت للمقابلة السنية تقاليد ، منها أن ينحني الداخل إلى الأرض ، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام ، فقد كان حتما على رجال السراي أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدة أيام ، كي لا يخطئوا في حضرة السلطان ، وعندما حان الموعد ، دخل السادة العلماء الأجلاء فنسوا دينهم واشتروا به دنياهم ، وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات ، وخرجوا موجهين وجوههم إلى الخليفة ، كما أمرهم رجال التشريفات ،

---

[1] يوسف بن عبد الرحمن : نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر وبذيله عقد الجواهر في علماء الربع الأول من القرن الخامس ، دار المعرفة ، ط1 ، بيروت ، 2006 ، ص : 345.

إلا عالما واحدا هو الشيخ حسن العدوي ، ذكر دينه ونسي دنياه ، واستحضر في قلبه أن لا عزة إلا لله ، ودخل مرفوع الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار، وواجه الخليفة بتحية الإسلام : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ، وابتدره بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالم الحاكم ، دعاه إلى تقوى الله ، والخوف من عذابه والعدل والرحمة بين رعاياه ، فلما انتهى سلم ، وخرج مرفوع الرأس. واسقط في يد الخديوي ورجال السراي ، وظنوا أن الأمر كله انقلب عليهم ، وأن السلطان لابد غاضب ، فضاعت تلك الجهود التي بذلوا، والآمال التي نسجوا ، ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سدى ، فلا بد أن تصدع القلوب قوية حارة ، وهكذا كان ، فقال السلطان : ليس عندكم إلا هذا العالم ، وخلع عليه دون سواه[1].

الشيخ العدوي أمام المحكمة " لم يعد جديرا بأن يحكمنا ":

كان الشيخ الأزهري حسن العدوي أحد الذين شاركوا في الثورة العرابية ، فلما حلت الهزيمة وقبض على عرابي والعرابين ، كان العدوي واحدا من الذين قدموا للمحاكمة أمام المحكمة التي كانت مؤلّفة من لفيف من الباشوات ، ومن رجال الخديوي. ووقف الشيخ - الذي قارب سنّ الثمانين - أمام المحكمة ، وسأله رئيسها إسماعيل باشا أيوب بصوت غليظ جافّ : هل وقعت باسمك ، أو ختمت بخاتمك قرارا يقضي أن أفندينا المعظم سمو الخديوي توفيق باشا يستحق العزل ؟ وإذا بالشيخ الطاعن في السن يستعيد حمية الشباب وحماسته ، فنظر إلى أيوب باشا نظرة ثابتة حادة ، واتكأ بذراعيه على منضدة أمامه ، وقال : أيها الباشا ، إنني لم أرى الورقة التي تتحدث عنها ، ولهذا فلن أجيب على سؤالك عما إذا كنت قد وقعتها ، ولكنني أقول لك ما يأتي : إنه إذا أحضرت لي الآن ورقة تحتوي على مثل هذا المعنى الذي ذكرته ، فإنني لن أتأخر عن توقيعها باسمي وأختمها بخاتمي في حضورك الآن أيها الباشا. ونظر الشيخ إلى أعضاء المحكمة قائلا : إذا كنتم مسلمين فهل تستطيعون أن تنكروا أن توفيق باشا - وقد خان بلاده ، وذهب إلى الإنجليز وانظم إليهم - لم يعد جديرا بأن يكون حاكما لنا واصفّر وجه الباشا رئيس المحكمة ، الذي كان يظنّ أنه يخيف المحكومين ، ولم ينطق بكلمة واحدة يردّ بها

---

[1] سيد بن حسين العفاني : صلاح الأمة في علو الهمة ، ج3 ، مؤسسة الرسالة - دار العفاني ، ط1، القاهرة ، 1997 ، ص : 281.

على الرجل المسنّ الجريء ، وأومأ إلى حراس المحكمة أن يأخذوه ويخرجوا به من قاعة المحكمة ، ثم نقلوه إلى قريته ، واعتقلوه فيها[1] .

[1] سيد بن حسين العفاني : صلاح الأمة في علو الهمة ، المرجع السابق ، ج3 ، ص : 282 ، 283.

الشيخ عز الدين القسام (شيخ المجاهدين في فلسطين)

هو الشيخ محمد عز الدين عبد القادر القسام ، من مواليد بلدة جبلة في سوريا عام 1871 م نشأ في بيئة عربية إسلامية ، درس بالأزهر الشريف بعد أن بلغ الرابعة عشرة من عمره ، وتخرج منه سنة 1909 م وعاد إلى بلدته جبلة ، حيث عين هناك مدرسا للجامع الكبير. جاهد الفرنسيين الذين احتلوا سوريا ولبنان إلى جانب عمر البيطار، صدر عليه حكم الإعدام من الديوان العرفي في اللاذقية بعد توقف الثورة. رحل إلى فلسطين ، حيث استقر في ضاحية الياجور قرب حيفا ، وكان معه الشيخان محمد الحنفي وعلي الحاج عبيد ، تنبه إلى مؤامرة أوروبا واليهود لتهويد فلسطين ، فانضم إلى أسرة المدرسة الإسلامية ، حيث عمل مدرسا فيها ، لتكون وسيلته للاتصال بالطلبة ، وأوليائهم ، والمدرسين ، ثم انضم إلى جمعية الشبان المسلمين في حيفا ، حيث انتخب رئيسا لها عام 1928 م ولقد كان انتسابه لهذه الجمعية تغطية لأعماله السرية ، وإعداده للثورة ، كما أصبح خطيبا لجامع الاستقلال ، ومأذونا شرعيا ، وهكذا جمع الشيخ القسام عدة وظائف ، معلم في مدرسة ، وواعظ في مسجد ، و مأذون للأنكحة ، ورئيس لجمعية ، فضمن لنفسه شرعية الاتصال بطبقات الأمة كافة. بدأ جهاده بتأليف القلوب ، ونشر المحبة ، وإزالة الخصومات ، ونبذ الأحقاد ، وتعميق الوازع الديني في نفوس الناس ، وتربيتهم على العقيدة الإسلامية ، ثم توعية الجيل والأمة إلى مخاطر الهجرة ، وبيع الأراضي ، ومؤامرات الحكومة البريطانية ، وذلك أثناء تدريسه طلابه في المدرسة ، وإرشاده المواطنين في خطبه ودروسه في المسجد ، وعكف على تكوين قاعدة إيمانية صلبة من المناضلين ، لتكون مستعدة للقتال ، وقد قام بتأسيس مدرسة ليلية لتعليم الأميين فكانت أيضا مكانا لتجميع الناس ، وبث فكرة الجهاد فيهم.

وكان الشيخ عز الدين القسام واسع العلم بالعلوم الشرعية ، الفقه ، والحديث ، والتفسير، والأصول ، موصوفا بحسن السيرة والمعاشرة ، محدثا لبقا ، وخطيبا بارعا، قوي الحجة ، وكانت أقواله توافق أفعاله وحياته[1].

استشهد الشيخ عز الدين القسام في معركة يعبد في 20 نوفمبر1935 وترك رحمه

---

[1] جمال عبد الهادي : الطريق إلى بيت المقدس ، دار الوفاء ، ج2 ، ط3 ، المنصورة ، مصر، 2001 ، ص : 89 ، 90.

الله ثروة عظيمة أهداها إلى الأمة ، وهو المنهج والقدوة ، المنهج الصالح لقتال الأعداء ودحرهم ، والقدوة العملية في الزهد في الدنيا ، وبذل النفس قي سبيل الله وإعلاء كلمة المسلمين في أوطانهم[1].

جرأة الشيخ عز الدين القسام في قول الحق :

كان الشيخ عز الدين القسام جريئا في قول الحق ، لا يخاف في الله لومة لائم ، ولا يعرف المهادنة في قضية تتعلق بالإسلام ، وتعاليم الإسلام ، فكان يجهر بالدعوة إلى الجهاد ، والتضحية بالنفس والمال لطرد الأعداء ، وإنقاذ الوطن ، مع وجود سلطات الانتداب الرهيبة ، وكان يقرر من على المنبر أن الجهاد فريضة على المسلمين ، وأنه لا مفر من محاربة الانكليز وأعوانهم ، وكان يطلب من الناس جهرا شراء السلاح والتدرب عليه. واستدعته سلطات الانتداب مرة للتحقيق حول تركيزه على آية : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) الأنفال [60] ، في إحدى خطبه ، فأجاب القسام ، بأن الآية الكريمة جزء لا يتجزأ من القرآن ، وأن واجبه يحتم عليه شرح الآية ، في ظل الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد. وطلب مرة من المصلين أن يقاوموا الأعداء ، فوقف أحد المصلين وسأله : بماذا نقاوم الأعداء ونحن لا نملك سلاحا ؟ فأجاب الشيخ : بقتلهم وأخذ السلاح منهم.

وروى الشيخ أحمد السعدي رئيس بلدية جنين أن القسام ، رفع يوما مسدسا أمام المصلين ، وكان قد دبر طريقة لإخفائه ، وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقتن مثل هذا. وسمع أحدهم القسام في إحدى خطبه يقول : أيها المسلمون ! لقد علمتكم دينكم ، حتى صار كل واحد منكم عالما ، وعلمتكم أمور وطنكم ، حتى وجب عليكم الجهاد ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

وكان إذا تحدث في دروسه عن شخصية مجاهدة ، ختم حديثه بالدعاء " ربنا ارزقنا الشهادة في سبيلك "[2].

---

[1] محمد محمد حسن شراب : عز الدين القسام شيخ المجاهدين في فلسطين ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 2000، ص : 203.

[2] نفسه : ص : 198 ، 199.

الشيخ عبد الحميد بن باديس (العالم الرباني والزعيم السياسي)

هو عبد الحميد بن باديس بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس ، ولد في مدينة قسنطينة في عام 1889م ، وجهه والده إلى التعليم الإسلامي ، فحفظ القرآن الكريم، ثم تلقى العلم على يد علماء أفاضل في قسنطينة قبل أن يتجه إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة ، الذي نال منه شهادة التطويع ، ليعود إلى الجزائر للتعليم في مساجدها ، ولم يمض عليه سوى شهور حتى توجه إلى الحج ، وهناك التقى بالعلماء المسلمين في مكة والمدينة ، ومصر، وكانت الفرصة مواتية له ليستطلع أحوال العالم الإسلامي ، لأن علماء المدينة كانوا يمثلون دولا إسلامية كثيرة، بل معظم البلاد الإسلامية.

وفي أثناء وجوده في المدينة ، أشار عليه شيخه حمدان الونيسي أن يبقى في المدينة المنورة ، ولكن الشيخ حسين الهندي عارض هذا الرأي ، ونصحه بالعودة إلى الجزائر ليقاوم الاستعمار الفرنسي ، وهنا التقى بالإبراهيمي ، رفيق دربه ، وكفاحه ، فأمضيا ثلاثة أشهر، يتباحثان حول خطة العمل التي سوف ينتهجانها حين العودة إلى الوطن. وعاد الشيخ عبد الحميد إلى الجزائر، وبدأ حركته العلمية في مساجد قسنطينة مهتما بالكيف لا بالكم ، وكان عمله يخضع لتخطيط بليغ ، فهو حين يعلم الشباب ، يصطفي بعضهم ، ويشجعهم على مواصلة تعليمهم في الزيتونة ، ولم يكن تلاميذه من منطقة واحدة ، بل كان خلال رحلاته في القطر الجزائري ، يدعوا شيوخ القبائل والزوايا ، إلى إرسال أبنائهم للدراسة عليه في الجامع الأخضر، وبهذا استطاع أن يوصل دعوته إلى جميع أرجاء الجزائر.

وبعد بضع سنوات على بدأ عمله التعليمي ، أضاف إلى التعليم نشاطا آخر، ووسيلة أخرى ، ألا وهي الصحافة ، فشارك أولا في الكتابة في النجاح ، ثم سعى إلى تأسيس صحيفة هي المنتقد ، مهاجما من خلالها ، العقائد الفاسدة ، والبدع والخرافات ، داعيا إلى العودة إلى الكتاب والسنة ، موضحا للشعب الجزائري أن له كيانا موجودا ، وأوقفت المنتقد بعد ثمانية عشر عددا ، فأنشأ جريدة أخرى.[1]

---

[1] مازن صلاح مطبقاتي : عبد الحميد بن باديس ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1996 ، ص : 179 ، 180.

هي الشهاب ، جعلها منبرا للدعوة إلى العقيدة الصحيحة وقد كان وجود هذه الصحف ، إعداد للدعاة للعمل المنظم ، بل إنه من على منبرها دعا إلى الاجتماع ، و إلى تكوين رابطة بين العلماء. ومن ذكاء ابن باديس ، أن حث أصحاب الأقلام ، على الدعوة إلى إنشاء جمعية أو حزب إصلاحي ، فكان ما أراد ، وتأسست جمعية العلماء ، وانتخب رئيسا لها ، فقادها في وجه الطغيان الفرنسي ، والحرب السافرة للإسلام ومعتقداته[1] .

بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939 م وضعت السلطات الاستعمارية الإمام عبد الحميد بن باديس في الإقامة الجبرية ومنعته من القيام بأي نشاط ، ومع بداية سنة 1940 بدأت حالته الصحية تزداد تدهورا ، وفي يوم الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ الموافق لـ 16 ابريل 1940م انتقلت روحه الطاهرة إلى المولى عزوجل ، رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جناته[2] .

علم الإمام ابن باديس :

تهيأ للشيخ العلم منذ صغره ، فقد حباه الله قدرة عقلية على التعلم والتفقه ، وكان نبوغه ونباهته وتفوقه باد عليه في صغره ، فألحقه أبوه في وقت مبكر بالكتاب حتى حفظ القرآن وهو في الثالثة عشر من عمره ، وألحقه بالشيخ الونيسي ليتعلم العلوم الشرعية والعربية ، ثم وجهه لإكمال تعليمه في جامع الزيتونة بتونس ، وقد كان الطالب الجزائري الوحيد في دفعة تلك السنة التي تخرج فيها ، ومن دلائل نبوغه أن الدراسة في الزيتونة تستمر لمدة سبع سنوات ثم يتخرج الطالب بعد اجتياز الامتحان، إلا أن الشيخ قضاها في ثلاث سنوات لنبوغه وتمكنه العلمي الذي ظهر لإدارة الجامع بعد امتحان القبول[3] .

ويروي أحد تلاميذه عنه ما يدل على اجتهاده وحرصه على تحصيل العلم ، قال ابن باديس : كنت أسهر الليالي للدراسة والمطالعة ، مستعينا ببعض المنبهات ، لكني حين

---

[1] مازن صلاح مطبقاتي : المرجع السابق ، ص : 181.

[2] رابح عدالة : عبد الحميد بن باديس ، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ط) ، قسنطينة ، الجزائر ، 2012 ، ص : 30.

[3] مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان : التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد بن باديس ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، (د.ط) ، الرياض ، 1435 هـ ، ص : 61 ،62.

أحس أن النوم يغالبني ولم تعد المنبهات تنفع في دفعه عمدت إلى مطرح أضعه على الأرض ، وأضع مرفقي على الأرض أو أحدهما ، فيلامس الآجر باردا ، فأستيقظ ، وأجدد مطالعتي أو مراجعتي حتى أفرغ منها. وهذا مما يدل على محافظته على وقته واهتمامه به وتنظيمه له ، وهي صفة عرف بها ابن باديس في حياته العلمية والعملية ، وسيرته كلها شاهدة على ذلك.

وتهيأ له في جامع الزيتونة من العلماء الأعلام ما أسهم في تكوينه العلمي ، كالطاهر بن عاشور ومحمد النخلي ومحمد الخضر حسين وغيرهم. وقد أعجب به شيوخه وأساتذته ومن اتصل بهم من أهل العلم فأجازوه وقدموه للتدريس ، وفي قسنطينة كان المرجع غير الرسمي في الفتوى ، وانقطع للطلبة والعامة يعلمهم ويفقههم ويربيهم.

قال عنه العلامة ابن عاشور : العالم الفاضل ، نبعة العلم والمجادة ، ومرتع التحرير والإجادة. وقد وصفه جمع من علماء الجزائر وتونس الذين عرفوه بـ (بالعالم ، العلامة ، الجهبذ ، المدقق ، المحرر ، الجامع ، أحد الأئمة الأعلام ، عالم الديار القسنطينية ، رئيس علماء قسنطينة).

ومما برع فيه من العلم : التفسير ، فقد عني به الشيخ عناية فائقة ، نبعت من يقينه بأن القرآن مصدر الهداية والإصلاح ، وقد بدأ بدروسه في التفسير منذ عاد إلى الجزائر سنة (1332هـ - 1914م) ، وختمها بعد خمسة وعشرين عاما في 14 - 5 - 1357 هـ – 1938 م).

وقد عد الشيخ إماما في التفسير ، كما قال البشير الإبراهيمي رحمه الله بعدما بين طرق فهم القرآن عند العلماء ، ومدح طريقة محمد عبده ، قال : فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر ، بل بالشمال الإفريقي : عبد الحميد بن باديس [1].

---

[1] مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان : المرجع السابق ، ص : 62 ،63.

هيبة وتواضع الشيخ ابن باديس :

كانت هيبة الإيمان تتحف الشيخ عبد الحميد ابن باديس يدركها من عرفه ومن لم يعرفه ، يحكي أحد تلاميذ الشيخ : أنه كان يسير في شوارع قسنطينة فلقيه أحد كبار الموظفين الفرنسيين ورئيس تحرير جريدة "لاديباش كونستنتين " فارتبك واضطرب ، وحتى يزيل اضطرابه أسرع فتقدم من الشيخ ابن باديس قائلا : أنت رجل عظيم ، أعرفك بنفسي ، أنا لوسياني

وهناك قول للشيخ البشير الإبراهيمي يؤكد هذه الهيبة : فقد كان ابن باديس يذهب إلى وهران لزيارة الإبراهيمي في مدينته وبين تلاميذه ، والإبراهيمي معروف بسعة علمه وقدرته العجيبة على الحفظ ، فكان الإبراهيمي يرى انقياد الناس لابن باديس فلا يتمالك نفسه حتى يقول : ما أقوى نفوذ هذا الرجل !. ويضيف تلميذه الذي عاش في غرفة ملاصقة لغرفة الشيخ ابن باديس خمس سنوات وهو الشيخ محمد الصالح رمضان : إن للشيخ عبد الحميد ابن باديس قوة روحية خارقة سببها الجانب الروحي في حياته.

ورغم هذه الهيبة العظيمة إلا أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس كان متواضعا رحمه الله ، فقد كان أليفا مألوفا ، وقد برزت صفة التواضع في حياته العلمية، فيقول أحد زملائه : أنه كان في زيارة لوهران ، وعرضت قضية من القضايا فقال فيها بغير القول المشهور ، ولما عاد إلى قسنطينة واستشار مراجعه تبين له أنه لم يكن على صواب ، فكتب في الشهاب : إنني كنت مع فلان وفلان وتكلمنا في قضية ما، والحق ما قاله فلان وهو القول المشهور. ويقول الشيخ حمزة بوكوشة راوي هذه القصة : سألته لماذا كتبت في الجريدة وكان يكفيك لو بعثت رسالة إلى الشخص الذي اختلفت معه ؟ فقال رحمه الله : أردت أن يكون لكم درسا في الرجوع للحق وأضاف : تركت لكم مثلا أنه إذا كان الإنسان عالما يجب عليه أن يعيش للعلم . ومثال آخر على تواضعه أن أحد معاصريه قال : لم أستطع طوال عمري أن أسبقه بالسلام[1] .

---

[1] مازن صلاح مطبقاتي : المرجع السابق ، ص : 37 - 38.

حلم وسماحة الشيخ ابن باديس :

مما تميز به الشيخ حسن خلقه وتعامله وحلمه وتسامحه مع الموافق والمخالف ، فله نفس تتسامى عن الدنايا والصغائر والأحقاد والأطماع الشخصية ، ويرى أنه يدور مع الحق نصرة له ، لا نصرة للذات ، وأن الاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام ، ولذا تجده مع شدة ردوده على بعض المخالفين والأعداء يعترف لهم بفضل ويقدم لهم واجب الشكر. ومن مواقفه التي تدل على تلك النفس الزكية الحليمة المتسامحة ما فعله مع المفتي ابن الموهوب الذي أمر أحد أتباعه أن يشوش على الشيخ ، فجاء وأطبق الكتاب ، وأطفأ الشموع ، وكادت تقع فتنة بينه وبين الطلاب ، لكن ابن باديس هدأ طلابه ، ومنعهم من أذيته ، وصرفهم. وكذلك موقفه مع الجاني الذي حاول قتله بتدبير من الفرقة العلوية ، ولما جاءت النجدة إلى الشيخ منعهم من الفتك به ، كما عفا عنه في المحكمة ، وفيها قال تلميذه محمد العيد آل خليفة قصيدته المشهورة منها :

حمتك يد المولى وكنت بها أولى	فيا لك من شيخ حمته يد المولى
فيا لوضيع النفس كيف تطاولت	به نفسه حتى أسر لك القتلا
فوافتك بالنصر العزيز طلائع	مباركة تترى من الملأ الأعلى
وإن أنس لا أنسى الذين تظافروا	على الفتك بالجاني فقلت لهم مهلا[1]

جرأة وشجاعة الشيخ عبد الحميد بن باديس :

اشتهر الشيخ عبد الحميد بن باديس بقوة الإيمان ، ورسوخ العقيدة ، وشجاعة القلب ، وفصاحة اللسان ، وكان إذا تكلم تدفق كالسيل الجارف من قريحة قوية ، لا يعرف التردد ولا الخوف ، فيدهش السامع ، ويبكم المعترض ، فإذا واجه إنسانا ما - مهما كانت شجاعة هذا الإنسان - يصيبه العي ، وينتابه الخوف ، أمام مهابته .. وكم من موقف أمام جبابرة الإدارة الفرنسية عندما يساق إليهم متهما بعداء الاستعمار الفرنسي ، فيسكتهم بحجته ، ويخرسهم بمنطقه ويسمعهم مالا يرضون سماعه. وقد أعلن على الملأ في صيحة مدوية :

[1] مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان : المرجع السابق ، ص : 69 ، 70.

(إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست فرنسا ، ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت ، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ، في لغتها ، وفي أخلاقها ، وعنصرها ، ودينها ، لا تريد أن تندمج ، ولها وطن معين هو الوطن الجزائري). بهذه الصراحة وهذه الجرأة كان يعلن عبد الحميد لجبابرة فرنسا يوم كان ذكر (الوطن) بالاستقلال عن فرنسا جواز دخول إلى السجن ..

وكان عبد الحميد يقف أمام جبابرة فرنسا فيواجههم بالحقيقة ، ويعرب لهم عن آرائه الحرة ، وخلجاته النفسية في لهجة المؤمن القوي ، والوطني الصادق ، الذي يرى أن العذاب في سبيل الله والوطن راحة ، وأن الموت في سبيلها شهادة[1].

ومواقفه التي تعكس اعتزازه بنفسه ووطنه ودينه كثيرة حسبنا أن نورد هنا بعضها بإيجاز : لما استدعى المندوب السامي الفرنسي الشيخ عبد الحميد بن باديس ، قال له : إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار وإلا أرسلت جنودا لإغلاق المسجد الذي تنفث فيه هذه السموم ضدنا وإخماد أصواتك المنكرة. فأجابه الشيخ عبد الحميد بن باديس : أيها الحاكم إنك لا تستطيع ذلك. فاستشاط الحاكم الفرنسي غضبا وقال : كيف لا أستطيع ؟ قال الشيخ : إذا كنت في عرس علمت المحتفلين ، وإذا كنت في مأتم وعظت المعزين ، وإن جلست في قطار علمت المسافرين ، وإن دخلت السجن أرشدت المسجونين ، وإن قتلتموني التهبت مشاعر المواطنين ، فخير لك أيها الحاكم ألا تتعرض لهذه الأمة في دينها ولغتها[2].

عندما سافر الشيخ عبد الحميد مع لجنة وطنية إلى باريس سنة 1936م ليطلب من حكومة (دلادييه) تنفيذ مرسوم 27 سبتمبر سنة 1907م القاضي بفصل الدين عن الدولة الذي طبق على الأديان الأخرى ما عدا الدين الإسلامي ، وجرت مناقشات في هذا الغرض (دلادييه) الشيخ عبد الحميد بقوله : (لدى فرنسا مدافع طويلة).

ولكن عبد الحميد لم يسكت أمام هذا التهديد لأنه في قلب فرنسا ، وفي مجلس رئيس حكومتها ، بل رد عليه في شجاعة وقوة قال له : (توجد عندنا مدافع أطول...).

---

[1] محمد الصالح الصديق : شخصيات ومواقف ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، (د.ط) ، شارع زيغود يوسف ، الجزائر ، 1992 ، ص : 295.

[2] سيد بن حسين العفاني : المرجع السابق ، ج1 ، ص: 480 ،481.

ولما تساءل رئيس الحكومة الفرنسية عن هذه المدافع الطويلة التي يمتلكها الجزائريون ، أجابه ابن باديس : (إنها مدافع الله) [1].

وعندما وقعت الحوادث الدموية بين المسلمين واليهود بقسنطينة سنة 1934م والتي قتل فيها اثنان وعشرون من اليهود واثنان من المسلمين ، تأزم الوضع وكاد يتحول إلى حرب بين الطرفين ، فخرج الشيخ عبد الحميد بنفسه يجوب الشوارع مع بعض النواب المسلمين داعيا إلى التهدئة ، مبصرا بعواقب العنف ، وبقي كذلك حتى منتصف الليل بعد أن اطمأن إلى استتاب الأمن بين الطرفين ، دون أن يخشى رصاص اليهود..

ولما حلت الذكرى المقيتة ، ذكرى مرور قرن على احتلال مدينة قسنطينة في شهر سبتمبر سنة 1937م واعتزم المستعمرون أن يقيموا الحفلات الصاخبة بهذه المناسبة غير مبالين بعواطف المسلمين ، جمع الشيخ عبد الحميد أربع عشرة جمعية ومنظمة إسلامية في المدينة ، طلب منهم أن يوافقوا على مقاطعة الحفلات الاستعمارية وحصلت الموافقة الاجتماعية فاصدر الشيخ منشورا مؤرخا بـ 28 - 9 - 1937م يدعو فيه السكان المسلمين جميعا إلى المقاطعة التامة مستخفا - كعادته - بأي خطر ينجر من وراء هذا التحدي الماحق لطغاة الاستعمار..

بهذه الحياة الحافلة بالجهاد والمواقف الكريمة الشجاعة يبقى الشيخ عبد الحميد بن باديس : قوة تحرك ، ورابطة تجمع ، ونورا يهدي ، وإسوة يقتدى ، وعطرا ينعش، وبرهانا قويا على أن الإيمان والشجاعة يصنعان التاريخ [2].

---

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 295 ، 296.

[2] نفسه : ص : 297.

الإمام العلامة محمد البشير الإبراهيمي (فخر علماء الجزائر)

هو الإمام العلامة ، الشيخ القدوة ، الأديب والمصلح ، محمد البشير بن عمر الإبراهيمي ، من مواليد 14 جوان 1889م بأولاد إبراهيم (سطيف) ، درس وحفظ القرآن الكريم على يد أبيه وعمه.. هاجر سنة 1911م إلى المشرق حيث أتم دراسته العليا في المدينة المنورة ثم انتقل إلى دمشق سنة 1335 هـ وعين أستاذا للأدب العربي في أحد معاهدها. عاد إلى الجزائر سنة 1921م بناءا على اتفاق بينه وبين العلامة عبد الحميد بن باديس للنهوض بالإسلام والعربية ردا على محاولات المستعمر الفرنسي طمسها. كان من المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين ، انتخب نائبا للرئيس ثم أصبح رئيسا لها بعد وفاة الشيخ ابن باديس وهو في منفاه بآفلو حيث قضى ثلاث سنوات. إثر حوادث 8 ماي 1945م اعتقل مرة ثانية وسجن وعذب ولم يفرج عنه إلا بعد صدور العفو العام في 9 مارس 1946م.

أنشأ معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة ،أحيا جريدة البصائر في سلسلتها الثانية حيث كانت من أقوى الجرائد في المغرب والمشرق العربيين المناهضة للاستعمار. رحل سنة 1952م إلى القاهرة لبعث جمعية العلماء المسلمين من جديد، وفي سنة 1954م وجه نداء إلى الشعب الجزائري يدعوه فيه إلى الجهاد.

عاد إثر الاستقلال إلى الجزائر و صلى بالناس أول جمعة أقيمت في جامع كتشاوة.

توفي رحمه الله تعالى في 20 ماي 1965م.

من أثاره: عيون البصائر (مقالات) ، أسرار الضمائر في العربية ، رسالة الضب ، كاهنة الأوراس ، الاطراد والشذوذ في اللغة ، التسمية بالمصدر ، فصيح العربية من العامية الجزائرية ، أرجوزة في 36 ألف بيت تحتوي على تقاليد الشعب الجزائري وعاداته[1].

---

[1] رابح خدوسي وآخرون : موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين ، دار الحضارة ، (د.ط) ، بئر توتة ، الجزائر ، 2003 ، ص : 26.

شخصية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي :

يقول نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي في آثار البشير الإبراهيمي : لقد سمعت الشيخ العربي التبسي - رحمه الله - يردّد في كثير من مجالسه : إن الإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان ، وأن العظمة أصل في طبعه. والعظمة الحقيقية - في رأيي - تكمن في القلب. والحقيقة إن الإبراهيمي كان عظيما بعقله ووجدانه ، بقلبه ولسانه ، فكل من تقلب في أعطافه نال من ألطافه ، فالقريب والرفيق والسائل والمحروم والمريد والتلميذ يجد فيه الأب الشفيق والأخ الصديق ، الذي لا يبخل بجهده وجاهه وماله - وإن قل - لتفريج الكروب وتهوين الخطوب ، وما تقربت منه إلا ملك قلبك بحلمه ، وغمر نفسك بكرمه ، قبل أن يشغل عقلك بعلمه ، ويسحر لبك بقلمه ، وكانت الخصال البارزة فيه الإيثار والحلم والوفاء.

وفي تحديد هذه الشخصية يقول أحد رفاقه ، الأستاذ أحمد توفيق المدني - رحمه الله - عندما تبوأ كرسيه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة : ... فتقدم الإبراهيمي الأمين يحمل الراية باليمين لا يأبه للمكائد ولا للسجون ولا يبالي بالمنافي في الفيافي ، بل دخل المعمعة بقلب أسد وفكر أسد ، ووضع في ميزان القوى المتشاكسة يومئذ تلك الصفات التي أودعها الله فيه :

- علما غزيرا فياضا متعدد النواحي ، عميق الجذور.
- واطلاعا واسعا عريضا يخيل إليك أن معلومات الدنيا قد جمعت عنده.
- وحافظة نادرة عزّ نظيرها.
- وذاكرة مرنة طيّعة جعلت صاحبها أشبه ما يكون بالعقل (الإلكتروني).
- .. كدائرة معارف جامعة سهلة التناول من علوم الدين التي بلغ فيها مرتبة الاجتهاد بحق ، إلى علوم الدنيا مهما تباينت واختلفت ، إلى شتى أنواع الأدبين القديم والحديث بين منظوم ومنثور ، إلى تاريخ الرجال والأمم والدول ، إلى أفكار الفلاسفة والحكماء من كل عصر ومصر ، إلى بدائع الملح والطرائف والنكت ، كل ذلك انسجم مع ذكاء وقّاد ، ونظرات نافذة ، تخترق أعماق النفوس وأعماق الأشياء[1].

[1] أحمد طالب الإبراهيمي : آثار محمد البشير الإبراهيمي ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1997 ، ص : 16 ، 17.

- وفصاحة في اللسان ، وروعة في البيان ، وإلمام شامل بلغة العرب ، لا تخفى عليه منها خافية ، وملكة في التعبير مدهشة ، جعلته يستطيع معالجة أي موضوع ارتجالا على البديهة ، إما نثرا أو نظما...

- ودراية كاملة بجميع ما في الوطن الجزائري ، يحدثك حديث العليم الخبير عن أصول سكانه وقبائله ، وأنسابه ولهجاته ، وعادات كل ناحية منه ، وأخلاقها ، وتقاليدها ، وأساطيرها الشعبية ، وأمثالها ، وإمكاناتها الاقتصادية ، وثرواتها الطبيعية.. كل ذلك قد توج بإيمان صادق ، وعزيمة لا تلين ، وذهن جبّار ، منظّم ، يخطط عن وعي ، وينّفذ عن حكمة ، وقوة دائبة على العمل ، لا تعرف الكلل ولا الملل. هذا هو البطل الذي اندفعنا تحت قيادته الموفقة الملهمة نخوض معركة الحياة التي أعادت لشعبنا بعد كفاح طويل لسانه الفصيح ، ودينه الصحيح ، وقوميته الواعية الهادفة. وتتجلى شخصية الإبراهيمي كذلك في ثقافته ، اذ لم يكن عالما بالمعنى المعروف عن معظم علماء الدين التقليديين ، بل كان عالما شاملا تعمق في كثير من فنون العلم والمعرفة ، بالإضافة إلا علوم الدين ، توج ذلك كله ذكاؤه وموهبته الخارقة في سرعة الاستيعاب والاستنباط والاجتهاد ، وتوظيف ذلك كله لخدمة الإسلام والوطن والأمة ، مما أهله لتبوإ سدة الريادة والقيادة ، وقد تحدث أحد تلامذته ، الأستاذ عبد المجيد مزيان عن ثقافته فقال :

ونشهد كما عرفناه ، نحن تلامذته – أنه كان من أعلم أهل عصره بالعلوم الإسلامية والعربية ، كان إماما لا نظير له في علوم الحديث ، وكانت نيته أن ينشئ مدرسة مغربية للحديث ، لو ترك له النضال الفاتك بوقته قليلا من الوقت ، وقد انشأ مدرسة دار الحديث لهذا الغرض البعيد الأهداف... وكان مفسرا للقرآن في دروس عمومية ودروس للطلبة الخواص ، أتى فيها بإبداعات سجلتها عنه ذاكرة الرجال ، ولو لم تجمعها المكتوبات ، وكان معلما للتاريخ الإسلامي ببراعة تحليل ، وسعة نظر ، يتطرق إلى فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع والأخلاق لينير التاريخ بمنظار الفكر الإسلامي والالتزام الأخلاقي الذي تدعو إليه النهضة الثقافية والإصلاح ، وكان أستاذا في اللغة والآداب العربية ، يجمع بين الأصيل والجديد ، وإن كان في أسلوبه الخطابي معجبا بروائع البلاغة العربية ، متعشقا لآثار الفطاحل المبدعين في العصور النيرة[1] من الجاحظ إلى ابن خلدون. وكان مع هذا كله قدوة في سهولة المعاملة والاتصال ،

[1] أحمد طالب الإبراهيمي : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 17 ، 18.

بشوشا مرحا في مجالسه ، واسع الصدر في ممارسة المسؤوليات متفجر الحيوية في أنشطته الثقافية ، كاتبا وخطيبا ، وصحافيا وأستاذا وإماما.

وتميز الإبراهيمي - أيضا - بثقافة عصرية اكتشفتها شخصيا عندما سألني في إحدى ليالي عام 1948م - وأنا بقسم الفلسفة في خاتمة تعليمي الثانوي - عن آخر درس تلقيته في علم النفس ، فأخذ رأس الموضوع وشرح لي آراء وليم جامس أحد مؤسسي المذهب العملي (البراجماتي) ، وتحدث عن كثير من مفكري الغرب ، ممن لم أكن قد سمعت بهم قبل ذلك اليوم مثل داروين وجون لوك وجون ستيوارت ميل الخ. كما أوضح لي مساهمة العلماء المسلمين في كثير من الجوانب. وتتجلى شخصية الإبراهيمي في موقفه من الوظيف وتركيزه على حرية العالم الديني والمثقف حتى يستطيع القيام بواجبه لأنه كان يرى أنه : لا يوجد في الإسلام وظيفة أشرف قدرا ، وأرحب أفقا وأثقل تبعة وأوثق عهدا وأعظم أجرا عند الله من وظيفة العالم الديني ، وقد قام بهذه الوظيفة أحسن قيام في جميع مراحل حياته ، مما جعله يرفض رفضا قاطعا كل العروض التي تقدمت بها السلطات الفرنسية لمناصب متعددة ، معتبرا الوظيفة عند الحكومة رقا ، وأن ولاء العالم الديني للقرآن لا للسلطان ، وأن ولاء المثقف للحكمة لا للحاكم. فبعد عودته إلى وطنه من رحلته المشرقية الأولى في العشرينات كانت الأمية سمة الأغلبية الساحقة من المجتمع الجزائري ، وكانت هناك أقلية - لا تتعدى المئات - يمكن أن نطلق عليها اسم الطبقة المثقفة ، وكانت هذه الطبقة تعيش بالوظيف : فالمثقف بالفرنسية معلم ابتدائي أو موظف بالبلدية ، والمثقف بالعربية إما مفْت ، أو إمام ،أو قاض ، وكلهم يتقاضون مرتبات من الحكومة الفرنسية ، وضمن هذه الأقلية هناك أفراد رفضوا الوظيف ، منهم الإبراهيمي الذي عرض عليه منصب الإفتاء في مدينة سطيف في العشرينات ، ثم منصب الإفتاء بمدينة بجاية سنة 1931م ، وفي بداية الحرب العالمية الثانية أعادت الحكومة الكرّة وعرضت عليه إنشاء منصب (شيخ الإسلام) بالجزائر وإسناده إليه إن قبل إلقاء أحاديث إذاعية تأييدا لفرنسا ضد ألمانيا ، فرفض ، وكلفه ذلك النفي ثلاث سنوات بقرية آفلو. وأشهد أنني عندما نجحت في امتحان البكالوريا سنة 1949م ، استشرت والدي عن نوعية الدراسة العليا التي ينصحني باتباعها [1] ، فقال لي رحمه الله : اختر ما شئت ، شريطة أن تمارس مهنة حرة وألا تصبح موظفا

[1] أحمد طالب الإبراهيمي : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 18 ، 19.

عند الحكومة الفرنسية. وعندما أخبرته أنني سجلت في كلية الطب أهداني نسخة نادرة من (القانون في الطب) لابن سينا قائلا : هذا نموذج من مساهمة أجدادك في علم سوف تخوض غماره.

وحتى إذا كان الحاكم من بني جنسه ودينه ، كان الإبراهيمي يؤمن أن الكلمة أثمن من أي سلاح وأن مهمة الفكر هي إيقاظ ضمير الدولة لا خدمة ركابها ، وأن علاقة المثقف بالسلطة لا يمكن أن تكون علاقة ولاء. وهكذا - في رحلته المشرقية الأولى - طلب منه الملك فيصل بن الحسين بدمشق أن يتولى إدارة معارف الحجاز فرفض وفضّل العودة إلى الوطن. وهكذا إبان حرب التحرير الجزائرية (1954- 1962) أعلن تأييده للثورة فور اندلاعها قبل كل الشخصيات المعروفة آنذاك ، ثم قدّم خدمات جليلة للثورة ، داعيا إليها ، منوها بعظمتها ، مطالبا الدول الإسلامية بدعمها بالمال والسلاح الدبلوماسية. ولكن عندما اقتضى الأمر لم يتردد في نصح المجاهدين باحترام شرعة الحرب في الإسلام.

وهكذا - في الجزائر المستقلة - تعرض للإقصاء والتهميش لأنه رفض أن ينحاز إلى تيار ضد تيار داخل الثورة ، وأن يتحول إلى بوق للنظام الحاكم ، وبقي محتفظا باستقلال الرأي وصراحة الخلق ، فأصدر - وهو على فراش المرض - بيانه الشهير يوم 16 أفريل 1964 حين رأى سياسة السلطة تبتعد عن الإسلام ، وتؤدي إلى حرب أهلية وتهدّد وحدة البلاد واستقرارها[1].

---

[1] أحمد طالب الإبراهيمي : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 19 ، 20.

الشيخ الطيب العقبي (الداعية المصلح و الإمام القدوة)

هو الطيب بن محمد بن إبراهيم بن الحاج صالح العقبي .. من العلماء البارزين ، والدعاة المصلحين الذين رسموا الطريق الفكري للنهضة في الجزائر.

ولد سنة 1307هـ (1889 م) ببلدية سيدي عقبة احدى قرى الزاب الشرقي التي تبعد عن مدينة بسكرة إلى الشرق بنحو (18) ميلا. وانتقل مع عائلته - وهو صبي - إلى الحجاز سنة 1313هـ واستقر بالمدينة المنورة حيث درس مختلف مراحل التعليم وصار مضرب المثل في العلوم النقلية والعقلية ، وكان يمد مختلف الصحف السياسية هناك بعطاء وافر قيم يلفت الأنظار إلى مقدرته العلمية والأدبية والسياسية.

وفي يوم 4 مارس سنة 1920م عاد الأستاذ العقبي إلى الجزائر وطن آبائه وأجداده ، ومنذ نزوله بأرض الوطن وهو يجاهد بفكره وقلمه ولسانه ، فكان يلقي دروس الوعظ والإرشاد في المساجد يحارب البدع والخرافات ، والشعوذة والتدجيل ، ويلقي المحاضرات بنادي الترقي بالعاصمة يدعو فيها إلى التحرر من الجمود الفكري والانطلاق من الإسار العقلي ، والعودة إلى الإسلام الصحيح الذي جاء به القرآن الكريم ، وبعد تأسيس جمعية العلماء كان الأستاذ العقبي من أعضاء مكتبها الدائم.

وبرز في الميدان ثلاث أساطين بلغو الذروة في الحيوية والنشاط ، والذكاء والعبقرية، والاقدام والجرأة ، ابن باديس وكان مقره قسنطينة ، والطيب العقبي ومقره العاصمة ، والابراهيمي ومقره تلمسان ، وبعد الحرب العالمية الثانية التزم بيته وناديه لظروف خاصة وتوفي سنة 1960م ، ودفن في مقبرة سيدي عبد الرحمن بالجزائر العاصمة رحمه الله تعالى[1].

الشيخ العقبي المفكر العظيم والمناظر الفذ :

اشتهر الشيخ الطيب العقبي بالذهن المتوقد ، والقريحة الفياضة ، والحس المرهف ، والحجة الدامغة ، والقول الفصل. ومن مواقفه التي تشهد على هذه الخصائص ما يرويه لنا الشيخ العلامة محمد الصالح الصديق على لسان أحد المصلحين الذي واكب النهضة العلمية والإصلاحية بالجزائر منذ نشأتها ، ولازم أقطاب جمعية

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 315 ، 316.

العلماء وأحبهم وأفاد منهم ، وخلاصته فيما يلي :
أنه كان في خميس خنشلة مصلح يدعى (البكاري) وكان يتفانى في حب العلم والإصلاح إلى أبعد الحدود ، حسبك أنه أنفق كل ثروته في سبيل ذلك.
وكانت له مدرسة صغيرة ، هو مديرها وصهره معلمها ، واعتاد أن يقيم حفلا عند انتهاء السنة الدراسية كل عام يدعو إليها أنصار النهضة الإصلاحية ومحبي العلم والمعرفة ، وبعض الوجهاء بالبلد.
وكان من المدعوين إلى احدى هذه الحفلات الشيخ الطيب العقبي وأحد المبشرين الذين هم في مظاهرهم كالحمام وفي واقع أمرهم كالحيات ، وكان هذا المبشر معروفا بالجزائر بدعوته التبشيرية على أساس من الأساليب الجدلية العلمية ، وكان لايفتأ - كل ما وجد مناسبة - يعمل على تهوين القيم الإسلامية.
ولما أخذ المدعوون مقاعدهم وغصت بهم القاعة قام الأستاذ العقبي إلى المنصة وألقى خطابا قيما كعادته بلاغة وفصاحة ، ومنطقا وحجة ، وموضوعا وهدفا ، وقال في نهاية الخطاب ما مؤداه : أود أن أقول في ختام هذا الخطاب كلمة أوجهها إلى السيد الراهب ، أملا أن ينتبه إليها ويجيبني عنها وهو لا شك ينوب عن كل المسيحيين أينما وجدوا... ثم قال - وقد ركز فيه الراهب بصره -: يدعي أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أنهم هم المهتدون وحدهم ، والسائرون على الجادة القويمة ، وأن الجنة وقف عليهم لا يدخلها سواهم ، وهذه الدعوى العريضة السافرة ما تزال عقيدة الفريقين إلى اليوم والغد.. وحضرة الراهب المحترم أول من يعلم هذا ويؤمن به ، وقد ذكر الله تعالى هذه العقيدة في القرآن الكريم حيث قال :
(وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى)
وهذا كلام اختصار بديع غير مخل ، أي قالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين هذين المقولين وجعل مقولا واحدا اختصارا.[1]
والحقيقة التي أريد الوقوف عندها وأود لو ينتبه إليها الراهب المحترم هي : أن اليهود إذا كانوا هم الفائزين الرابحين ودخلوا الجنة وحدهم ، فإننا ندخلها معهم لأننا نؤمن بنبيهم موسى عليه السلام... وإذا كان النصارى هم الفائزين بالجنة فإننا أيضا ندخلها معهم لإيماننا بنبيهم عيسى عليه السلام... ومعنى هذا أننا رابحون فائزون في

---
[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 316 ، 317.

كلا الحالين. ولكن ما رأى الراهب المحترم إذا كنا نحن - المسلمين - على حق ودخلنا الجنة فهل يدخلها اليهود والنصارى معنا ؟

طبعا لا ، لأن اليهود والنصارى لا يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والنتيجة الطبيعية أننا الرابحون ، مطلقا ، كنا على حق أم كان اليهود ، أم كان النصارى ... فلينتبه اليهود والنصارى لهذه الحقيقة وليقرأوا لها ألف حساب.

فبهت الراهب ، وسقط في يده ، وتضاءل أمام الحجة الدامغة والأسلوب المنطقي المعجز ، لاسيما والناس من حوله يتهامسون ويلتفتون إليه..

وما كان من الراهب المتخاذل إلا أن نهض إلى الشيخ الطيب العقبي في خطى وئيدة وصافحه بحرارة ثم عاد إلى مقعده ممتقع اللون ، وبينه وبين نفسه صراع عنيف صامت سيظل يحتدم حتى يهتدي إلى الطريق أو يموت[1] ...

---

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 317.

شيخ المصلحين أبو يعلى الزواوي

هو السعيد بن محمد الشريف بن العربي بن يحي الشهير بأبي يعلى الزواوي.
أصله من أبو يعلى قرية بالقرب من صهريج بنواحي عزازقة ، انتقل والده الشيخ محمد الشريف إلى اغيل زكري بناحية أزفون للقيام بالإمامة والتعليم حيث ولد الشيخ السعيد أبو يعلى سنة 1866م. وما إن بلغ السادسة من عمره حتى بدأ حفظ القرآن الكريم على والده الذي كان مضرب المثل في حفظه والعناية به رسما وتجويدا.
ولم يتخط الخامسة عشر من عمره عندما انتهى من حفظ القرآن ، وتوفر له محصول هام في مبادئ الدين واللغة أهله مع ما امتاز به من مواهب فطرية مبكرة للدراسة الثانوية والعالية (حسب ذلك العهد) فانتقل إلى زاوية سيدي عبد الرحمن اليلولي ، وهناك وقف جهده ونشاطه للدرس والتحصيل. ومن العلماء الذين أخذ عنهم في هذه الزاوية الشيخ الصادق بن زكري شقيق مفتي الجزائر إذ ذاك ، الشيخ السعدي الزكري مؤلف كتاب (أوضح الدلائل) الذي دعا فيه إلى إصلاح الزوايا ببلاد القبائل ..
وحوالي سنة 1902م سافر إلى دمشق بنية الإقامة بها ، واشتغل هناك في القنصلية الفرنسية كاتبا ، كما كان له نشاط فكري وقلمي وافر ، فكان ينشر مقالات وفصولا في صحيفتي (المقتبس) التي أسسها محمد كرد علي في دمشق سنة 1908م و(البرهان) التي أسسها الشيخ عبد القادر المغربي بطرابلس الشام سنة 1911م .
وتعرف أبو يعلى على شخصيات علمية وسياسية هاجرت من الجزائر خصوصا عائلة الأمير عبد القادر وشيوخ الزواوة ، وعلى بعض الرجال من المغرب العربي مثل عبد القادر المغربي ، ومحمد الخضر حسين وعلى شخصيات عربية أخرى مثل شكيب أرسلان الذي تبادل معه الرسائل ، ومحب الدين الخطيب ، ورشيد رضا ، وساهم أبو يعلى كذلك في الحركة العربية ضد الأتراك. وظل الشيخ أبو يعلى إلى سنة 1924م بدمشق يبحث ويحرر ويحتك بأعلام الفكر العربي والإسلامي فاتسعت مداركه الفكرية ونبغ في فنون مختلفة ، وتكونت له شخصية مرموقة شاع صيتها في الأوساط الثقافية هناك[1].

---

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 309 ، 310.

وزار الشيخ أبو يعلى القاهرة عند ابتداء الحرب العالمية الأولى سنة 1914م ، وتلقى درسا بالجامع الأزهر على العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي ، وذكر في مقال نشره بمجلة (الإسلام) المصرية أنه وجد الشيخ بخيت يقرر أن العامي لا يلزمه التزام مذهب واحد في مسائله إنما يلزمه أن يسأل أي عالم مسلم فيأخذ بفتواه ، ولما عاد إلى الجزائر وقع بيده كتاب (تبصرة ابن فرحون) المطبوع بهامش فتاوي الشيخ عليش فوجد ما قاله الشيخ بخيث ...

كما ذكر الشيخ أبو يعلى في هذا المقال أن من شيوخه الأستاذ رشيد رضا ، والأستاذ الشيخ طاهر الجزائري .

وفي سنة 1929م حن إلى الوطن ، وبرحت به الذكريات وهزته الأشواق ، فلم تمض إلا أيام قلائل حتى عاد وفي نفسه عزم على القيام بمهمة الدعوة إلى الإسلام الصحيح ومحاربة أهل البدع والخرافات بالجزائر.

ولولا رغبته في نفع وطنه لبقي في سوريا وقد كان فيها معززا مكرما ، ولكنه آثر أن يعود إلى وطنه ليخدمه ويؤدي بعض ما عليه من حقوقه ، وهو يعلم أنه سيضحي بحريته ويلاقي من الاستعمار ضغوطا ومضايقات.

ولم تمض على عودته إلا أيام حتى عين إماما وخطيبا بجامع سيدي رمضان بالعاصمة .. وفي هذا المسجد وقف الشيخ نفسه على تهذيب النفوس ، وإنارة القلوب ، وصقل المواهب ، والدعوة إلى سبيل الله ، والتعريف بأمجاد الإسلام ومفاخره في عصوره الزاهية ، لوصل الحاضر بالماضي ، وبعث الاعتزاز في نفوس الشباب بالخصوص حتى يترسموا خطى أسلافهم الصالحين ويسيروا على طريقهم .. ورب كلمة تفعل فعل قنبلة ، وتحمي أمة ، وتبعث همما وعزائم ، وتوحد صفوفا وكلمات ، وأهدافا وغايات .. ولذا كان لا يفتر عن المجاهدة بالكلمة يرسلها من الأعماق في حلقة الدرس ، أو من على المنبر ، أو فوق منصة بنادي الترقي ..

وأبرز ما كان يتميز به أبو يعلى في دروسه ومحاضراته وخطبه الجمعية شجاعته الأدبية ، وصوته القوي الواضح النبرات ، فكان يهاجم الاستعمار وعملاءه بشجاعة وقوة ويندد بأهل البدع والمنكرات، والعقائد الزائغة، ولأهواء المضلة والعادات المرذولة التي لا تنتشر إلا في بلد حرم من نور العلم ، وحيل بينه وبين الحياة الكريمة التي من شأنها أن تسمو بالإنسان عن الرذيلة ومواطن السوء[1].

---

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 310 ، 311.

وكانت الموضوعات التي يطرقها باستمرار ويركز عليها متعددة ومتنوعة ، منها : وجوب التعاون بين أفراد الأمة على ما فيه خيرهم وفيما يحقق لهم الحرية والعزة ، ومنها محاولة السمو بالنفس ونوازعها إلى رتبة الكمال الإنساني الذي تتحقق به وحدة التفاضل بين الناس ، وتتحدد بمقتضاه درجاتهم عند الله .

وكان كثيرا ما يتحدث عن تربية البنت وتعليمها وتمكينها من حقوقها واحترام إرادتها، وعن الشخصية الوطنية التي تميزنا عن غيرنا والتمسك بالقرآن الكريم لأن فيه هداية الأمة وشفاءها من عللها وأمراضها ، فالمثقف يجد فيه ما ينير به الطريق لغيره من الناس ، والزعيم يجد فيه كيف يقود الأمة ويسوسها ، والقاضي يجد فيه الأحكام والفتاوى. وكان يدعو إلى التمسك بعاداتنا الصالحة لأنها جزء من شخصيتنا الوطنية المميزة ، ويرى أن الاستعمار هو علة العلل ورأس البلايا كلها في بلادنا فزوال عللنا مرهون بزوال الاستعمار ، وجهل الناس بالإسلام وسوء فهمهم لمبادئه وأهدافه من العوامل الفعالة في سوء الأوضاع في البلاد الإسلامية ، ولذا فتحسن أوضاعهم مرهون بفهم الإسلام فهما صحيحا الخ... وتعددت ميادين أبي يعلى في الجهاد بالفكر واللسان والقلم فكان من مؤسسي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومن بناة نهضتها ، ومن أقطابها العاملين بجد ونشاط وتفان حتى دعاه الشيخ عبد الحميد بن باديس (شاب الشيوخ).

وله في ميدان التأليف مجموعة من الكتب طبع بعضها وما يزال بعضها الآخر مخطوطا. ومن مطبوعاته (الإسلام الصحيح) و (جماعة المسلمين) و (الخطب) وهو مجموعة خطب منبرية قصيرة ..

أما الكتب المخطوطة فهي (تعدد الزوجات في الإسلام) و (الأمم الغربية) و (المرأة المسلمة) و (تاريخ الزواوة) عدا مقالات في مختلف الصحف وخاصة (الشهاب) و(البصائر) و (الإصلاح) وهي كثيرة لو جمعت وصنفت لكان منها كتب ضخام[1] .

وللشيخ أبي يعلى مراسلات مع علماء أجلاء منهم أمير البيان شكيب أرسلان . كما ذكرنا . والإمام المصلح رشيد رضا ، والصحافي القدير محي الدين الخطيب صاحب الفتح ، والعلامة الأستاذ محمد الرزقي الشرفاوي عندما كان هذا الأخير مدرسا بالأزهر وتوثقت عروة الصداقة والمحبة بينهما بعد عودتهما إلى الجزائر وظلا على

---

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 311 ، 312.

اتصال حتى توفي الشرفاوي في سنة 1945م ، أما الشيخ أبو يعلى فتوفي في أول يونيو سنة 1952م رحمهما الله تعالى[1] .

---

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 312.

أحمد توفيق المدني (العالم المصلح والمؤرخ النابغة)

هو أحمد توفيق بن محمد بن أحمد المدني القبي الغرناطي ، ولد بتونس يوم 1 نوفمبر 1899م ، ينتمي إلى أسرة من كرام المهاجرين المجاهدين الجزائريين ، حيث هاجرت أسرته إلى تونس قبل ولادته ، تعلم القرآن الكريم ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والرياضيات ، والعقائد الإسلامية ، ومبادئ اللغة الفرنسية. دخل إلى جامع الزيتونة سنة 1913م ، وسجن سنة 1915م ثلاث سنوات بسبب التحريض ضد الاستعمار الفرنسي ، بعد خروجه من السجن سنة 1918م عاد إلى جامع الزيتونة وشرع في عمله السياسي ضمن الحزب الحر الدستوري ، أبعد إلى الجزائر سنة 1925م واستقر بالعاصمة ، كان محررا وكاتبا وصحفيا في عدة جرائد ومجلات (البصائر ، الإصلاح ، الشهاب) شغل منصب كاتب عام للجمعية العلماء المسلمين بعد سفر الشيخ البشير الإبراهيمي إلى المشرق ، انتدب سنة 1956م من طرف جمعية العلماء المسلمين عضوا ثالثا لتمثيلها في القاهرة ، عين وزيرا للشؤون الثقافية في أول حكومة جزائرية بعد الاستقلال ، وسفيرا للجزائر في المشرق وفي مناصب أخرى. توفي في 18 - 10 - 1983م ، ودفن بمقبرة سيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر العاصمة رحمه الله تعالى.

من آثاره : تقويم المنصور (في 5 أجزاء) ، قرطاجنة في أربعة عصور ، كتاب الجزائر، محمد عثمان باشا، المسلمون في جزيرة صقلية، حرب الثلاثمائة سنة، حياة كفاح، مسرحية بعنوان حنبعل ، وغيرها من المؤلفات القيمة[1].

[1] رابح خدوسي وآخرون : المرجع السابق ، ص : 69.

الشيخ توفيق المدني سيف من سيوف الإسلام والعروبة والجزائر :

عرف عن الشيخ أحمد توفيق المدني أنه منظم رائع أكثر منه خطيبا في المحافل ، وأنه خطيب مفوه أكثر منه شاعرا ، وأنه شاعر أكثر منه كاتبا صحفيا ، وكاتب صحفي أكثر منه باحثا ومؤلفا. وقد كانت هذه المواهب أو الكفاءات المتنوعة التي تحقق التكامل أكثر مما تسبب التنافر ، هي أفضل سلاح للشيخ المدني في جهده الصادق وجهاده الميمون . فمضى يحارب على كل الجهات ، ويخوض الصراع في كل الميادين. وكانت الصحافة هي مجاله الأول وميدانه الأفضل نظرا لمعرفته بما كان للكلمة من أثر بالغ في استثارة الجماهير. وهاهو نموذج عن مقالة له تحت عنوان " بين الموت والحياة " وموقعة بلقبه " المنصور " ، جاء فيها هجوم حاد على سياسة الدمج و" التفرنس " وتضمنت مايلي : طريقان قد فتحا اليوم في وجه الجزائر الفتاة. وعلى رأس كل من الفريقين جماعة ترغب الناس سلوك ذلك الطريق وتعدهم الوعود ، وتمد لهم في الأماني . أما الطريق الأول : فهو طريق التجنس والتنازل عن القومية واللغة ، ونبذ التاريخ والتقاليد ، والدخول في جنسية جديدة هي جنسية العنصر الغالب ، والاندماج فيها. وقبول ما يتبع ذلك التجنس والاندماج من أخلاق جديدة ، ولغة جديدة وعقلية جديدة. ودعاة هذا الطريق يبثون دعوتهم بجد ونشاط ، يكتبون ويخطبون ويحادثون وينشرون الصحف والمجلات باللغة الفرنسية طبعا ، ويريدون أن يؤثروا على الطبقات المتعلمة في المدارس الفرنسية والمتشبعة بالأفكار الفرنسية. وأما الطريق الثاني : فهو طريق المحافظة على الذاتية الجزائرية ، أي المحافظة على دين البلاد وعلى لغتها ، وعلى تقاليدها ، وعلى مدنيتها الخاصة ، وعلى توثيق الرابطة بين حاضرها وبين تاريخها المجيد. والأخذ من ثمرات المدنية الغربية بكل نافع مفيد ، لا يمس العقيدة الدينية والوطنية ، ولا يعتدي على كرامة البلاد ، ولهذا الطريق أنصاره ودعاته حتى من بين طبقة الشبيبة المتعلمة في المدرسة الفرنسية ، فأي الطريقين يجب أن تسلك الجزائر ، وهي في فجر نهضتها الحديثة ؟... لقد أخفقت سياسة التجنس والاندماج تماما ، وأفلست كل الإفلاس[1]. وهكذا يخيب ويفلس كل أمر مخالف لسنن الطبيعة وقوانين الاجتماع. فلم يتجنس

---

[1] بسام العسلي : عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ، دار النفائس ، ط2 ، بيروت ، لبنان ، 1983 ، ص : 172.

المتجنس إذا ، ويقدم على التضحية بدينه وقوميته ؟ اللهم إلا إذا كان يرى دينه منحطا فيريد أن يتبرأ منه ، ويرى لغته ساقطة فيريد أن يستبدل بها غيرها ، ويرى أن أمته سافلة فيريد أن يعتز بأمة أخرى ، ويرى تاريخه بشعا فيريد أن يقطع الصلة بينه وبينه. فهو يصبغ نفسه صباغا خشنا ، ويحشر نفسه في زمرة قوم ليس منهم وليسوا منه. ويغدو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . ومثل هذا الرجل قليل في الجزائر والحمد لله.

المسألة الموضوعة أمامنا الآن ، هي مسألة المحافظة على الإسلام وعلى العربية. وهذه المحافظة هي البرنامج الوحيد الذي يجب أن يكون برنامج الجزائر بأسرها في حاضرها ومستقبلها. وكأن الجزائر اليوم غير شاعرة بتلك الحقيقة الرهيبة القاسية التي نراها رأي العين أمامنا. كأنها ليست شاعرة بأن الإسلام في الجزائر سائر في طريق الموت. وكأنها ليست شاعرة بأن العربية في الجزائر سائرة نحو الاضمحلال. وكأنها ليست شاعرة بأنها إذا فقدت إسلامها وعروبتها فقدت كل شيء ولم تنل شيئا. وكيف نريد أن يحيا الإسلام وأن تحيا العروبة في الجزائر. إذا كان الشعب الجزائري لا يعمل العمل الجدي الصالح في سبيل تلك الحياة ؟.

تظنون أن الإسلام يستطيع أن يعيش إسلاما تقليديا على مر الدهور كما هو الآن عائش في أوساطنا ؟ وإذا كنا لا ندرسه ولا نبث دروسه في كل الأوساط وفي مختلف الجهات ، فماذا يبقى لنا منه بعد جيل آخر ؟ والعربية، كيف تستطيع أن تعيش وتقاوم في سبيل الحياة إذا أهملنا دراستها إهمالا ونبذنا أمرها ظهريا ؟ وعلى من تريدون أن تعتمدوا لحفظ دينكم ولغتكم ؟ أتعتمدون على الحكومة ؟ ... إن كانت الأمة تريد لنفسها الحياة في ذاتيتها ، فليس عليها إلا أن تقوم وحدها بكل الجهود ، وتنتشل بأيديها أبناءها من هذه الحالة البائسة ، وهذا هو وحده واجب الأمة اليوم . وهذا هو موقفها بين الموت والحياة ... [1]

فيا شعب الجزائر: عربيتك ودينك في حالة تلاش واضمحلال ، وناشئتك في جهل وإهمال. وإن مستقبلك كأمة إسلامية هو بين يديك. فإن شئت عملا صالحا فهذا أوان العمل الصالح. ولا يكون العمل منتجا مثمرا إلا إذا كان رائده التضحية والاتحاد ، ونبذ كل شقاق وخلاف ، وعدم النظر إلا للواجب المفروض ... لسنا الآن

---

[1] بسام العسلي : عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ، دار النفائس ، ط2 ، بيروت ، لبنان ، 1983 ، ص : 173.

في وقت يسمح لنا أن نتشاجر فيه وأن نختلف ، بل نحن في وقت يوجب علينا أن نوحد الجهود. وأن نكون صفا واحدا يعمل بعزيمة لا تلين في سبيل الله والأمة والوطن.

ويقرن " المدني " القول بالعمل، وهو ما تبرزه الحادثة الطريفة التي يعرضها " المدني " ذاته بقوله: كنا في قاعدة نادي الترقي، وعلينا كآبة وفي نفوسنا هم، بسبب الاستعدادات الفرنسية للاحتفال بمناسبة مرور مائة سنة على احتلالها للجزائر. وإذا بالسيد محمد بلحاج مدير المدرسة الثعالبية الكبرى وأحد كبار الملحدين والمتفرنسين ، يخبرنا بأنه قد ولد للسيد " ساطور " زعيم المتجنسين ولد بالأمس ، فأطلق عليه اسم " كرستيان " أي " المسيحي " ونظر إلي نظرة شماتة ، لأنه علم أن الأمر يؤلمني ويمعن في تعذيبي. قلت للناس من حولي: انظروا هذه هي نتيجة التجنس بالجنسية الفرنسية! وشاء ربك أنني رزقت بولد في نفس الليلة ، هو مولودي الأول ، فأطلقت عليه اسم " إسلام ".

وذهبت من الغد إلى النادي . واجتمع الناس ، وكان بلحاج حاضرا ، فوقفت وقلت: يا جماعة بالأمس ولد لزعيم المتجنسين ولد دعاه " كرستيان " واليوم أبشركم بأنني رزقت ليلا بولد دعوته " إسلام ". ففي هذين الاسمين منهاج سياستين: سياسة التجنيس تجعل أولادكم " كرستيان " وسياسة الإسلام والعروبة والوطنية تجعل أولادكم " إسلام " فاختاروا ، وأنتم الآن على بينة من الأمر . وصفق القوم طويلا . أما محمد بلحاج فقد اصفر لونه ، وتلعثم لسانه ، وقال بعد لأي (بعد بطء واحتباس): لقد جنيت على ولدك جناية لن يغتفرها لك إذ أطلقت عليه هذا الاسم . فنظرنا إليه جميعا نظرة احتقار وازدراء . وأقسم بالله إنني لم أعد منذ ذلك اليوم أسمع في النادي كلمة تجنس ، ولا تجنيس . ماتت الفكرة إلى الأبد . ولم نر وجه محمد بلحاج بعدها إطلاقا[1].

---

[1] بسام العسلي : المرجع السابق ، ص : 174 - 176.

المجاهد البطل سعيد الجنادي

كان سعيد يعمل فدائيا بقريته في نواحي أزفون بولاية تيزي وزو ...

وكان لنشاطه الثوري أثر ملحوظ في تلك النواحي مما جعل الخونة يكتشفون سره ، وبالتالي يتذمرون من تفاقم خطورته عليهم فوشوا به إلى السلطات العسكرية الفرنسية المتمركزة بالناحية .. ففي صبيحة يوم من أيام أبريل سنة 1957م جاء ضابط فرنسي يصحبه رجل أغواه الشيطان ، وزين له سوء عمله ، فكان ممن تجندوا في صفوف العدو ضد ثورتنا ، فانقضا عليه انقضاض الوحوش الضارية على الفريسة الضعيفة ، فأخرجاه من بيته في تبجح وتوقح وطغيان ، وزوجته وأولاده يبكون ويصرخون ، وذهبا به إلى ساحة بقلب القرية حيث كانا قد حشدا فيها جمعا غفيرا من النساء والشيوخ والأطفال لترويعهم وترهيبهم ...

وهناك في الساحة أوقف الضابط سعيدا ووجه إليه رشاشته وقال له بصوت مرتفع حتى يسمعه كل من في الساحة :

ها أنت الآن قد وقعت بين أيدينا ، وها أنت تموت تاركا وراءك زوجة وأولادا صغارا سيعيشون في الذل والمرض والحرمان فلا جبهة التحرير تنفعك ، ولا جيش التحرير ينقذك ، ولا أحد يقدر الآن على أن ينجيك من الموت بل استغث بمحمد الذي تؤمن به وترفرف روحه على رأسك الآن وأنت على عتبة القبر ...

ولم يكد الضابط الفرنسي يذكر محمدا صلى الله عليه وسلم بهذا الأسلوب الساخر اللاذع حتى غلى دم الخائن الذي وقف بجنب الضابط ممسكا برشاشته ، وأحس ببركان ينفجر في أعماقه وصاح بأعلى صوته في وجه الضابط (أنا محمد ...).

قال ذلك وهو يفرغ رشاشته في صدر الضابط الفرنسي ...

فسقط الوقح على الأرض يتمرغ في الدم ، ويرتطم بالوحل ... وانطلقت حناجر الحشود الحاضرة بالتكبير والتهليل وتعالت هتافاتهم إلى عنان السماء بحياة الإسلام وحياة الجزائر المسلمة ...

أما صاحبنا الذي انفلت من الشيطان ، وانقشعت الغشاوة عن بصيرته فناول سعيدا رشاشة الضابط ووضع يده على كتفه وقال له : هيا بنا الآن للجهاد في سبيل محمد صلى الله عليه وسلم [1] ...

---

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص :313 ، 314.

وذهبا تتابعهما الأعين ، وتشيعهما القلوب حتى اختفيا وراء هضبة قرب القرية ثم غابا بين أشجار في سفح الجبل ...

ولله هذه اللحظة السعيدة التي تدرك فيها الإنسان عناية الله ، وتهب فيها نسمات من السماء فتفعل في التفكير وفي الوجدان وفي العمل ما يحير العقل ...

وما أروع الإيمان ، وما أوضح الطريق أمام الإنسان عندما يلغي أطماعه ، ويحكم عقله.

منذ وقت قصير كان الرجل خائنا للوطن ، عميلا للعدو ، محاربا للحرية وأنصار الحرية ، باع نفسه بثمن بخس للعدو الغادر يسيره حيث شاء ، ويوجهه كيفما أراد دون أن يخجل من فعله أو يشعر بخبث صنيعه ، وجاء مع العدو ليقتلا أخاه في الدين واللغة والوطنية والتاريخ لا لشيء سوى أنه كان يجاهد في سبيل أن يتحرر الوطن ، ويتطهر من رجس المستعمر القذر فيسعد كل فرد من أبناء الشعب الجزائري وما أن أهين (محمد صلى الله عليه وسلم) حتى ثارت حميته ، وهاج بركانه ، وتحول جذريا ، وانقلب كليا ، وصار خلقا آخر..

صار وطنيا بعد أن كان خائنا ، وايجابيا بعد أن كان سلبيا ، وذهب ليقتل عدوه بعد أن جاء ليقتل أخاه ، وباع نفسه للرحمان بعد أن باعها للشيطان ، وفي ذلك عبرة للمعتبر ، ودرس للمستبصر[1].

---

[1] محمد الصالح الصديق : المرجع السابق ، ص : 314.

شيخ الإسلام محمد الأمين الشنقيطي

هو الإمام العلامة المفسر محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن نوح بن محمد بن سيدي أحمد بن المختار الشنقيطي ، الجكني ولد عام 1325هـ الموافق لـ 1905م بمدينة تنبه بموريتانيا ، ونشأ يتيما ، فقد توفي والده وهو صغير ، وترك له ثروة من الحيوان والمال.

ترعرع في بيت أخواله الذي هم من بني عمومته ، ذلك أن والدته كانت ابنة عم أبيه ، وكان بيت علم. حفظ القرآن وهو دون العاشرة من عمره ، ودرس خلال حفظه للقرآن بعض المختصرات في فقه الإمام مالك كرجز الشيخ ابن عاشر، ودرس خلالها الأدب ، والنحو، والسيرة على زوجة خاله ، ثم درس بقية العلوم على جمع من العلماء منهم : الشيخ محمد بن صالح المشهور، والشيخ محمد الأفرم ، والشيخ أحمد عمر، والشيخ محمد زيدان ، والشيخ محمد النعمة ، والشيخ أحمد بن مود وغيرهم ، فقد أخذ عنهم النحو والصرف ، والأصول ، والبلاغة ، والتفسير، والحديث ، أما المنطق وآداب البحث والمناظرة فيقول: إنه حصله بالمطالعة[1].

اجتهد الشيخ في طلب العلم ، فأصبح من علماء موريتانيا ، وتولى القضاء في بلده ، فكان موضع ثقة حكامها ومحكوميها ، وكان من أوائل المدرسين في الجامعة الإسلامية سنة 1381هـ ، ثم عين عضوا في مجلس الجامعة ، كما عين عضوا في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ، وعضوا في هيئة كبار العلماء سنة 1391هـ [2].

قال فيه الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ : ملئ علما من رأسه إلى أخمص قدميه.

وقال عنه الشيخ الألباني : يذكرني بشدة حفظه واستحضاره للنصوص بشيخ الإسلام ابن تيمية.

---

[1] عبد الرحمن بن محمد بن علي الهرفي : الجامع لأحكام الحج والعمرة ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، السعودية ، 1425هـ ، ص : 217 ، 218.

[2] محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، ج1 ، دار عالم الفوائد ، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط1 ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، 1426هـ ، ص: 29 ، 30.

وقال الشيخ بكر أبو زيد : لو كان في هذا الزمان أحد يستحق أن يسمى شيخ الإسلام لكان الشيخ محمد الأمين[1].

توفي الشيخ رحمه الله ضحى يوم الخميس السابع عشر من شهر ذي الحجة عام ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف في منزله في مكة المكرمة ، وقد صلى عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز بعد صلاة الظهر من ذلك اليوم ، ودفن بمقبرة المعلاة بمكة. فرحمه الله رحمة واسعة[2].

همته في طلب العلم :

كان الشيخ رحمه الله يتمتع بهمة عالية في طلب العلم ، فلم يكن يفوت مسألة مما درس دون استيعاب وتمحيص ، وإن كلفه ذلك جهودا مضنية وأوقاتا طويلة ، وإليك هذه الواقعة التي تنادي بما ذكرت ، يقول الشيخ رحمه الله : جئت للشيخ في قراءتي عليه ، فشرح لي كما كان يشرح ، ولكنه لم يشف ما في نفسي على ما تعودت ، ولم يرو لي ظمئي ، وقمت من عنده وأنا أجدني في حاجة إلى إزالة بعض اللبس ، وإيضاح بعض المشكل، وكان الوقت ظهرا ، فأخذت الكتب والمراجع ، فطالعت حتى العصر، فلم أفرغ من حاجتي ، فعاودت حتى المغرب ، فلم أنته أيضا ، فأوقد لي خادمي أعوادا من الحطب أقرأ على ضوئها ، كعادة الطلاب ، وواصلت المطالعة ، وأتناول الشاهي الأخضر كلما مللت أو كسلت ، والخادم بجواري يوقد الضوء ، حتى انبثق الفجر وأنا في مجلسي لم أقم إلا لصلاة فرض أو تناول طعام ، وإلى أن ارتفع النهار وقد فرغت من درسي وزال عني لبس ، ووجدت هذا المحل من الدرس كغيره في الوضوح والفهم..

هكذا كان يصنع رحمه الله حينما يعرض له إشكال !! بالإضافة إلى ما كان يكابده من سهر في تتبع كلام الشراح للكتاب الذي يشتغل بدراسته طلبا لاستيفاء كل ما قيل في المسألة أو الباب[3].

---

[1] أبو الأشبال احمد بن سالم المصري : شذرات البلاتين من سير العلماء المعاصرين ، دار الكيان ، ط1، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 2006 ، ص : 226 ، 267.

[2] محمد الأمين الشنقيطي : المصدر السابق ، ج1 ، ص : 39.

[3] نفسه : ص : 22.

زهده وورعه:

إن العالم بحق من حمله علمه على خشية الله عزوجل ومراقبته ، مع مجانبة أعمال السفهاء من التكالب على الدنيا ، والتهارش عليها ، والتشاغل بها عن الله والدار الآخرة. وإن المرء ليشتد عجبه حينما يقف على حال الشيخ الشنقيطي في هذا الباب، حيث كان رحمه الله واحدا من أولئك السلف الصالح المقتدى بهم في العلم والعمل ، والزهد والورع. كان الشيخ رحمه الله يقول : الذي يفرحنا أنه لو كانت الدنيا ميتة لأباح الله منها سد الخلة. ويحذر ابنه من جمعها والحرص عليها بحجة التصدق ، وبناء المدارس ، والأربطة ، لأنها كالماء المالح ، والله عزوجل لم يوجب على العبد جمع المال من أجل التصدق به ، مع أن الواقع في الغالب أن العبد إذا جمع المال لا يعطيه للناس.

وكان الشيخ رحمه الله لا يبقي عنده من المال إلا ما يكفيه في الشهر، ويوزع ما زاد على ذلك على فقراء الطلبة ، والعجزة والأرامل من قرابته ، وكان يقول : والله لو عندي قوت يومي ما أخذت راتبا من الجامعة ، ولكنني مضطر لا أعرف أشتغل بيدي، وأنا شايب ضعيف.

ولم يكن الشيخ رحمه الله يبيع كتبه التي ألفها ، وكان يقول : علم نتعب عليه ويباع وأنا حي ؟ لا يمكن هذا.

بل كان الشيخ رحمه الله لا يميز بين فئات العملة الورقية ، وكان يقول : لقد جئت من البلاد ومعي كنز قل أن يوجد عند أحد ، وهو القناعة ، ولو أردت المناصب لعرفت الطريق إليها ، فإني لا أوثر الدنيا على الآخرة ، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية.

والشيخ رحمه الله من أبعد الناس عناية بالمظهر، وربما خرج بنعلين متغايرين أحدهما أحمر و الآخر أخضر[1].

ويقول الشيخ محمد العثيمين رحمه الله : كنا طلابا في المعهد العلمي في الرياض ، وكنا جالسين في الفصل ، فإذا بشيخ يدخل علينا إذا رأيته قلت : هذا بدوي من الأعراب ، ليس عنده بضاعة من علم !! رث الثياب ، ليس عليه أثار الهيبة ، لا يهتم بمظهره ، فسقط من أعيننا ، فتذكرت الشيخ عبد الرحمن السعدي ، وقلت في

---

[1] محمد الأمين الشنقيطي : المصدر السابق ، ج1 ، ص: 30 ، 31.

نفسي : أترك الشيخ عبد الرحمن السعدي وأجلس أمام هذا البدوي ؟ فلما ابتدأ الشنقيطي درسه انهالت علينا الدرر من الفوائد العلمية من بحر علمه الزاخر، فعلمنا أننا أمام جهبذ من العلماء ، وفحل من فحولها ، فاستفدنا من علمه ، وسمته، وخلقه ، وزهده ، وورعه.

ولما حاول أحد تلامذته وهو : أحمد بن محمد الأمين الذي شرح له مراقي السعود ، ثنيه عن الحج في العام الذي توفي فيه لضعف صحته، أجابه بقوله : دع عنك المحاولة ، سفري إلى لندن أريد العلاج بها لا بد أن أكفر عنه بحج.

ومات رحمه الله ولم يخلف شيئا من حطام الدنيا ، فرحمه الله رحمة واسعة[1].

[1] محمد الأمين الشنقيطي : المصدر السابق ، ج1 ، ص 32 ،33.

حسن البنّا (الداعية الإمام والمجدد الشهيد)

هو حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنّا (1906 - 1949م) ، مؤسس جمعية الإخوان المسلمين بمصر ، وصاحب دعوتهم ، ومنظم جماعتهم . ولد في المحمودية قرب الإسكندرية وتخرج بمدرسة دار العلوم بالقاهرة ، و اشتغل بالتعليم ، فتنقل في بعض البلدان ، متعرفا إلى أهلها ، مختبرا طباعهم وعاداتهم ، واستقر مدرسا في مدينة الإسماعلية ، فاستخلص أفرادا صارحهم بما في نفسه ، فعاهدوه على السير معه لإعلاء كلمة الإسلام واختار لنفسه لقب المرشد العام فأقاموا بالإسماعلية أول دار للإخوان وبادروا إلى إعلان الدعوة بالدروس والمحاضرات والنشرات ، وانفرد هو بزيارة المدن الأخرى. ثم كان يوجه بعض ثقاته في رحلات ، فما عتم أن أصبح له في كل بلد سعى إليه دار ، ودار الإسماعلية مركز قيادة الدعوة. ولم يقتصر على دعوة الرجال ، فأنشأ في الإسماعلية معهد أمهات المسلمين لتربية البنات تربية دينية صالحة ، ونقل مدرسا إلى القاهرة ، فانتقل معه المركز العام ومقّر القيادة ، ولقي فيها إقبالا على دعوته. وعظم أمر الإخوان وناهز عددهم نصف مليون. وخشي رجال السياسة في مصر اصطدامهم بهم ، فحاولوا إبعادهم عن السياسة ، فقام الشيخ يعرف الإسلام في إحدى خطبه الكثيرة بأنه عقيدة وعبادة ووطن وجنسية وسماحة وقوة وخلق ومادة وثقافة وقانون وأنشأ بالقاهرة جريدة الإخوان المسلمين يومية ، فكانت منبره الكتابي إلى جانب منابره الخطابية ، وحدثت كارثة فلسطين ، فكانت كتيبة الإخوان المسلمين فيها ، من أنشط الكتائب المتطوعة. ونودي بالهدنة ، وفي أيدي الإخوان سلاح دربوا على استعماله ، وادّخروه للملمات ، فحدثت في القاهرة والإسكندرية أحداث إرهابية عجزت السلطات القائمة عن معالجتها ، فلجا رئيس الوزارة محمود فهمي النقراشي إلى إقفال أندية الإخوان ومطاردة البارزين منهم ، واعتقال الكثيرين ، والتضييق على زعيمهم البنّا ، فتحولوا إلى خلايا سرية تعمل في الخفاء. وتصدى أحدهم إلى النقراشي ، فاغتاله جهرة ، أمام حرسه وجنوده . ولم يمض وقت طويل حتى تصدى له ثلاثة أشخاص وهو أمام مركز جمعية الشبان المسلمين في القاهرة ليلا ، فأطلقوا عليه رصاصهم وفروا. ولم يجد البنّا من يضمد جراحه ، فتوفي بعد ساعتين. وكان خطيبا فياضا ، ينحو منحى الوعظ والإرشاد[1]

---

[1] خير الدين الزركلي : المرجع السابق ، ج2 ، ص : 183 ، 184.

في خطبه ، وتدور آيات القرآن الكريم على لسانه ، منظّما ، يعمل في هدوء ويبني في اطمئنان. له مذكرات نشرت بعد وفاته باسم مذكرات الدعوة والداعية ، وكتب في سيرته روح وريحان من حياة داع ودعوة لأحمد أنس الحجاجي[1].

شخصيته وشمائله :

خير مثال على تقديم شخصية الأستاذ حسن البنّا أن نصور جوانب من تصرفاته ، ووقائع حياته : يقول الأستاذ عبد الرحمن البنّا :

كان يجلس على الحصير إذا كان المجلس أرضا ، وفي آخر الصفوف إذا اصطفّت المقاعد للجلوس منكمشا ، فلا يكاد يرى ، متواضعا فلا يكاد يعرف ، لولا ما ينمّ عنه من علم وفضل ونور ، يلبس في غالب أحيانه الجلباب العادي ، من أرخص الأقمشة ، والعباءة من فوقه ، والعمامة يشرق من تحتها جبين وضّاء ، ووجه كلّه سماحة وذكاء.

ويتحدث فيمسك الناس الأنفاس ، وهو يدعو إلى التراحم والمحبة بين الناس ، لا يفتعل العبارة ، ولا يتكلّف الحديث ، ولكن يرسل القول إرسالا ، ويبيّن ما يريد في بساطة ووضوح ، مستشهدا في كل موقف بآيات القرآن الكريم ، يحفظها حفظا جيدا ، ويتلوها تلاوة عذبة ، ويوضحها إيضاحا كاملا ، ويفهمها فهما دقيقا ، ويفتح عليه فتوح هو الفيض الإلهي والفتح الرباني ، وتمضي الساعات وهو مسترسل ، ويفيض فيسمع الناس في دهشة وذهول.

هاهو ذا يروي عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنّ من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء).

قيل : من هم ، لعلنا نحبهم ؟

قال : هم قوم تحابوا في الله من غير أرحام ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ثم قرأ: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون). يونس [62] . كان سمحا كريما كالإسلام في سماحته ، والتشريع الحكيم في شموله[2]. حضر حفلا في بعض بلاد الوجه القبلي ، وأقبل كثير من القسّيسين وعدد

---

[1] خير الدين الزركلي : المرجع السابق ، ج2 ، ص : 184.

[2] أنور الجندي : حسن البنّا الداعية الإمام والمجدد الشهيد ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 2000 ، ص : 479 ، 480.

آخر من المواطنين المسيحيين ، فكانت تحيتهم عنده بعض ما ورد في القرآن الكريم في تمجيد مريم وعيسى عليهما السلام ، فانطلق يتلو في هيبة وجلال قول الله تبارك وتعالى :

(وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين، يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الرّاكعين ، ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم). آل عمران [42 - 44].

وهكذا مضى يتلو ويشرح الآيات حتى ظن المواطنون المسيحيون أن الحفل قد أقيم لهم خاصة ولم يقم لشأن من شؤون المسلمين.

كان الإمام الشهيد رحمه الله تعالى يؤمن بالقضاء والقدر إيمانا راسخا ، لا عن طريق الدراسة والتسليم فقط ، وإليك قوله في هذا :

إن إيماني بالقضاء والقدر ، والرزق والأجل ، ليس نتيجة الدراسة والتسليم والإيمان بالنصوص فقط ، ولكنه نتيجة التجارب والمشاهدة ، فقد تعرضت للموت في صغري أكثر من مرة ، وبصور مختلفة ، وكانت نجاتي بأعجوبة ، فوجئت أنا وأخي عبد الرحمن ونحن صبيان نلعب في الحارة بانقضاض بيت كامل فوق رؤوسنا ، ولم ينجينا إلا استناد السقف على درابزين السّلّم ، فأصبحنا في مأمن بالفراغ الناشئ عن ذلك ، حتى رفعت الأنقاض وخرجنا سالمين.

ووقعت من فوق سطح يرتفع عن الأرض أكثر من ثمانية أمتار ، ولكن الله سلم ، فجاءت الوقعة في (ملطم المونة) فلم تحدث إصابة.

وقذفت بنفسي في إحدى الترع الكبيرة في أيام الفيضان ، والماء على أشده ، فرارا من مطاردة كلب عقور ، فانتشلتني سيدة كريمة ، لا أزال أذكر منظرها ، وقد خلعت في سرعة البرق جلبابها ، وتعممت به ، وقذفت بنفسها إلى الماء ، وبعض الرجال وقوف ينظرون ، ولا ينجدون ، مما جعلني أومن بأنّ الشهامة والنجدة ليستا وقفا على الرجال. وتقدمت لإطفاء النار في منزل اندلعت ألسنتها فيما على سطحه من وقود على عادة الريف ، فاهتدت النار إلى ثيابي وأطرافي ، ولكن فرقة الإطفاء كانت قد أقبلت ، وقدرّ رجالها هذا الموقف من ناشئ صغير ، فوجهوا إليّ خراطيمهم ، ونجوت بذلك من احتراق محقق. وجمحت بي الفرس مرة جموحا شديدا ، واعترضني حاجز قوي لسور خشبي يحاذي الرقبة ، كان الاصطدام به كافيا ليطيح بالرأس إلى مكان[1]

[1] أنور الجندي : حسن البنّا الداعية الإمام والمجدد الشهيد ، المرجع السابق ، ص : 480 - 482.

بعيد، لولا أن الله تبارك وتعالى ألهمني في هذه الساعة الحرجة أن أستلقي على ظهري على السرج استلقاء كاملا حتى اجتزت هذا الحاجز بسلام.

وكان الأستاذ البنّا يشارك الإخوان في كل المناسبات الفردية والاجتماعية ، فهو يخطب الجمعة والعيدين ، ويصلي التراويح بهم في رمضان بختمة القرآن كاملة ، ويجري في كثير من الأحيان صيغة عقود الزواج لهم بنفسه ، ويدعو لأطفالهم بالدعاء المأثور حين يولدون ، ويشيع جنائزهم ، ويصلي عليها ، ويقيم معهم في معسكراتهم الكشفية والرياضية ، ويوجههم في حياتهم العامة والخاصة أفضل توجيه ، ويدير معهم الحديث في كل المناسبات ويخلص لهم الحب والمودة من كل نفسه ، وهم يبادلونه هذه العاطفة وهذا الشعور من أعماق قلوبهم ، وهذا هو سر تماسكهم ، وعجز الدسائس والفتن عن أن تصل إلى كيانهم ، أو تنال من بنيانهم.

وكان يسكن في شارع سنجر الخازن رقم (15) بالحلمية الجديدة بإيجار قدره جنيهان ، زيدت في أيام الحرب بحسب قانون المساكن (8 %) فأصبح إيجارها (216) قرشا. كانت خطة حسن البنّا في نشر دعوته عجيبة حقا :

1- انتقاله إلى الناس في كل مكان دون انظارهم حتى يصلون إلى المسجد ، ومن ذلك كان انتقاله إلى المقاهي.

2- انتقاله إلى القرى والكفور ، دون الاقتصار على العمل في القاهرة وحدها ، فطاف أربعة آلاف قرية من الإسكندرية إلى أسوان بحثا عن المؤمنين.

3- تكليف بعض أتباعه بالتجوال في البلاد بحثا عن الشخصيات ذات الوجاهة والقيم من المثقفين كالمحامين وغيرهم ، ودعوتهم لمقابلته.

4- الذهاب إلى بيوت أي دعاة إلى الله ، ماداموا قادرين على العطاء في مجال تعاملهم لخدمة الدعوة ، وخاصة رجال القانون والاقتصاد والتجارة.

5- البدء بالمسجد في أي قرية يزورها ، ويلقي حديثا بعد الصلاة ، وخاصة صلاة العصر ، وإذا لم يدعه أحد بعد صلاة العشاء وضع حقيبته تحت رأسه ، وعباءته فوق جسمه ، ونام حتى الفجر ، ودائما معه (عيش ودقة) طعام قليل ، يتبلّغ به.

6- في زياراته يلقي حديثا في المسجد بعد الصلاة ، وحديث الندوة العامة ، وكلمة في الاجتماع الصغير الذي يتألف بعد ذلك ، وكل حديث من ذلك له هدف[1].

يقول أحد رجال القضاء : أنه التقى يوما في الريف بفتية اقبلوا يحدثوني ، فوجدت

[1] أنور الجندي : حسن البنّا الداعية الإمام والمجدد الشهيد ، المرجع السابق ، ص : 482 ، 483.

عجبا ، فعامة من في الريف لا يكاد الواحد منهم يتجاوز في معارفه القراءة والكتابة ، يحسنون جلوسهم مع منهم أكبر منهم في أدب لا تكلف فيه ، ولا يحسّون بأن أحدا أعلى من أحد. ويتكلمون في المسألة المصرية كأحسن من يتكلم فيها شاب متعلم مثقف ، ويعرفون من الأخطاء التي ارتكبت في عرضها ، وفي المفاوضات التي جرت فيها ، وطريقة حلها ما لا يدركه إلا القليل من الناس.

ويتكلمون في المسائل الدينية كلام الفاهم المتحرر من رق التقليد ، ويبسطون الكلام في ذلك إلى مسائل مما يحسبه الناس من صرف المسائل الدنيوية ، ويعرفون من تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم - وتاريخه هو الرسالة - ما لا يعرفه طلبة الجامعات، فعجبت لشأنهم، وسألتهم أين تعلموا كل ذلك، فأخبروني أنهم من الإخوان المسلمين ، وأن دعوتهم تشمل كل شيء ، وتعنى بالتربية والأخلاق ، والسياسة، والاقتصاد، والغنى، والفقر، وإصلاح الأسرة، وغير ذلك من الشؤون صغيرها وجليلها.

قال المستشار حسن الهضيبي :

خرجت في يوم لمشية العصر مع زملاء على حافة النيل ، فوجدنا جمعا ، فسألنا ، فقالوا : إن حسن البنّا سيلقي خطبة في حفل الليلة ، لقد تعلقت أبصارنا به ، ولم نجد فكاكا من ذلك ، وخلت والله أن هالة من نور أو مغناطيس تحف بوجهه الكريم، فتزيد الانجذاب إليه ، وخطب ساعة وأربعين دقيقة ، كان شعورنا فيها شعور الخوف من أن يفرغ من كلامه ، وتنقضي هذه المتعة ، التي أمتعنا الله بها ذلك الوقت ، إن كلامه يخرج من القلب إلى القلب ، شأن المتكلم إذا أخلص النية لله ، وما أذكر أنني سمعت خطيبا قبله إلا تمنيت على الله أن ينهي خطابه في أقرب وقت ، كان كالجدول الرقراق الهادئ ينساب فيه الماء ، لا علو ولا انخفاض ، أو كالموسيقى العذبة ليس فيها نشاز ، يخاطب الشعور فيلهبه ، والقلب فيملأه إيمانا ، والعقل فيسكب فيه من المعلومات ألوانا ، فلما التقينا إذا تواضع جم ، وأدب لا تكلف فيه ، وعلم غزير ، وذكاء فريد ، وعقل واسع عليم بالشؤون جليلها وحقيرها ، وآمال عراض ، كل ذلك يحفه روح ديني ، عاقل لا تعصب فيه ، ولا استهتار. (وكذلك جعلناكم أمّة وسطا) البقرة [143] [1].

---

[1] أنور الجندي : حسن البنّا الداعية الإمام والمجدد الشهيد ، المرجع السابق ، ص : 484 ، 485.

إنه كان ملهما ، وأقسم أني التقيت به وعاشرته ، فما سمعت منه كلمة واحدة فيها مغمز في عرض أحد أو دين أحد ، حتى أولئك الذين تناولوه بالإيذاء والتجريح في ذمته ودينه ، وكان في ذلك ملتزما حد ما أمر الله به.

قال السيد أمين الحسيني زعيم فلسطين : لقد اشتعل رأسي شيبا ، وتحت كل شعرة خبرة وتجارب سنين عديدة ، ولكني حينما التقيت مع حسن البنّا علمت أنني انتهيت من حيث بدأ هو.

وقال الفضيل الورثلاني : كان لحسن البنّا صفات تفرقت في الناس ، وقلما اجتمعت في شخص واحد اللهم إلا طائفة نادرة من أولي العزم ، للرجل طاقة يفرد الناس من ناحية من نواحيها ولا تجتمع معهم ، فإذا حدثه الفقيه وجد فيه الفقه الممتاز ، ويظن أن هذه صفته ، وإذا اجتمع به الأديب توهم أن هذه صفته ، وما له من غيرها إنما هو مكمّل ، وإذا لقيه السياسي وجد فيه سياسيا من طراز فريد ، وحسب أن ما له من الصفات الأخرى إنما هو جزء يسير ، وإذا استمع إليه الناس وجدوه خطيبا فحسب ، واجتمع لحسن البنّا من الصفات التي يختص بواحدة منها العباقرة من الناس ، والتي كان يتوهمه على واحدة منها كل من نظر إليه من الزاوية التي يفهمها.

والحق أن حسن البنّا هو تلك الصورة الضخمة ، التي تجمع تلك الصفات جميعا ، وبحظ وافر ، يوازي إن لم يزد على ما للمتخصصين من حظ[1].

---

[1] أنور الجندي : حسن البنّا الداعية الإمام والمجدد الشهيد ، المرجع السابق ، ص : 485 ، 486.

الإمام ابن باز (إمام العصر وشيخ الفقهاء)

هو شيخ الإسلام ، الإمام القدوة ، أبو عبد الله عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله آل باز ، ولد بمدينة الرياض في ذي الحجة سنة 1330هـ ، وكان بصيرا في أول الدراسة ، ثم أصابه مرض في عينيه عام 1346هـ ، فضعف بصره بسبب ذلك ، ثم ذهب بصره بالكلية في مستهل محرم من عام 1350هـ ، ونسأل الله عزوجل أن يعوضه عنه بالجزاء الحسن في الآخرة ، وكما ولد في الرياض ، نشأ وترعرع فيها ، ونهل من معين علمائها[1].

ولي القضاء في منطقة الخرج لمدة أربعة عشر عاما (1357- 1371هـ) ، ثم عمل بالتدريس في المعهد العلمي بالرياض عام (1372 - 1380هـ) ، ثم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة إلى أن أصبح نائبا لرئيسها (1381- 1390هـ) ، ثم رئيسا لها (1390-1395هـ) ، تولى منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد في الرابع عشر من شوال عام 1395هـ ، في عام 1416هـ عين سماحته مفتيا عاما للمملكة العربية السعودية ورئيسا للبحوث العلمية والإفتاء.

حصل الشيخ ابن باز على جائزة الملك فيصل لخدمة الإسلام سنة 1402هـ الموافق لـ 1982م[2].

كان رحمه الله من أبرز أعلام هذا العصر، وعلماء أهل الزمان ، ممن طبقت شهرته الآفاق في العلوم الشرعية كافة ، وفي مجال الفتوى خاصة ، شخصية علمية نادرة ، يعد بحق أمة في رجل ، أئمة في إمام ، أنموذجا مشرقا في العلم والدراية ، ومثلا سارت به الركبان في الاجتهاد والفتوى[3].

قال العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني : ابن باز هو مجدد هذا القرن. وقال الشيخ العلامة عبد الرزاق عفيفي : ابن باز طراز غير علماء هذا الزمان ، ابن باز من بقايا العلماء الأولين القدامى ، في علمه ، وأخلاقه ، ونشاطه[4].

---

[1] عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس : بديع الطراز في منهج الفتوى عند الإمام ابن باز ، دار النوادر ، ط1 ، دمشق ، سوريا ، 2014 ، ص: 21.

[2] نفسه : ص : 22 - 24.

[3] نفسه : ص : 8.

[4] عبد الرحمن بن محمد بن علي الهرفي : المرجع السابق ، ص: 281.

وقال الشيخ محمد السبيل : الشيخ ابن باز هو إمام أهل السنة في زمانه.

توفي الشيخ ابن باز رحمه الله فجر يوم الخميس محرم 1420هـ عن عمر ناهز التسعين ، بعد عمر حافل بالأمجاد ، والتضحيات ، والأعمال الصالحة ، وصلي عليه في المسجد الحرام يوم 28 محرم 1420هـ رحم الله شيخنا ، وجزاه خير الجزاء على ما قدم للإسلام والمسلمين[1].

من دعابات الألباني وابن باز رحمهما الله :

ركب أحد طلبة العلم مع الشيخ الألباني رحمه الله في سيارته ، وكان الشيخ يسرع في السير. فقال له الطالب : خفف يا شيخ ، فإن الشيخ ابن باز يرى أن تجاوز السرعة إلقاء بالنفس إلى التهلكة. فقال الشيخ الألباني رحمه الله : هذه فتوى من لم يجرب فن القيادة.

فقال الطالب : هل أخبر الشيخ ابن باز؟

قال الألباني : أخبره.

فلما حدث الطالب الشيخ ابن باز بما قال الشيخ الألباني ضحك.

وقال : قل له : هذه فتوى من لم يجرب دفع الديات[2].

تواضع ورحابة صدر الشيخ ابن باز :

كان الشيخ ابن باز رحمه الله آية في التواضع ، حيث كان رحمه الله لا يرى لنفسه فضلا ، ولا يرغب في التميز على الناس ، ومن شواهد تواضعه رحمه الله أنه إذا صلى في مسجد فيه إمام راتب يأبى أن يؤم حتى لو ألح الإمام عليه.

ومن ذلك أنه رحمه الله يكره أن تسمى المدارس أو الشوارع باسمه ، ويقترح أسماء يرى أنها أولى منه[3].

قال الشيخ سلطان بن حمد العويد الداعية بمركز الدعوة بالدمام : لقيت الشيخ في ثاني أيام التشريق وهو يرمي الجمرات ، فرغبت في سؤاله ، فحال دوني ودونه العسكر، وكان الشيخ يدعو الله تعالى فلما انتهى من الدعاء ، التفت وقال : أين

---

[1] عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس : المرجع السابق ، ص: 31.

[2] أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري : المرجع السابق ، ص : 121.

[3] عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس : المرجع السابق ، ص: 25.

السائل ؟ أين السائل ؟ وكنت واثقا من أن الشيخ سيدعوني بعد فراغه من الدعاء. وسمعت شابا يقول : بدأت طلب العلم بسبب سماحة الشيخ ، وذلك أن أمي أرسلتني لسؤال الشيخ بعد صلاة الظهر في الرياض ، وكان الوقت حارا جدا ذلك اليوم ، وبعد الصلاة بقيت خارج المسجد أنتظر الشيخ ، فخرج ومعه الناس وبجانبه العسكر، فاقتربت من الشيخ ، فمنعني العسكري لأنني طفل ، فناديت الشيخ ، فالتفت إلي وقال : أين الولد ؟ فاقتربت منه وقلت له أمي عندها سؤال واحد. فقال : أولا من ربك ؟ فقلت : ربي الله ، فقال : أكمل ، فقلت : الذي رباني بنعمه ، ثم قال : ما دينك ؟ فقلت : الإسلام ، فقال : ومن نبيك ؟ فقلت : محمد صلى الله عليه وسلم، فدعا لي بالخير ثم قال : الآن اسأل ولك مائة سؤال !! فتأثرت بذلك خاصة أن الوقت كان حارا ، وكان الناس حول الشيخ ، وهو من هو ووقف لطفل !! [1].

افعل ما شئت كما تدين تدان :

قال الشيخ علي عمران : حدثني الشيخ سعيد بن عياش الغامدي رئيس محاكم خميس مشيط وهو الآن متقاعد قائلا : كنت كاتبا عند الشيخ عبد العزيز في الدلم ، وكان الشيخ دائما لا يخرج حتى ينتهي آخر مراجع ، ويؤخرنا كثيرا، وفي ذات يوم ، أغلقنا السجلات ، وهممت بالخروج ، فدخل بدوي ، فقال الشيخ : نجلس نسمع ما يريد ، فقلت : يا شيخ الدوام انتهى ، قال : نسمع من الرجل ، فقلت : أن الساعة الثالثة ، فقال : نسمع ما يريد لعله قدم من بعيد ، فغضبت لذلك غضبا شديدا ، وضربت الشيخ على رأسه بدفتر السجلات ثم هربت ، وبعد عدة أيام رجعت للشيخ واعتذرت منه ، فقبل اعتذاري وكأن شيئا لم يكن ، وطلبت العلم ودرست حتى دخلت القضاء ، وصرت رئيس محكمة خميس مشيط ، وتعلمت من الشيخ أمورا منها : الصبر على المراجعين ، وتحمل أذاهم[2] . وفي ذات يوم ، دخل مراجع بعد نهاية الدوام ، وقد أغلق الكاتب السجلات ، فطلبت منه فتح السجل وسماع ما عند الرجل ، فغضب الكاتب وقال : الدوام انتهى ، فقلت له : نسمع من الرجل لعله قدم من مكان بعيد ، فما شعرت إلا والكاتب يضربني على رأسي بدفتر السجلات ،

---

[1] عبد الرحمن بن محمد بن علي الهرفي : المرجع السابق ، ص : 276 ،277.

[2] نفسه.

فتذكرت موقفي مع الشيخ رحمه الله ، وهرب الرجل من المحكمة ، وبعد أيام أرسلت في طلبه ، وأخبرت الرسول أنني عفوت عنه[1] .

من كرم وسخاء الشيخ ابن باز:

قالت وفاء الباز : سألت التي اتصلت للعزاء عند وفاة الشيخ وهي من كوسوفو، كيف عرفت الشيخ ابن باز ؟ قالت : كيف لا أعرفه ومصروفي عنده ! .

قال الدكتور عبد الله الحكمي : جاء إفريقي رث الثياب يسأل عن الشيخ في موسم الحج الأخير، فقيل له لم يستطع الحج فماذا تريد ؟ فقال : لا أريد منكم شيئا ، ولكنني مسكين والشيخ أبو المساكين[2] .

قال الدكتور محمد الشويعر : ذهب وفد سعودي في إحدى المهمات إلى غابات إفريقيا ، فجاءت عجوز عند هذا الوفد وقالت : لأحد رجال الوفد أنتم من السعودية ؟ فقال : نعم ، فقالت : أبلغ سلامي على الشيخ ابن باز، فقال : كيف عرفتيه ؟ فقالت : لقد كنت أنا وزوجي عائلة نصرانية وأسلمنا ، ولكن طاردنا أقاربنا ، وضاقت بنا الدنيا ، فسألت عن مساعد بعد الله ، فقالوا : ليس لك بعد الله عزوجل إلا ابن باز، فكتبت إليه ، وكنت لا أتوقع وصول الرسالة ، ولكن فجأة ، إذا بالسفارة السعودية تتصل بي ، وتطلبني بمراجعتها ، وإذا بسماحته قد أرسل لها بمساعدة عشرة آلاف ريال ، فهذا الرجل كان له فضل بعد الله عزوجل في ذلك ، بعدما عرف أننا في بلاء ونحن مسلمون. لقد كانت جهوده - رحمه الله - عظيمة ، وفيوضه كبيرة ، وعطاءاته دائمة ، لا يكل من فعل الخير ولا يمل[3] .

---

[1] عبد الرحمن بن محمد بن علي الهرفي : المرجع السابق ، ص: 278.

[2] نفسه : ص: 276.

[3] سيد بن حسين العفاني : زهر البساتين من مواقف العلماء والربانين ، المرجع السابق ، ج6 ، ص: 113، 114.

الشيخ الشعراوي (إمام الدعاة وعبقري التفسير)

إمام الدعاة وعبقري التفسير ، والداعية الصادق و أحد رواة الحديث الشريف ، وعلما من أعلام الفكر الإسلامي الحديث ، وحياة زاخرة بالعلم النافع من أجل المسلمين في كل بقاع العالم الإسلامي. ولد إمام المفسرين الشيخ محمد متولي الشعراوي (1911 - 1998 م) في قرية دقادوس بمحافظة الزقازيق بجمهورية مصر العربية ، درس مبادئ اللغة العربية وحفظ القرآن في القرية ، التحق بالتعليم الأزهري وبدأ يقبل على القراءة ودراسة سير الصحابة والأولياء والعلماء والفقهاء وقرأ أشعار شوقي وتأثر بها كثيرا ، وفي الأدب قرأ الروايات والأعمال الأدبية لكبار الكتاب العرب. بدأت تظهر موهبته في حفظ القرآن الكريم وتجويده ، حتى حاز على إعجاب رجال الدين وأهل الفكر ، حيث تعرفوا عليه عند زيارتهم لأبيه يتناقشون في كافة أمور الحياة ، ويطرحون الآراء السياسية ويختلفون ، ويستمعون إلى الشعر ، ونوادر العرب ، وأفكار العلماء.

والتحق بجامعة الأزهر الشريف وقد أعد نفسه داعية للدين ، وإماما للتفسير ، واهبا وقته ، وعلمه ، وروحه ، للعبادة والدراسة.

في عام 1976 - 1978 م تولى وزارة الأوقاف في مصر وبدأ منذ فترة مبكرة من حياته يظهر في برنامج : نور على نور من تقديم أحمد فراج ، وكان في البداية ضيفا مع مجموعة من علماء الدين. وكلما تحدث في إحدى القضايا بهر الناس بموهبته العقلية وقدرته على تبسيط المعلومات الدينية وربطها بالحياة بصورة لم يستطع أحد من قبل أن يفعل مثله ، حتى اشتهر البرنامج وأصبح علامة من علامات يوم الجمعة كل أسبوع بعد الصلاة.

ثم بدأ في تفسير القرآن بين الناس في المسجد وآلاف أجهزة التسجيل يحضرها الناس معهم للاستماع بعذوبة حديث الشيخ الجليل ، وكلماته التي تحلل وتفسر وتستخرج المعاني وتربط الحقائق في مختلف المقامات والسور[1].

[1] علي عبد الفتاح : أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين ، دار ابن حزم ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 2010 ، ص : 1393 ، 1394.

لقد ظل الإمام الشعراوي يعايش قضايا الأمة العربية ، ويلتقي بالعلماء ، ويسافر في كل مكان ، من أجل الدعوة ونهضة الأمة الإسلامية حتى رحلت روحه الكريمة إلى السماء.

وقد ترك ثروة علمية من المقالات وكتب التفسير والأحاديث في الإذاعة والتلفزيون يمكن أن تعد آلافا من الكتب والموسوعات.

كرم وسخاء الشيخ الشعراوي :

عرف عن الشيخ رحمه الله البذل والعطاء والتضحية والإنفاق بسخاء على الفقراء والمحتاجين ، والتبرع لمشروعات الخير ، وأعمال البر ، وصنائع المعروف ، وقد أقام المدارس والمستشفيات في قريته ، لعلاج الفقراء ، وتدريس وحفظ القرآن الكريم.

وكان يقيم في أحد المناطق الشعبية بالقاهرة وهي منطقة أو حي السيدة نفيسة رضي الله عنها ، وأقام هناك مبرة خيرية يغدق منها على الفقراء ويلتقي بالغرباء أو العلماء من كل مكان[1].

وعندما كان وزيرا للأوقاف في مصر ، كان لا يجد غضاضة أن يوقف السيارة الفارهة في الشارع الضيق ، ويطلب من السائق إعطاء بعض المال لأحد الفقراء في الشارع ، أو يمنح بعض الباعة الجائلين الفقراء من ماله الخاص[2].

جرأة الشيخ الشعراوي وصدعه بالحق :

كان الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى يقول الحق ويلتزم به ، ولا يخش في الله لومة لائم ، ويقرر الشرع ، ويؤدي الأمانة ، ويبلغ حكم الله تعالى في جميع الظروف والأحوال ، لا يبتغي بذلك إلا الأجر والثواب ، ومرضاة الله تعالى ، ومواقفه في ذلك كثيرة ، نذكر جانبا منها :

عندما قررت حكومة الثورة في عهد عبد الناصر أن يقوم الأزهر بإصدار فتوى لتحديد النسل ورفض علماء الأزهر ذلك وتقرر أن يكون هناك اجتماع مع أحد أعضاء قيادة الثورة وهو جمال سالم وجلس معه الشعراوي وقال له عندما شعر

---

[1] علي عبد الفتاح : المرجع السابق ، ص : 1389.

[2] نفسه : ص : 1392.

بالضيق لتأخر العلماء :
أنت جئت في سيارة خاصة أما هؤلاء العلماء فإنهم غلابة يأتون في المواصلات.
فقال جمال سالم : العلماء طبعا لابدّ أن يحمدوا الله.
فقال الشعراوي : إنني أحمد الله لأمر مختلف.
فسأله جمال سالم : كيف ؟
فقال الشعراوي : لأن أعضاء مجمع البحوث لم يجتمعوا من قبل ليقروا تحديد النسل قبل أن تحمل أم جمال عبد الناصر فيه وإلا كانت الدنيا تخسر خسارة كبيرة جدا.
ولم يحضر العلماء ولم ينعقد الاجتماع ولم تصدر الفتوى.
وموقف آخر مع الشاعر الكبير أحمد شوقي ، عندما كان الشعراوي شابا يقرأ الشعر، حزن كثيرا لقصيدة أحمد شوقي التي يقول فيها : رمضان ولى هاتها يا ساقي ، وذهب إلى مقابلة أحمد شوقي وعاتبه على ذلك ، ولكن شوقي قال له ضاحكا :
ألا تعرفون الآية التي تقول (والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون) الشعراء [224 - 226] .[1]
كذلك وقف الشيخ الشعراوي في وجه السادات وخطأه في تفويته صلاة المغرب في اجتماع سياسي جمع أعضاء مجلس الشعب والوزراء وغيرهم من كبار المسئولين ، وابتدأ الاجتماع قبل المغرب واستمر حتى بعد العشاء ، وعندما حانت صلاة المغرب وقف المرحوم د. السعيد أبو علي عضو مجلس الشعب عن المحلة الكبرى ، وأذن للصلاة بصوت مرتفع مقاطعا بذلك الرئيس السادات وهو يخطب خطبته المذاعة على الهواء بالإذاعة والتلفزيون ، وكان الدكتور السعيد من الجمعية الشرعية فقال له السادات : اجلس نحن في عبادة ، وطلب منه الدكتور السعيد رفع الجلسة ليصلي الأعضاء المغرب ورفض السادات ، فترك الدكتور السعيد مكانه ومعه بعض الأعضاء يعدون على الأصابع ومنهم الشيخ الشعراوي الذي كان وزيرا للأوقاف وأدوا الصلاة بالخارج ، وعادوا إلى مكانهم لمعاودة الاستماع لكلمة الرئيس السادات ، وبعد انتهاء الجلسة دار حوار علني بين السادات والشيخ الشعراوي حيث قال السادات للشيخ الشعراوي : نحن كنا في عبادة ، فقال له الشيخ الشعراوي : يا ريس العبادة نوعان : عبادة موقوتة وعبادة غير موقوتة ، وكان يتحتم عليك رفع الجلسة لأداء

[1] علي عبد الفتاح : المرجع السابق ، ص : 1391.

الصلاة ، فقال له السادات : أنت شايف كده يا شيخ الشعراوي ، فرد عليه الشيخ الشعراوي بحزم قائلا : لست أنا اللي شايف كده ، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي أمرنا بذلك وهو اللي شايف كده ، وأسقط في يد السادات[1] .

محمد متولي الشعراوي حينما وقف أمام رئيس الجمهورية حسني مبارك قال له على الملأ أمام الشعب والحرس والوزراء وذلك بعد نجاة الرئيس مبارك من محاولة اغتياله في الحبشة.

قال الإمام الشعراوي للرئيس :

إذا كنت أنت قدرنا فنحن ندعو الله أن يعيننا عليك ، وإذا كنا نحن قدرك فنحن ندعو الله أن يعينك علينا.

وكانت هذه الكلمات تمثل المشهد الأخير لكبير الدعاة وإمام المفسرين حيث فاضت روحه بعد عدة أشهر من هذا اللقاء التاريخي ، الذي يؤكد مدى صدق إمام في دعوته للدين الإسلامي ، وأنه لا يجامل حاكم أو يتملق كبار رجال الدولة[2] .

---

[1] ياسر عبد الرحمن : المرجع السابق ، ج1 ، ص : 242 ، 243.

[2] علي عبد الفتاح : المرجع السابق ، ص : 1392.

محمد ناصر الدين الألباني (محدث العصر وناصر السنة)

هو محدث العصر ، الإمام العلامة محمد ناصر الدين بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم ، والملقب : بالألباني نسبة إلى بلده ألبانيا ، ولد عام 1914م ، في أشقودرة عاصمة ألبانيا في ذلك الوقت. نشأ في أسرة فقيرة ، بعيدة عن الغنى ، متدينة يغلب عليها الطابع العلمي ، فقد تخرج والده الحاج نوح نجاتي الألباني رحمه الله من المعاهد الشرعية في العاصمة العثمانية الأستانة والتي تعرف اليوم بإستنبول ، ورجع إلى بلاده لخدمة الدين ، وتعليم الناس ما درسه وتلقاه ، حتى أصبح مرجعا تتوافد عليه الناس للأخذ منه. وبعد أن تولى حكم ألبانيا الملك أحمد زوغو ، سار بالبلاد في طريق تحويلها إلى بلاد علمانية تقلد الغرب في جميع أنماط حياته... فألزم المرأة الألبانية المسلمة بنزع الحجاب قهرا ، وألزم الرجال بلبس اللباس الأوروبي ، كالبنطلون والقبعة ، كالحال في تركيا من سقوط الخلافة 1922م إلى يومنا هذا ، ومن ذلك اليوم بدأت هجرة الذين يريدون دينهم ، ويخافون سوء العاقبة ، فتوجس والد الشيخ خيفة وتوقع أن يسوء الحال أكثر من ذلك ، فقرر الهجرة إلى بلاد الشام ، فرارا بدينه ، وخوفا على أولاده من الفتن ، ووقع اختياره على مدينة دمشق، التي كان تعرف عليها من قبل في طريق ذهابه وإيابه من الحج.

لما استقر بالشام ، أول ما بدأ طلبه للعلم بدخول مدرسة الإسعاف الخيرية الابتدائية بدمشق ، واستمر على ذلك حتى أشرف على نهاية المرحلة الابتدائية ، وفي هذه الأثناء هبت أعاصير الثورة السورية بالفرنسيين الغزاة ، وأصاب المدرسة حريق أتى عليها ، فانتقلوا عنها إلى مدرسة أخرى بسوق ساروجة ، وهناك أنهى الشيخ دراسته الأولى ، ونظرا لسوء رأي والده في المدارس النظامية من الناحية الدينية ، فقد قرر عدم إكماله الدراسة ، ووضع له برنامجا علميا ، حيث تلقى العلم منذ صغره على والده ، فتعلم العربية والفقه الحنفي ، وكذا أخذ العلم عن بعض أصدقاء والده ، كالشيخ سعيد البرهاني ، حيث قرأ عليه مراقي الفلاح وبعض الكتب الحديثة في البلاغة ، ولقد حبب للشيخ علم الحديث وهو ابن عشرين سنة ، وذلك جراء مطالعته مجلة المنار لرشيد رضا ، وما كان فيها من أبحاث تتعلق بعلم[1]

---

[1] محمد بن إبراهيم الشيباني : حياة الألباني وآثاره وثناء العلماء عليه ، مكتبة السداوي ، ط1 ، القاهرة ، 1987 ، ص : 44 - 46.

الحديث ، ونقد لبعض الكتب بميزان أهل الحديث ، مما جعل الشيخ رحمه الله تعالى يعكف على علم الحديث تعلما ودرسا ، حتى برع فيه بشهادة كبار علماء وقته.
قال عنه الشيخ ابن باز: ما رأيت تحت أديم السماء عالما بالحديث في العصر الحديث مثل محمد ناصر الدين الألباني[1]. وقال العلامة الشيخ محمد الغزالي : الأستاذ المحدث العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني... وللرجل من رسوخ قدمه في السنة ما يعطيه هذا الحق.
في عام 1419هـ الموافق لـ 1999م منح الشيخ الألباني جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية ، وذلك تقديرا لجهوده القيمة في خدمة الحديث النبوي تخريجا وتحقيقا ودراسة[2].
توفي الشيخ العلامة الألباني رحمه الله تعالى في يوم السبت الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة لعام 1420هـ الموافق للثاني من أكتوبر 1999م ، بعد العصر قبيل الغروب ، عن عمر يناهز الثامنة والثمانين ، في مدينة عمان عاصمة الأردن ، في حي ماركا الجنوبية ، ودفن بعد صلاة العشاء ، وعجل بدفنه تنفيذا لوصيته ، رحمه الله رحمة واسعة[3].

الألباني أخلاق وسجايا :

كتب الأخ الفاضل محمد الخطيب الذي عمل في بيت الشيخ رحمه الله ست سنوات هذا الكلام: وقد كان الشيخ رحيما رؤوفا فقال لي مرة: يا محمد أنت لا تملك سيارة ، وأولادك لابد أنهم بحاجة إلى استجمام ، فهيئ نفسك في أي يوم تريد حتى نذهب سويا في نزهة ترفه بها عن أولادك ، وفعلا بعد يومين رتبنا أمرنا وخرجنا بصحبة الشيخ وزوجته إلى بعض الأحراش خارج عمان ، وقد أحضرنا طعاما وفاكهة منوعة ، وسر أولادي أي سرور.
وكنت مرة أعمل للشيخ على سطح بيته وأصلح بعض الأمور ، فحملت قضيبا طويلا أرفعه من مكان لآخر ، فغلبني القضيب وأنا في أعلى السطح ، فكدت لولا فضل الله

---

[1] محمد بن إبراهيم الشيباني : المرجع السابق ، ص : 66.
[2] إبراهيم محمد العلي : محمد ناصر الدين الألباني محدث العصر وناصر السنة ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 2001 ، ص : 38،39.
[3] نفسه : ص : 52.

أن أهوي من أعلى السطح ، فعلم الشيخ بالخبر ، فحمد الله على سلامتي وسارع ساجدا لله : سجدة شكر ، وذرفت عيناه بالبكاء ، وأخرج من جيبه مئة دينار أعطاني إياها.

وكان ورعا حيث حصل أن توسط مرة لشخص تعرف عليه في إحدى الشركات ، بعد أيام طرق الرجل باب الشيخ محضرا تنكة زيتون ، فقال لي : هذه هدية للشيخ ، وكان الشيخ نائما ، فلما استيقظ أخبرته ، فقال : لا يحل لنا أكلها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من شفع شفاعة ، وأهدي له هدية فقبلها ، فقد أتى بابا من الربا). وأعطيناها للفقراء.

وكم كنت أستحث الشيخ لبناء مسجد أو إعطاء فقير أو أرملة أو سائل ، فكان لا يردني في ذلك ، والقصص كثيرة في ذلك ، منها : جاء رجل مريض وعلاجه بإبر تكلفة الواحدة منها عشرون دينارا ، يحتاج إلى (15) إبرة ، فطلب مني الشيخ الذهاب لبيته والتأكد من صحة ما قال ، فلما علمنا صدقه أعطاني الشيخ المال ، واشترينا له الإبر.

ولما نويت أن أبني احتجت للمال ، فطرقت كثيرا من الأبواب ، ولم أحصل على شيء، فتذكرت رجلا ثريا يعرفه الشيخ ، فقلت لزوجة الشيخ : لعلك تقولين للشيخ أن يتوسط لي عند فلان حتى يقرضني ، وفي اليوم التالي ، وكنت أجلس على مكتبي قال لي : يا محمد أنت تريد أن أتوسط لك عند فلان كي يقرضك ؟ فقلت : نعم ، قال : أنا أولى بك منه أنا أعطيك ما تريد ، فبكيت وقلت : يا شيخنا جزاك الله خيرا. ولكن - والله - لم يكن ببالي أن أحصل على طلبي من الشيخ لترفعي عن النظر لما عند الشيخ ، فلما أعطاني المال قال : هذه هدية ألف دينار غير محسوبة ، فبكيت مرة أخرى ، فجزاه الله خيرا كثيرا رحمه الله تعالى[1].

وقصة أخرى حصلت قريبا والشيخ في المشفى : جاءته امرأة تشكو له وقوعها في براثن البنوك ،حيث إنها وزوجها اقترضا من أحد البنوك مبلغ تسعة آلاف دينار ، وتضاعف عليها المبلغ من الربا بعد وفاة زوجها ، فجاءت تستنجد بالشيخ للخلاص من ذلك ، فطلب مني الشيخ كالعادة التحري في ذلك ، وبعد التحري والتأكد من صدق المرأة ، وافق الشيخ على أن يقرضها مبلغ سبعة آلاف دينار، فحضرت المرأة وحضر معها أولادها فقال الشيخ : هذه ألف دينار هدية ، وهذا المبلغ المطلوب ،

---

[1] إبراهيم محمد العلي : المرجع السابق ، ص : 45 ، 46.

ففرحت المرأة وفرح أولادها ودعوا للشيخ ، ودعوت أنا ، بأن يجزي الله الشيخ خيرا ، فنظر الشيخ إلينا وقال: يا إخوان ! والله إنني أتمنى أن أصبح مليونيرا ، حتى أخرج الألوف من أمثال هذه المرأة من قيود الربا.

وكانت زوجتي على وشك الولادة ، فكان الشيخ دائم السؤال عنها ، وقبل الولادة - حينما أردت الانصراف من المكتبة - قال لي الشيخ: خذ سيارة أم الفضل (زوجة الشيخ) لعلك تحتاجها في منتصف الليل ، وبقيت السيارة عندي يومين ، وفعلا جاءت الولادة في منتصف الليل ، وخرجت من بيتي لا أعرف أين أذهب ، وبعد بحث لم أجد قابلة ، فتذكرت أن زوجة الشيخ عندها خبرة بالولادة ، فتوجهت نحو بيت الشيخ وأنا متردد خشية أن أزعج الشيخ في هذا الوقت المتأخر ، فطرقت الباب، فرد علي الشيخ وقدمت اعتذارا شديدا وأعلمته حاجتي ، فرد علي بلهجة المداعب: لماذا لم تصنع مثل شيخك ؟ فقد قمت بتوليد زوجتي بنفسي ، ثم أردف قائلا: لحظات وأوقظ لك أم الفضل ، وذهبت معي ، ورزقنا بولدي عبد الله.

أما سيارة الشيخ فكانت جمل محامل للإخوة ، فكان يحمل بها الإخوة ، وينقلهم من مكان لآخر ، ويقول لي: يا محمد كان يقول لي والدي - رحمه الله - لكل شيء زكاة ، وزكاة السيارة: حمل الناس بها.

وكان يقول: (إتمام المعروف خير من البدء به) وهي حكمة تعلمناها من الشيخ ، وأنعم بها من حكمة ، فكان يقوم على قضاء حوائج إخوانه ، فيكتفي الأخ بشيء من خدمة الشيخ ، فيفرح الشيخ ، ويصر على أن يتمم له ذلك ، ويبادر الأخ بقوله: (إتمام المعروف خير من البدء به). فكم والله استفدنا من هذه الحكمة في معاملة إخواننا[1].

---

[1] إبراهيم محمد العلي : المرجع السابق ، ص : 46.

الإمام ابن عثيمين (عالم عصره وفقيه زمانه)

هو الإمام العلامة ، حبر العلوم ، وبحر المعارف ، شيخ الفقه ، وإمام السنة ، الشيخ أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين ، ولد في مدينة عنيزة ، إحدى مدن القصيم ، بالمملكة العربية السعودية ، في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام 1347هـ.

حفظ القرآن الكريم في صغره ، ثم اتجه إلى طلب العلوم الشرعية ، والعربية ، على أيدي كثير من العلماء المتخصصين منهم: الشيخ عبد الرحمن ناصر السعدي ، و الشيخ عبد العزيز ابن باز[1].

كان الشيخ رحمه الله قدوة صالحة ، وأنموذجا حيا ، فلم يكن علمه مجرد دروس ومحاضرات تلقى على أسماع الطلبة ، وإنما كان مثالا يحتذى به في علمه ، وتواضعه، وحلمه ، وزهده ، ونبل أخلاقه. تميز بالحلم ، والصبر، والجلد ، والجدية في طلب العلم ، وتعليمه ، وتنظيم وقته ، والحفاظ على كل لحظة من عمره.. كان بعيدا عن التكلف ، وكان قمة في التواضع ، والأخلاق الكريمة ، والخصال الحميدة ، وكان بوجهه البشوش اجتماعيا ، يخالط الناس ويؤثر فيهم ، ويدخل السرور إلى قلوبهم ، ترى السعادة تعلو محياه ، وهو يلقي دروسه ومحاضراته رحمه الله.. حريصا على تطبيق السنة في جميع أموره[2].

قال الشيخ عبد العزيز بن باز : الشيخ محمد رجل عالم ، ورجل فاضل[3].

وقال الشيخ عبد الرحمن السديس خطيب المسجد الحرام : يعد الشيخ رحمه الله من بقية السلف الصالح ، نحسبه كذلك ولا نزكي على الله أحدا ، فهو من قل نظيره ، وممن جل أن ترى العيون مثله بلا مبالغة ، لما حباه الله عزوجل ، فهو موسوعة علمية أخلاقية ، ودعوية ، ومنهجية ، يقل نظيرها، فهو أئمة في إمام ، وأمة وحده ، ونسيج بمفرده ، وطراز مستقل ، طالما نفع الله به ، وذاع صيته ، واستفاد منه[4]

---

[1] عبد الرحمن بن محمد بن علي الهرفي : المرجع السابق ، ص : 313 ، 314.

[2] نفسه : ص :319.

[3] نفسه : ص :313.

[4] سيد بن حسين العفاني : زهر البساتين من مواقف العلماء والربانين ، المرجع السابق ، ج6 ، ص : 170.

القاصي والداني. امتاز الشيخ بالعلم الغزير، والفهم الواضح للدين عقيدة وشريعة ، والأسلوب الجيد في العرض ، وإتباع الحكمة في أسلوب الدعوة.

ولقد تم تكريم الشيخ باختياره لجائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام 1414هـ الموافق لـ 1994م ، وذلك تقديرا لسجياه[1].

توفي الشيخ ابن عثيمين في يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال سنة 1421هـ بمدينة جدة ، بالمملكة العربية السعودية ، وصلى على الشيخ في المسجد الحرام بعد صلاة العصر يوم الخميس السادس عشر من شهر شوال سنة 1421هـ الآلاف المؤلفة ، وشيعته إلى المقبرة ، في مشاهد عظيمة لا تكاد توصف ، ودفن بمكة المكرمة رحمه الله رحمة واسعة[2].

أصر على دفع المبلغ:

قال الشيخ محمد بن صالح المنجد : خرج الشيخ مرة مع شخص في سيارته من عنيزة الى بريدة ، في مهمة في مشروع خيري ، فأسرع السائق المرافق للشيخ ، وكان في الطريق نقطة تفتيش على السرعة الزائدة ، فأوقفوا السيارة لإعطائه المخالفة ، فنظر العسكري في السيارة ، فإذا فيها الشيخ محمد بن صالح العثيمين فاستحيا ، وقال : تفضلوا امشوا ، فمشت السيارة ، وبعد برهة يسيرة قال الشيخ للذي معه : لماذا أوقفونا ؟! قال : لأجل السرعة الزائدة ، قال : ارجع إلى هذه النقطة ، فاستدار ورجع على أمر الشيخ ، فلما وصل إلى المكان ، قال لهذا العسكري : لماذا أوقفتنا قبل قليل ؟ قال : يا شيخ كان فيه سرعة زائدة ، قال : ولماذا تركتنا نمضي ؟ قال : لعلكم مستعجلين وعندكم مسألة مهمة ، قال : لا ، كم هي مخالفة السرعة ؟ قال : يا شيخ ما فيه داعي ، قال : كم مخالفة السرعة ؟ ثلاثمائة ، هذه مائة وخمسين مني ، ومائة وخمسين تأخذها من هذا ، لأنه خالف ، ولأني ما نصحته ، وأصر على دفع المبلغ[3].

---

[1] سيد بن حسين العفاني : زهر البساتين من مواقف العلماء والربانين ، المرجع السابق ، ج6 ، ص : 171.

[2] عبد الرحمن بن محمد بن علي الهرفي : المرجع السابق ، ص : 324.

[3] أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري : المرجع السابق ، ص : 177 ، 178.

زهده رحمه الله :

كان - رحمه الله - زاهدا في الدنيا ، ليس من أهل العقارات ، والأموال ، وما يأتيه من الرواتب ينفقه على أهله ، وقد أعطي سيارة جديدة فلم يستعملها ، فلما علاها الغبار سحبت من أمام البيت.

قال سليمان السالم الحناكي : وقد ذكر لي من أثق به موقفين للشيخ يعبران عن صفة الزهد لديه: ففي أحد الأيام ، كان الشيخ يقف بجوار مسجده مع بعض طلبته ، يسألونه ويناقشونه في بعض المسائل الشرعية ، فأتت سيارة فارهة ونزل منها السائق ، وأعطاه مفاتيح السيارة قائلا : أن هذه السيارة هدية من فلان الفلاني - أحد أعيان البلد - وأبى الشيخ ، إلا أن الشخص ألح عليه ، فأخذ الشيخ المفاتيح ، وركب ذلك الشخص السيارة الأخرى وذهب.

فيقول محدثي :

أن الشيخ تابع حديثه مع طلبته وهو يقلب المفاتيح بيده ، ولم يلتفت مطلقا ، وفجأة أتى شاب وسلم على الشيخ ، وقال: يا شيخ الليلة زواجي ، وإني أرجوا أن تحضره ، ولكن الشيخ تعذر لبعض الارتباطات ، ولكن الشاب ألح عليه بالحضور، فلاطفه الشيخ وقال: إن ظروفه لا تساعده ، ولكن خذ مفاتيح هذه السيارة فهي هدية مني لك ، وأخذ الشاب السيارة وذهب ، وعاد الشيخ لحديثه وكأن شيئا لم يكن.

وموقف آخر: وهو أن الملك خالد - رحمه الله - زار الشيخ في بيته ، كعادة ولاة الأمر في تقدير العلماء وإجلالهم ، ولما رأى الملك منزل الشيخ المتواضع ، عرض عليه أن يبني له دارا جديدة ، فشكره الشيخ وقال: إنني أبني لي دارا في الصالحية (حي في عنيزة) ولكن المسجد والوقف التابع له تنقصهما بعض الحاجيات والمستلزمات ، وبعد أن ذهب الملك قال له بعض جلسائه: يا شيخ ما علمنا أنك تبني دارا في الصالحية ، فقال الشيخ : أليست المقبرة في الصالحية[1] !!.

[1] سيد بن حسين العفاني : زهر البساتين من مواقف العلماء والربانين ، المرجع السابق ، ج6 ، ص : 180، 181.

انظر الوالد:

قال النقيب صالح بن عبد العزيز العجلان : أذكر في ذات مرة كنت في مجلسه في منى، أثناء موسم الحج ، وكان في نفس المخيم سماحة مفتي الديار السعودية ، الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله ، حيث يجلس بجانبه من أجل الفتوى لعامة الناس ، وبينما الزحام يختلف من وقت لآخر، وكلاهما رحمهما الله مشغول في الفتوى والإجابة على الأسئلة ، دون كلل أو ملل ، حتى خف الزحام ، ولم يبق لديهما من يسأل ، ثم أقبل رجل يريد الإجابة عن سؤال ، ثم اتجه لفضيلة الشيخ ابن عثيمين، وسأل الرجل ، ثم رفض الشيخ محمد الإجابة ، وأشار لفضيلة الشيخ ابن باز قائلا : انظر الوالد أي : اسأل الوالد ابن باز[1].

شكروا للشيخ جهوده :

قال إحسان بن محمد العتيبي : سافر شباب من الأردن إلى العمرة ، وفي خيبر قدر الله عليهم حادثا صدموا به عمود الإنارة ! فهرعت الشرطة لمكان الحادث ، وأصروا على السائق أن يدفع تكاليف العمود ، وكانوا قد قدروا ذلك 21000 ريال !

وهذا السائق ومعه المعتمرون لا يقدرون على دفع هذا المبلغ ! فحجزت الشرطة جواز سفر السائق لحين تدبير المبلغ ودفعه عند رجعتهم من أداء العمرة ، فغلب الشباب على أمرهم ، وفكروا في طريقة تحصيل المبلغ ، فلم يكن أمامهم إلا عرض الموضوع على بعض المشايخ ، فكان أن ذهب واحد منهم وهو الذي حدثني بالقصة ، إلى الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في غرفته في الحرم المكي بعد صلاة العصر.

فعرف الشيخ منه القصة ، وقال له : تعالى غدا ، وإن شاء الله يصير خيرا !

قال الشاب : فلم أرجع للشيخ لأنني عرفت أن المبلغ كبير، والشيخ لا يعرفنا ، ولم يعرف عن الشيخ أن يساعد في مثل هذه الأمور، لكنني ذهبت والكلام لمحدثي ، تحقيقا لرغبة الشباب في أن أكلم الشيخ فقط[2].

---

[1] أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري : المرجع السابق ، ص : 182.

[2] نفسه : ص : 185 .

ثم رجع القوم إلى الأردن ، وكان لابد من المرور على خيبر ! لأخذ الجواز، ولعل الله أن يكون قد رق قلوبهم فيسقطوا عنا المبلغ.

ولما دخل الشباب إلى المركز، أصر الضابط على إحضار المبلغ كاملا ، وإلا فلا سفر، فإذا أرادوا السفر فمن غير سائق ! تحير الشباب وسائقهم ! ماذا يفعلون ؟

توجهوا للشاب الذي ذهب للشيخ ابن عثيمين فقالوا له : ألم تذهب أنت للشيخ ؟ ماذا قال لك ؟ قال : قال : تعال غدا !! قالوا : فهل ذهبت له ؟ قال : لا !!

قالوا : اتصل به ، لعل الله أن يكون الفرج على يديه ، ونحن محبوسون عن أهلنا هنا، ونحن في آخر أيام رمضان !! قال : فاتصلت بالشيخ في غرفته فرد علي وأخبرته بحالنا !

قال : أنت الشاب الأردني ؟؟!!

قلت : نعم يا شيخ !

قال : ألم أقل لك تعال في الغد ، لم لم تأت ؟

قال : استحييت !

قال : فلم كلمتني إذن ؟؟! على كل حال : المبلغ كان جاهزا في اليوم نفسه !!

فلم يصدق صاحبي الخبر، وكاد الشباب أن يطيروا فرحا ومعهم السائق بالطبع.

قال الشاب : والحل يا شيخ ؟

قال الشيخ : أنا أحول المبلغ للمركز، وأطلب منهم أن يسيروا لكم أن ترجعوا إلى أهليكم قبل العيد !!

قال الشيخ : أعطني الضابط المسئول !

كلم الضابط الشيخ بنوع من اللامبالاة !

قال الشيخ : المبلغ عندي ، وأعطني رقم حسابكم وأنا أحوله لكم ، وأطلقوا الشباب وسائقهم ليذهبوا إلى أهليهم !

رد الضابط بقلة أدب : آسفين يا شيخ ! لابد من إحضار المبلغ نقدا ، وإلا فلن يسافروا ولن يرجعوا !!

غضب الشيخ جدا من الضابط ، وقال : أقول لك المبلغ عندي ، دعهم يذهبوا إلى أهليهم !!

رفض الضابط مرة أخرى[1] !

---

[1] أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري : المرجع السابق ، ص : 186 ، 187 .

أغلق الشيخ السماعة.

قال الشاب : فما هي إلا لحظات والمركز ينقلب رأسا على عقب !! ما الخطب ؟؟

إنه أمير المدينة !! الأمير عبد المجيد وقتها ، اتصل يسأل عن الضابط الذي رفض طلب الشيخ ؟ وبدأ يتهدد ويتوعد العقوبة !!

حاول الضابط وأفراد الشرطة التستر على زميلهم !!

ورأى الشباب تغير اللهجة بصورة سريعة ومذهلة ! إلى رقة وأدب !

فأمرهم أمير المدينة بإطلاق الشباب وسائقهم فورا ، وتصليح العمود على حساب الدولة !!

لا يتصور أحد مدى فرحة الشباب بهذا الخبر ! فشكروا الشيخ على جهوده ، ووقفته معهم ، وارتفعت أصواتهم بالدعاء للشيخ ، وأكبروا في الأمير احترامه للعلماء ، وتقديره لمكانتهم ، في موقف لن ينساه أحد منهم ما عاش أبدا[1] .

رفق الشيخ بالحيوان:

قال الشيخ خالد الخراز : من ملح ما يذكر في ترجمة العلامة الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى ، ما حدثني به الشيخ الدكتور الأديب عبد العزيز بن محمد السدحان : أن الشيخ ابن العثيمين له بابان في بيته ، وكان من عادته إذا زاد من طعامه في الغذاء أو العشاء يفتح بابا معهودا له يطعم فيه القطط من لحم ونحوه ، والقطط بطبعها تأنس لمطعمها وتظل تنتظر على بابه وتجتمع في الوقت المعهود لتأكل من يده ، فإذا لم يزد له طعام ذلك اليوم خرج من الباب الآخر مراعاة لشعورها في عدم إطعامها.

فلله در شيخنا ما أرهف قلبه ، وأروع أدبه ، رحمه الله تعالى واسعة[2] .

---

[1] أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري : المرجع السابق ، ص :187 ، 188 .

[2] خالد بن جمعة بن عثمان الخراز: موسوعة الأخلاق ، مكتبة أهل الأثر، ط1 ، الكويت ، 2009، ص : 498 ، 499.

خاتمة

وبعد:

إن تاريخ أمتنا الإسلامية حافل بالعلماء الذين وهبوا أنفسهم لهذا الدين ، تعلما ، وتعليما ، وجهادا ، وصدعا بالحق ، وكانوا أئمة هدى ، قادوا الأمة ، وسطروا صفحات مضيئة عبر تاريخنا الإسلامي، فصاروا قدوات على مدى الزمان ، كما كانوا مثلا من الأمثلة العليا للإنسان المسلم ، علما ، وفضلا ، وسلوكا ، وقدوة لمن يريد أن يلتزم سبيل الرشد في دينه ، ويرجو الاستقامة في دنياه..

ونحن عندما ندرس سيرة هؤلاء العلماء الأعلام ، فإن دراستنا للواحد منهم ، مهما وصل من فضل ومكانة ، إلا أنها لا تغني عن دراسة الآخرين ، فلكل واحد منهم منهجه في العلم ، ولكل واحد منهم سبيله في الحياة ، وقد أحاطت بكل واحد منهم ظروف خاصة ، فتعامل معها بما يتناسب مع هذا الدين العظيم ، وما يتناسب مع شخصيته الكريمة ، ومن ثم تشكلت لنا أنواع من هذه الشخصيات ، كل منها يمثل نموذجا فريدا في التاريخ..

ولم يكن المقصود من تعريفنا بسيرة هؤلاء العلماء والأعلام مجرد السرد التاريخي ، لكننا أردنا أن نستنهض الهمم ، ونحي العلاقة بيننا وبين تراثينا الإسلامي وشخصياته العظيمة ، مع تفهمنا لتغير الأدوات والوسائل بتغير العصور والأزمنة.

وليت الناس جميعا يتوجهون بعقولهم وأفكارهم إلى عظماء المسلمين ، من علمائهم وأتقيائهم ، وصالح أمرائهم ، ليذّكروا بالقدوة الصالحة ، التي بها يصلح أمر الناس ودينهم ، حتى يحيوا بأنفسهم سيرة السلف الصالح، خير ما به صلاح الدنيا والآخرة..

والحمد لله رب العالمين..

قائمة المصادر والمراجع

1. شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء ، تحقيق شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، ط3 ، بيروت ، 1885.
2. أبي الفداء ابن كثير الدمشقي : البداية والنهاية ، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي ، هجر للطباعة والنشر، ط 1، جيزة ، 1999.
3. ابن الجوزي المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط2 ، بيروت ، لبنان ، 1995.
4. ابن الجوزي: أخبار الأذكياء ، عناية بسام عبد الوهاب الجالي ، دار بن حزم ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 2013.
5. أحمد بن عبد الله الأصفهاني أبو نعيم : حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، دار الفكر، (د. ط) ، بيروت ، لبنان ، 1996.
6. ابن خلكان وفيات الأعيان وأنباء الزمان: تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، (د. ط) ، بيروت ، 1969.
7. أحمد بن علي الخطيب البغدادي أبو بكر: تاريخ مدينة السلام (تاريخ بغداد) وذيله المستفاد ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، 2001.
8. أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد ، تحقيق مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1983.
9. ابن الجوزي آداب الحسن البصري وزهده ومواعظه: تحقيق سليمان الحرش ، دار النوادر، ط3 ، دمشق ، سوريا ، 2008.
10. محمد بن سعد بن منيع الزهري: الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي ، ط1 ، القاهرة ، 2001.
11. ابن الجوزي: سيرة ومناقب عمر بن العزيز الخليفة الزاهد ، ضبط وشرح تعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1984.

12. ابن عبد البر : بهجة المجالس وأنس المجالس ، تحقيق محمد مرسي الخولي ، دار الكتب العلمية ، (د.ط) ، بيروت ، لبنان ، 1981.

13. صلاح الدين خليل بن ابيك الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الارناؤوط وتزكي مصطفى ، دار إحياء التراث العربي ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 2000.

14. القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، ط2 ، المغرب ، 1983.

15. أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر : مناقب الشافعي ، دار التراث ، ط1 ، مصر ، 1970.

16. سلمان بن محمد بن عمر البجيرمي : البجيرمي على الخطيب ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1997.

17. محمد بن أبي يعلى الفراء البغدادي الحنبلي أبو الحسين : طبقات الحنابلة ، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة سنة على تأسيس المملكة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1999.

18. يوسف بن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دار الكتب ، (د.ط) ، مصر ، 1963.

19. تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو ، مطبعة فيصل عيسى البابي الحلبي ، ط1 ، القاهرة ، 1964.

20. محمد بن محمد بن محمد الغزالي : التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، تحقيق أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1988.

21. ابن تيمية : الزهد والورع والعبادة ، تحقيق حماد سلامة ، مكتبة المنار ، ط1 ، الأردن ، 1987.

22. محمد بن محمد الغزي نجم الدين : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، تحقيق خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1997.

23. محمد الأمين الشنقيطي : أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، دار عالم الفوائد ، إشراف بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط1، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، 1426هـ

24. عباس محمود العقاد : موسوعة العقاد الإسلامية ، دار الكتاب العربي ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1971..

25. علي محمد الصلابي: معاوية بن أبي سفيان ، دار الأندلس ، ط1 ، مصر ، 2008.
26. ياسر عبد الرحمن: موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق ، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع ، ط1، القاهرة ، مصر ، 2007.
27. سيد بن الحسين العفاني: زهر البساتين من مواقف العلماء والربانيين ، دار العفاني ، (د. ط) ، القاهرة ، (د. ت).
28. مصطفى سعيد الخن: عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، دار القلم، ط4 ، دمشق ، 1994.
29. وهبة الزحيلي: سعيد بن المسيب سيد التابعين ، دار القلم ، ط5 ، دمشق ، 1992.
30. عبد الرحمن أفت الباشا: صور من حياة التابعين ، دار الأدب الإسلامي ، ط15، القاهرة ، 1997.
31. علي محمد الصلابي : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج ، دار البيارق ، ط1 ، الأردن ، 1998.
32. يوسف القرضاوي: تاريخنا المفترى عليه ، دار الشروق ، ط1 ، القاهرة ، مصر ، 2005.
33. طارق السويدان: الإمام أبو حنيفة النعمان ، الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط1 ، الكويت ، 2011.
34. السيد عفيفي: حياة الإمام أبي حنيفة ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، (د.ط) ، القاهرة ، مصر ، 1350هـ.
35. محمد أبو زهرة: أبو حنيفة حياته وعصره آراؤه الفقهية ، دار الفكر العربي ، ط2 ، القاهرة ، 1947.
36. محمد أبو زهرة: مالك حياته وعصره آراؤه الفقهية ، دار الفكر العربي ، ط2 ، القاهرة ، 1952.
37. طارق السويدان: الإمام مالك ، الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط1 ، الكويت، 2009.
38. عبد الغني الدقر: الإمام سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1994.
39. شوقي أبو خليل: هارون الرشيد ، مؤسسة اقرأ ، ط1 ، القاهرة ، 2006.

40. أكرم عمر القواسمي : المدخل إلى مذهب الإمام الشافعي ، تقديم مصطفى الخن، دار النفائس ، ط1 ، الأردن ، 2003.
41. طارق السويدان : الإمام الشافعي ، الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط1 ، الكويت ، 2007. 42. محمد بن محمد أبو شهبة : أعلام المحدثين ، مركز كتب الشرق الأوسط ، (د.ط) ، القاهرة ، مصر ، 1996.
43. طارق السويدان : الإمام أحمد بن حنبل ، الإبداع الفكري للنشر والتوزيع ، ط1، الكويت ، 2006.
44. محمد جمال الدين القاسمي الدمشقي : تحقيق محمد الارناؤوط ، دار النفائس، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1992.
45. أنور الجندي : من أعلام الإسلام ، مطابع الدار القومية ، (د.ط) ، روض الفرج، القاهرة ، (د. ت).
46. أنور الجندي : نوابغ الإسلام ، دار الاعتصام ، (د.ط) ، القاهرة ، 1983.
47. عبد الرزاق الكيلاني : الشيخ عبد القادر الجيلاني ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 2000.
48. عبد العزيز هيثم هاشم الغزولي : ابن الجوزي ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1992.
49. محمد الزحيلي : العز بن عبد السلام ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1992.
50. عادل نويهض : معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر ، مؤسسة نويهض الثقافية ، ط3 ، بيروت ، لبنان ، 1988.
51. عمر بن علي البزاز أبو حفص : الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1976.
52. أبي عبد الله محمد بن سعيد بن رسلان : حول حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، مكتبة المنار ، ط2 ، مصر ، 2002.
53. أورخان محمد علي : روائع من التاريخ العثماني ، دار الكلمة للنشر والتوزيع الإسلامية ، ط1 ، القاهرة ، مصر ، 2006.
54. محمد علي الصلابي : السلطان محمد الفاتح ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط1 ، المنصورة ، مصر ، 2008.
55. محمد علي الصلابي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط1 ، مصر ، 2001.

56. علي الطنطاوي صور من الشرق في اندونيسيا : دار المنارة للنشر والتوزيع ، ط1 ، جدة ، السعودية ، 1992.
57. خير الدين الزركلي : الإعلام ، دار العلم للملايين ، ط15 ، بيروت ، لبنان ، 2002.
58. يوسف بن عبد الرحمن : نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الربع عشر وبذيله عقد الجواهر في علماء الربع الأول من القرن الخامس ، دار المعرفة ، ط1 ، بيروت ، 2006.
59. سيد بن حسين العفاني : صلاح الأمة في علو الهمة ، مؤسسة الرسالة - دار العفاني ، ط1 ، القاهرة ، 1997.
60. جمال عبد الهادي : الطريق إلى بيت المقدس ، دار الوفاء ، ط3 ، المنصورة ، مصر ، 2001. 61. محمد محمد حسن شراب : عز الدين القسام شيخ المجاهدين في فلسطين ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 2000.
62. مازن صلاح مطبقاتي : عبد الحميد بن باديس ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1996.
63. رابح عدالة : عبد الحميد بن باديس ، نوميديا للطباعة والنشر والتوزيع ، (د.ط)، قسنطينة ، الجزائر ، 2012.
64. مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان ، التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد بن باديس ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، (د.ط) ، الرياض ، 1435 هـ.
65. عبد الرحمن بن محمد بن علي الهرفي : الجامع لأحكام الحج والعمرة ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، السعودية ، 1425هـ.
66. أنور الجندي : حسن البنّا الداعية الإمام والمجدد الشهيد ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 2000. 67. أبو الأشبال أحمد بن سالم المصري : شذرات البلاتين من سير العلماء المعاصرين ، دار الكيان ، ط1 ، الرياض المملكة العربية ، السعودية ، 2006.
68. عبد الرحمن بن عبد العزيز السديس : بديع الطراز في منهج الفتوى عند الإمام ابن باز ، دار النوادر ، ط1 ، دمشق ، سوريا ، 2014.
69. علي عبد الفتاح : أعلام المبدعين من علماء العرب والمسلمين ، دار ابن حزم ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 2010.

70. محمد بن إبراهيم الشيباني : حياة الألباني وثناء العلماء عليه ، مكتبة السداوي، ط1 ، القاهرة ، 1987.
71. إبراهيم محمد العلي : محمد ناصر الدين الألباني محدث العصر وناصر السنة ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 2001.
72. خالد بن جمعة بن عثمان الخراز : موسوعة الأخلاق ، مكتبة أهل الأثر ، ط1 ، الكويت ، 2009.
73. محمد بن رزق طرهوني : التفسير والمفسرين في غرب إفريقيا ، ج1 ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ، 1426 هـ .
74. أحمد بابا التنبكتي : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، عناية وتقديم عبد الحميد عبد الله ، دار الكاتب ، ط2 ، طرابلس ، ليبيا ، 2000.
75. بوعمامة فاطمة : اليهود في المغرب الإسلامي خلال القرنين 7 - 9 هـ ، 13 - 14 م، كنوز الحكمة ، ط4 ، الأبيار ، الجزائر ، 2011.
77. رابح خدوسي وآخرون : موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين ، دار الحضارة ، (د.ط) ، بئر توتة ، الجزائر ، 2003.
78. محمد الصالح الصديق : شخصيات ومواقف ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، (د . ط) ، شارع زيغود يوسف ، الجزائر ، 1992.
79. بسام العسلي : عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ، دار النفائس ، ط2 ، بيروت ، لبنان ، 1983.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء...	04
شكر و تقدير..	05
تصدير...	06
مقدمة..	07
عمرو بن العاص (داهية العرب)..	09
معاوية بن أبي سفيان (صحابي جليل وعالم كبير)......................	13
عبد الله بن عباس (حبر الأمة وترجمان القرآن)...........................	17
سعيد بن المسيب (سيد التابعين)..	22
عامر الشعبي (علامة العصر وحكيم الأمة).................................	26
الحسن البصري (الحكيم الواعظ والزاهد العالم)...................	30
عبد الملك بن مروان (نجيب بني أمية)..	35
طاووس بن كيسان (طاووس العلماء والزهاد وزينتهم)................	38
عطاء بن أبي رباح (مفتي الحرم)..	42
عطاء بن يسار مالك (الإمام الفقيه الواعظ المذّكر)......................	45
سعيد بن جبير (جهبذ العلماء)...	47
عمر بن عبد العزيز (الخليفة الزاهد)..	50
أبو حنيفة النعمان (الإمام الأعظم)..	56
الإمام مالك (إمام دار الهجرة)...	63
سفيان الثوري (أمير المؤمنين في الحديث).................................	67
الفضيل بن عياض (عابد الحرمين)..	71
الإمام أبو يوسف (قاضي قضاة الدنيا)...	76
الإمام الشافعي (إمام الدنيا وناصر السنة).................................	81
الإمام أحمد بن حنبل (إمام أهل السنة والجماعة).......................	86
الإمام البخاري (سيد الحفاظ و إمام المحدثين)........................	90
أحمد بن طولون (مؤسس الدولة الطولونية).................................	93

العلامة أبو حفص عبد الجبار (الفقيه الزاهد)........................... 95
القاضي منذر بن سعيد (معلم الملوك وراية الحق)...................... 97
الإمام الغزالي (حجة الإسلام).. 100
الشيخ عبد القادر الجيلاني (الإمام الزاهد القدوة)........................ 103
ابن الجوزي (العالم المربي والواعظ البليغ)................................. 107
العز بن عبد السلام (سلطان العلماء وبائع الملوك والأمراء)..... 109
الإمام بن تيمية (شيخ الإسلام).. 115
صمونجي بابا (الولي الرباني)... 119
الشيخ آق شمس الدين (الفاتح المعنوي للقسطنطينية)............ 121
السلطان محمد الفاتح (فاتح القسطنطينية)................................. 123
السلطان بايزيد الثاني (السلطان الورع)...................................... 126
العالم العلامة علاء الدين الجمالي... 128
خير الدين كججي أفندي (صاحب جامع : كأنني أكلت !!) 130
الإمام المصلح عبد الكريم المغيلي... 131
العالم الأمير الاندونيسي ديبانيكارا.. 134
الشيخ العلامة سعيد الحلبي... 136
الشيخ العلامة حسن العدوي... 138
الشيخ عز الدين القسام (شيخ المجاهدين في فلسطين)............... 141
الشيخ عبد الحميد بن باديس (العالم الرباني والزعيم السياسي)... 143
الإمام العلامة محمد البشير الإبراهيمي (فخر علماء الجزائر)....... 150
الشيخ الطيب العقبي (الداعية المصلح والإمام القدوة)............. 155
شيخ المصلحين أبو يعلى الزواوي.. 158
أحمد توفيق المدني (العالم المصلح والمؤرخ النابغة)................... 162
المجاهد البطل سعيد الجنادي... 166
شيخ الإسلام محمد الأمين الشنقيطي... 168
حسن البنّا (الداعية الإمام والمجدد الشهيد).................................. 172
الإمام ابن باز (علامة الجزيرة وفقيد الأمة)................................... 178
الشيخ الشعراوي (امام الدعاة وعبقري التفسير)............................ 182

محمد ناصر الدين الألباني (محدث العصر وناصر السنة)........... 186
الإمام ابن عثيمين (عالم العصر)... 190
خاتمة.. 196
قائمة المصادر والمراجع.. 197
الفهرس.. 203